كادوڨليات

كادوقليات

يحيى فضل الله

ISBN 9789773120191

© Willows House 2021

الطبعـة الأولـى: 2021 منشورات ويلوز - جوبا

جميـع حقـوق النشـر محفوظـة للناشـر، ولا يحـق لأي شـخص أو مؤسسـة أو جهـة، إعـادة إصـدار هـذا الكتـاب، أو جـزء منـه، أو نقلـه، بـأي شـكل أو واسـطة مـن وسـائط نقـل المعلومـات، سـواء أكانـت إلكترونيـة أو ميكانيكـة، بمـا في ذلـك النسـخ أو التسـجيل أو التخزيـن أو الاسـترجاع، دون إذن خطّـيّ مـن الناشر.

All copyrights are reserved to the publisher, and no person, institution or entity has the right to reissue this book, or part of it, or transfer it, in any form or medium of information transmission, whether electronic or mechanical, including copying, recording or storing Or, without written permission from the publisher

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي النّاشر

Willows House
منشورات
ويلوز هاوس

جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جيران

www.willowshouse.net
www.jubabok.com
gatawillow@gmail.com
willowshouse3@gmail.com
+211927302302

*

تداعيات

يحيى فضل اللَّه

كادوقليات

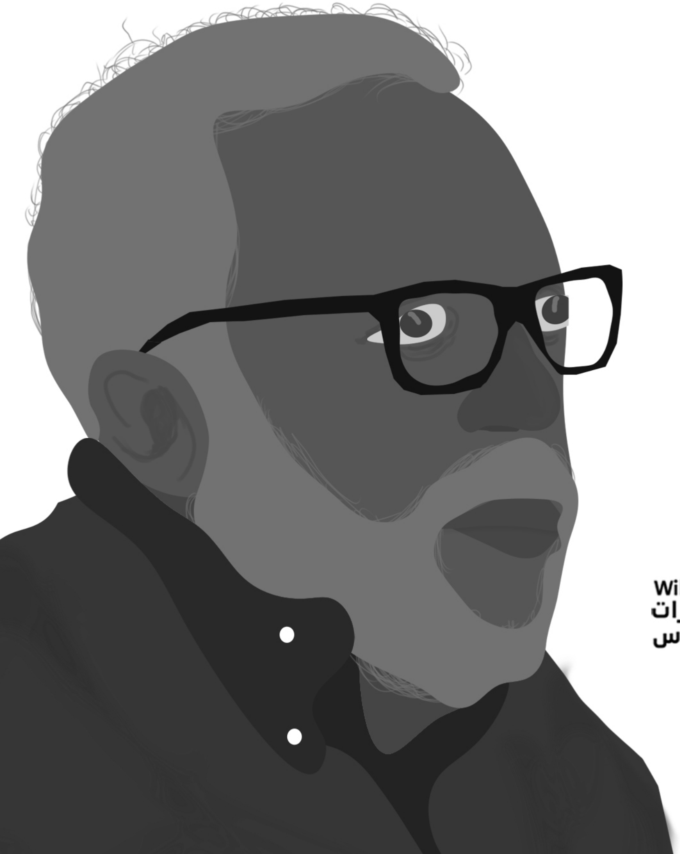

Willows House
منشورات ويلوز هاوس

إهداء

إلى «أبو التايه»

أبوي وصاحبي الأزلي

فضل الله العوض عبد السلام

وعبره إلى كل الكادوقلاب

كادوقلي بين الضحكة والبارود

ها هي رسالة من سلطنة عمان تحرضني على فتح النوافذ منتميًا ضد الانغلاق، أستاذي الزاكي جمعة يوسف، أستاذ مادة التاريخ بمدرسة كادوقلي الثانوية العليا «تلو» يقترح أمامي نوافذ مفتوحة، يا لها من دعوة إلى التأمل، الآن فقط أتذوق لذة النص، أتحسس بتلقائية علائق المكان بالذاكرة وجدال الذاكرة مع المكان، في إهدائي لكتابي القصصي الأول «حكايات وأحاديث لم تثمر» كتبت: «إلى كادوقلي، تلك المدينة التي علمتني التأمل، إلى جماعة السديم المسرحية، حيث شكلتني بحلمها الدؤوب وبحثها العميق عن مسرح جاد، إلى كل من أسهم في تكويني ودفعني نحو نفسي كي أرى بعمق».

هل تذكر أستاذي، مرة خربشنا على وجه «بسمارك» وتساءلنا، هل «الزبير باشا» يستحق تلك البطولة التي

يستحقها «الفكي علي الميراوي»؟ كنا نهرب من حدة الجدول ونتساءل عن اغتيال «وليم دينق» وقد نتمادى أكثر ونحلحل تلك الخيوط الدقيقة في نسيج اختناق المزارعين في «عنبر جودة»، أنت تعرف أن «خور حجر المك» ينسف تلك المعادلة التي تسيطر على ذهن الأستاذ الحميم «حياتي الطيب»، «الداف» يقف جامدًا أمام هدير تلك المياه بنية اللون، فها هي عربة المدرسة أو عربة المدرسين كما كان يظن الأستاذ «حياتي» القادم من أم درمان، المدرسون والطلبة والكتبة والمحاسبون والعمال، كلهم يهربون من سيطرة الآلة ويتركون العربة «الداف» خلفهم ويتحركون في الاتجاهات الأربعة، تهيم تلك الخطوات التي عبرت جمود التصنيفات وتخطو دائمًا نحو الممكن بين المستحيلات، أذكر أنك شاركتنا هذا المسار الدائري والممتع بفعل نداوة ذلك الخريف، هل أخبرك أستاذي عن قمر يتسكع بين الغيوم والليل يكاد يعلن خضرته - لاحظ خضرته – على تلك الجبال؟ أو هل تذكر تلك البروق والرعود المرعبة، أعتقد أن صوت المدافع يتضاءل أمامها الآن.

مقام محبتي

أستاذي الزاكي جمعة.

تلوح لي دائمًا بتلك الشفافية، بكل هروبك من الأفكار الجامدة، بكل ذلك الحس الاجتماعي ممتدًّا في تجربته الجمعية، تلوح لي مبتسمًا وتسألني الآن، الآن؟

تأمل أستاذي هذه اللحظة الزمنية في بعدها الدرامي، شوف كم سنة؟ الآن تسألني إن كانت رسالتك تدخل في السرور؟ لماذا تراني أدمن الجملة الاعتراضية؟ لاحظ الخروج من جملة اعتراضية والدخول إلى أخرى مكثفة الاعتراض، على كلٍّ، أقول، تلوح لي أستاذي وأنا أتأمل هذه الجملة في إهدائي لكتابي «حكايات وأحاديث لم تثمر» - «إلى كل من أسهم في تكويني ودفعني نحو نفسي كي أرى بعمق» وهأنذا أستاذي مدفوع إلى نفسي كي أرى بعمق، حتى لو في العتمة تلك التي ستهزمها النوافذ المفتوحة، مرحبًا بك وتحياتي وودي العميق.

* * *

أخي العزيز

الأستاذ يحيى فضل الله

المحترم

لك التحيات الطيبات المباركات، ولأسرتك الكريمة، وزملائك السلام والمحبة، وبعد...

رغم أنك قلت إن ما تفكر فيه يأتيك مختارًا، كأن تبحث عن قصيدة لـ»الطيب ود ضحوية» فلا تجدها، ولكنك في يوم آخر تُفاجأ بديوان «ود ضحوية» يأتيك دون موعد، هكذا قلت عن نفسك لكن هذه الرسالة التي بين يديك لم تتوقعها ولم تبحث عنها في يوم من الأيام، فأرجو

أن تقبلها يا أخي، فإن أدخلت إلى نفسك السرور فالحمد لله، وإن لم تدخله فالحمد لله كذلك، والعذر من عندي في هذه الحالة مبذول لك حتى كل الرضا.

اطلعت عبر جريدتنا الغراء «الخرطوم» على مفكرتيك «أنا شخصيًّا» و«كيدمان وصل» فعدت والعود أحمد، إلى كادوقلي وإلى أحلى سني عمري؛ تلك التي قضيتها هناك، ومن حينها بدأت في كتابة رسالة إليك، لكنها «الرسالة» لم تكتمل حتى الآن؛ فالحديث عن كادوقلي يطول وأعد بأن أحكي قصصًا وذكريات عن تلك الديار الجميلة في مرات قادمات بإذن الله.

ذهبت إلى كادوقلي بمحض المصادفة لأبقى بها أربع سنوات، هي كما ذكرت أحلي سني عمري على الإطلاق، وربما كان هذا الكلام غريبًا للذين لا يعرفون عن كادوقلي، إلا أنها «كاد يغلي» فقط وذهابي إلى كادوقلي كان مصادفة لها قصة.

بعد تخرجي في كلية التربية جامعة الخرطوم ثم نقلي إلى العمل في معهد التربية الدلنج، كانت تلك السنة التي بدأت فيها وزارة التربية والتعليم تركز على تدريب المعلمين على الطريقة، ومن ثَمَّ كان المعلمون المهمون بالمعاهد هم معلمو الطريقة - قدامى معلمي الابتدائي - وصار معلمو المواد من أمثالنا بلا عمل يذكر، حيث صار العمل كله مشاغل تربوية، وأذكر أن عميد المعهد كان المربي «حامد

محمود» وكنا نكثر عليه بالأسئلة عن ماهية الشغل، وما معنى الكلمة، فكان عندما تزعجه الأسئلة يقول لنا: «الشغل لا هو حصة ولا هو محاضرة وإنما هو شغل»، فكان كمن يفسر الماء بالماء، وهكذا قضيت شهرين أو ثلاثة بالمعهد زاملت خلالها خيرة المعلمين وأفضلهم، ولكن كان جدول حصصي «٩» حصص فقط، إذ أُدرِّس التاريخ لكل المعهد مع زميلي الدكتور الآن «النور دفع الله»، وهو معلم هاوٍ ورقيق وعلى خلق، لكننا كنا ما نزال في فورة الشباب والحماس للعمل، فلم أقتنع بذلك الحال العاطل، وقد شكوت ذلك الحال إلى أستاذنا «أحمد إسماعيل النضيف» مساعد المحافظ للتعليم الذي عُيِّن كأول مساعد للمحافظ للتعليم في المديرية الوحيدة التي سميت في ذلك العام يوليو ١٩٧٥م وعُيِّنَ لها السيد «هاشم حسن عبد الله» محافظًا الذي كان في الأصل نائب محافظ مديرية كردفان الأم وقد كان الأستاذ «النضيف» في زيارة للمعهد، وهو في الأصل كان مسجلًا لكلية التربية بالخرطوم قبل تعيينه مساعدًا للمحافظ، ومن هنا كانت صلتي به. يشاء الله أن تحدث مشكلة في مدرسة كادوقلي الثانوية «تلو» بسبب نقص المعلمين، فقد كانت المدرسة شعلة من النشاط الطلابي الثوري المُعدِّ دائمًا للاشتعال وإحداث حركة، وكان طلابها من النوع الناضج والهائج الذي لا يرضى الضيم، برغم أنهم كانوا أكثر الطلاب أدبًا وتأدبًا لمعلميهم، المهم كانت المشكلة أساسًا نقصًا في معلمي مادة التاريخ، إذ إن المعلم

الوحيد واسمه «محمد عبد الصمد» كان قد ترك المدرسة هكذا و«دج» في الخلاء ويقال إن عقله لم يكن سليمًا تمامًا، المهم، جاءت الحكومة واجتمعت مع الطلاب المعتصمين، وكان طبعًا أول المسؤولين السيد مساعد المحافظ للتعليم أستاذنا الجليل «النضيف» وهو رجل سامق القامة، مياس، شديد الرأي، لا يعرف الانحناءة أبدًا إلا إلى سبحانه وتعالى، اجتمع مع الطلاب و«عصلج» «أولاد تلو» في حكاية معلم التاريخ، ولأن المشكلات كلها قد حُلَّتْ في الاجتماع ولم تبق إلا هذه، تفتقت قريحة أستاذنا وقال للطلاب متحديًا: «إذا أحضرت لكم معلم التاريخ غدًا فماذا أنتم فاعلون؟»، أجابوا بأنهم سيذهبون إلى دراستهم فوعدهم أن المعلم سيصل غدًا، وقد كانت المصادفة سيدة الموقف فعلًا، إذ تصادف أن مدرسة كادوقلي الثانوية في ذلك العام كانت قد أُدرِجَت ضمن مدارس المجموعة «ب» وهي المجموعة التي يذهب طلابها في إجازتهم في أثناء الخريف، ويبدأ عامهم الدراسي في أكتوبر وأذكر أن هذا الأمر كان في نوفمبر وكانت مدارس المجموعة «أ» ومنها معهد التربية بالدلنج في إجازة المدة الأولى التي كانت تسمى في ذلك الزمان إجازة «نص السنة»، وقد كنت أقضي إجازتي بين أهلي في مدينة «الأبيض» حين جاءني أحد الأصدقاء، وطلب مني أن أذهب إلى مكتب التعليم لمقابلة الأستاذ «محمود الأمين الضري» كبير موجهي التعليم الثانوي حينها، وكان الشخص الوحيد في ذلك الوقت المسؤول عن كل التعليم الثانوي في مديرتي

شمال وجنوب كردفان - حين لم تكن مساخر هذا الزمان موجودة - قابلت الأستاذ «الضرير» فأفادني بأن الأستاذ «النضيف» اتصل به من كادوقلي وهو في ورطة، وحلها في وجود معلم تاريخ، وطلب أن يبلغوني هذه الرسالة: «أن تحمل ملابسك فقط حتى لو في «بقجة»» هكذا قالها: «وتحضر عنده في كادوقلي باكرًا».

أخذت الرسالة وفهمت المقصود وكان عليَّ أن أكون في مستوى الموقف والتحدي، فات عليَّ أن أذكر لك أن الأستاذ «الضرير» أبلغني بأنني إذا قبلت وسافرت إلى كادوقلي فسوف أكون في مأمورية - يعني بدل سفرية وكده - بالنسبة إليَّ كانت المسألة واضحة، أستاذي «النضيف» في ورطة، مشكلة، الطلاب ليس لديهم معلم، «النضيف» في تحدٍّ، كل ذلك جعلني لا أفعل شيئًا غير أن أكون في الصباح الباكر في موقف عربات الجبال، وأول مرة في عمري أركب سيارة وجهتها بعد الدلنج جنوبا والدلنج نفسها شاهدتها قبل ثلاثة شهور فقط.

كان الخريف في ذلك العام رهيبًا، فوصلت الحافلة إلى كادوقلي الساعة الثانية عشرة - منتصف الليل - لأجد الأستاذ «النضيف» مساعد المحافظ للتعليم - تصور - في انتظاري ليأخذني بسيارته «الميركوري الأخضر» إلى مدرسة «تلو» وكنت واثقًا أن المربي الجليل أراد أن يقول للطلاب: «هكذا قد أوفيت بوعدي ووصل المعلم في اليوم التالي،

فاذهبوا إلى دروسكم»، وكان ذلك كالمعجزة حقًّا، ثم أصبح الصباح لأقابل مدير المدرسة وكانت كادوقلي أو «كاد يغلي» عروس الجبال وأجمل المدائن تلف خصرها الرقيق سلسلة الجبال الخضر، حتى تكاد تقطعه، أهلها حلوين ومضيافون سحنتهم سحنة أهل السودان وريحهم طيب كأهل ود المكي في مسدار «قطار الغرب» الذي يصور لك محطة «الأبيض» حتى كأنك تسمع صفارة القطار، كانت كادوقلي لا تنام، وكانت كل المدينة تقضي ليلها ضاحكة، أقول كلها تمامًا، تضحك من «السمة» حيث ناس «الطيب عز العرب» وأولاد «المراد» حتى ناس «عبد القادر» في «تافري» و«صلاح عقب» في «الملكية» ومن ناس «ذو النون» و«عروة» في «حي السوق» حتى ناس «سومي» في «حجر المك»، كلها مدينة ضاحكة، أهلها لا يحملون إلا همَّ الحب كجيل «محمد المكي» في «هايدي» و«الشرف القديمة»، حفلات «الترم ترم» وشباب كادوقلي المرح الضاحك «تافري»، «البانجديد»، «قعر الحجر»، «حي السوق» و«السوق البرة» و«حجر المك» و«حلة الفقراء» و«تلو» و«السمة» و«حجر النار» و«كليمو» و«كلبي» و«كلبا» و«مرتا» وفي كل ركن من تلك الأحياء كانت لنا ذكرى محفورة في الخاطر والوجدان، وأصدقاء حميمون تربطنا بهم علائق ما زالت باقية برغم رصاصات الهوس الديني الذي تنام عليه المدينة الآن، يا للمفارقة، مدينة تنام على أصوات الموسيقى ويستنشق أهلها عبير الياسمين والريحان الآن يستنشق أهلها البارود ورائحة الجيف.

بعد الستة أشهر الأولى طلبت منهم أن يوقفوا بدل السفرية وينقلوني إلى كادوقلي، فقد طاب لي المقام.

يا لهذا الحنين - أستاذي - لا خوف مطلقًا من مغبَّة أن نُتَّهم بالنوستولوجيا. «علي المك» في مقدمته لديوان «خليل فرح» جوهر علاقة «الخليل» بأم درمان بهذه الجملة «يا لهذه النوستولوجيا الأم درمانية»، حين رحل عن عالمنا هذا «الوناس» السوداني العظيم تساءلت: «تُرى كيف تختار أم درمان ضحكتها الحزينة؟»، هأنت أستاذي تحدثني عن ضحكات كادوقلي، وبالمناسبة لي قصيدة بعنوان «كادوقلي أهزوجة للتداعي والانسجام» كتبتها وأنا في انتظار الطوف العسكري كي يوصلني إلى كادوقلي.

* * *

أستاذي

لا أملك إلا أن ألتقط الآن ضحكة من تلك الضحكات وأنت طرف فيها، هل تذكر «كمال عوض» - ودعمك حاج عوض - الله يرحمه - وشقيق «أحمد عوض» - سكرتير النادي الأهلي في تلك الحقبة، شقيق لاعب فريق الأهلي المميز مبارك عوض، «كمال عوض» الملقب بـ»تركش» وهي اختصار في مقام الدلع لتلك النحلة الشرسة التي تسمى «أم تركش»، صبي مشاغب ذو متاعب طريفة، في مساء صغير كما يقول «محمود درويش»، كنتَ مارًّا بشارع «الإسبتالية»، بنك

«النيلين» على يدك إلى مين زي التكنك جاي من «كليمو» وخليت المديرية وراك، قطع شك تكون هسه يا أستاذ شميت ريحة مخلفات طيور «أبو الريهيو» الناصعة البياض حتى إنه - البياض - يحتل حتى مخلفاتها، طيور «أبو الرهيو» التي تستعمر هذا الشارع المظلم دائمًا، كنتَ تمر من هناك وفجأة يقترب منك هذا الصبي المشاكس «كمال تركش».

«لو سمحت ممكن ولعة؟»

وحين أخذ سيجارتك ليشعل بها تلك التي معه اكتشف أنه أمام أستاذه الزاكي، فما كان منه إلا أن هرب من أمامك، لكنه هرب ومعه سيجارتك، هل تذكر هذه الطرفة؟

ما زالت النوافذ مفتوحة بيني وبين أستاذي الزاكي جمعة يوسف الذي كان أستاذ مادة التاريخ بمدرسة كادوقلي الثانوية العليا «تلو» عبر رسالته الحميمة، أرسلها إليَّ من سلطنة عمان، حيث يعمل هناك في مجاله مديرَ مدرسة إعدادية، يقول الأستاذ الزاكي: «عشت يا يحيى أجمل أيام العمر وقد كانت مدرسة كادوقلي الثانوية متميزة في كل شيء بدايةً بطلابها، فقد كانت على أيامنا دائمًا من مدارس قائمة الشرف - العشر الأوائل - ولا أذكر أن طالبًا رسب في الشهادة في مادة التاريخ التي كنت أدرسها وهذا هو الحال مع معظم المواد، وما زلت أذكر أن شابًّا اسمه «محمد الحسن الأمين» - فهو قطعًا ليس ذلك الشاب الذي ولَّاه

أهـل الإنقـاذ أمـر أهـل كردفـان، أقـول أذكـر أن هـذا الطالـب «محمـد الحسـن الأميـن» مـن كادوقـلي الثانوية أحـرز ٩٥ في مادة التاريـخ، وغـيره كثـيرون كانـوا مـن الطـلاب المتفوقـين في المـواد المختلفــة، كان في مدرسـة كادوقــلي طــلاب ومنهــم «يحــيى فضـل الله» يمكـن أن يحدثـوك وهـم بعـد طـلاب صغـار عـن لـوركا وبيكاسـو والديالكتيـك، وعـن جيفـارا والموناليـزا ورسـالة الغفـران والكوميديـا الإلهيـة واليوتوبيـا، ومنهـم مـن قرأ لسلامة مــوسى وخالــد محمــد خالــد، وتولســتوي وفيكتــور هيجــو، في الوقـت نفسـه يمكـن أن يحدثـوك عـن البيتلـز والمارجوانـا وسياسـة التميـيز العنـصري، كنـا نحاورهـم في كل شيء، وكانـوا يحاورونـا بمسـتوى راقٍ، ولا أنـسى حصـة تحدثـت فيهـا عـن السـلطان عبـد الحميـد وجمـال عبـد النـاصر مـن وجهـة نظـري طبعًـا، فأغضـب حديثـي طالبـين مـن الإخـوان المسلمين همـا «أحمــد عبــد الواحــد» و«مــوسى عــلي ســليمان» وقــد كانـا طالبـين مؤدبـين، رغـم أنهمـا مـن جماعـة الهـوس، لكنهمـا كانـا يعاملاننـا باحـترام وتقديـر كبيريـن، كنـا في كل دفعـة ندخـل إلى كليـة الطـب مـا بـين ٥-٧ طـلاب، وهـم الآن مـن خـيرة أطبـاء السـودان، ثـم كانـت كادوقـلي عظيمـة في معلميهـا، فقـد عـاصرت فيهـا خـيرة المعلمـين والمفكريـن، في موقـع مسـاعد المحافـظ للتعليـم كان أسـتاذنا «أحمـد إسـماعيل النضيـف» وبعــده أســتاذي «حســن حامــد مهــدي» فقــد علمانــا كيـف نكـون معلمـين وكفـى، وفي المدرسـة عملـت مـع مديريـن أولهمـا أسـتاذنا «حـران»، كان رجـلًا هادئًـا تخصـص في مـادة الرياضيـات

في مـصر، ودرس اللغـة الفرنسـية كذلـك، كان يكـره الـكلام في السياسـة - يقـال إن ذلـك كان لتجـارب سـابقة - كان يميـل دائمًـا إلى الحيـاد، وعـلى المسـتوى الإداري يُحـكى عنـه أن تقريـره السـنوي الـذي يكتبـه عـن المعلـم لـن يفهـم المسـؤولون عنـه أنـه لمصلحتـك أو ضـدك، لكنهـم سـيمنحونك علاوتـك السـنوية، كان طيـب القلـب، عفيـف اللسـان، يحـكي النكتـة لمـن يحبهـم ويثـق بهـم مـن المعلمـين، وكان يكـره نـوع المعلمـين الذيـن كنـا نسـميهم «المولانـات»، كان «حـران» جـزء لا يتجـزأ مـن «تلـو»، يقـضي فيهـا حـتى إجازتـه الصيفيـة ولا يذهـب إلى أهلـه في الخرطـوم، وكان لـه ابـن اسـمه «إقبـال»، أذكـر أنـه في أول أيـام الإجـازة، عندمـا تخلـو المدرسـة ويسـافر جميـع الطـلاب مـن الداخليـات، كان ينظـر إلى المدرسـة ويقـول: «لا بنريدهـم ولا بنحمـل بلاهـم» - يقصـد الطـلاب - كانـت أيامـه غالبًـا مـا تشـهد إضرابـات بسـبب النقـص في المعلمـين، فقـد كانـت كادوقـلي بعيـدة، ولـم تكـن المواصـلات ميـسرة بسـبب الأمطـار وعـدم رصـف الطريـق، ألـم تسـمع بتلـك المعلمـة الـتي أخبرهـا المسـؤولون بـوزارة التربيـة بالخرطـوم بأنهـا منقولـة إلى كادوقـلي، فـردَّت عـلى محدثهـا في شـكل سـؤال قائلـة:

«ك... إيه؟»

أستاذي الزاكي

أحتـاج إلى أن أشرح كيـف أن رسـالتك الحميمـة قـد حرَّضـت ذاكـرتي وجعلتـني أسـتدعي الكثـير مـن التفاصيـل الـتي تمكنـني

من أن أتداخل معك عن طريق أسلوب المقاطعة - يقولون إنني أحب المقاطعة دائمًا وهذا ربما من عيوبي – لذلك أجدني أنحاز إلى التدفق التلقائي في رسالتك هذي دون أن أقاطعها أو أتداخل معها محافظًا على إيقاعها السلس وأترك هذه الرغبة مؤجلة حتى أعود إلى رسالتك.

وعملت فيها – مدرسة كادوقلي الثانوية العليا «تلو» - مع مدير آخر هو الشيخ «محمد ونسي محمد خير» وهو بقاري مسيري، وهو بقدر ما كان طيبًا كمسيري لكن «الكوز» الذي داخله كان دائمًا ما يشده إلى مواطن الخلاف والتشنج والهوس وأذكر أنك في استراحتك بعنوان «أنا شخصيًّا» أشرت إلى أن «ونسي» والأستاذ «فضل الله» كانا يميلان إلى الإخوان المسلمين أو الجبهة، هما يا صديقي لا يميلان، بل ينبطحان تمامًا، وما أكثر انبطاح هذه الجماعة كما تعلم، ولك أن تعلم أن «ونسي» كان في جامعة إفريقيا العالمية بدرجة وزير، وكان ابنه «أحمد ونسي» نائب والي ووزير الشؤون الاجتماعية ببحر الغزال، أما «فضل الله التوم البيه» فقد كان بدرجة وزير بمجلس ولاية غرب كردفان مع الدكتور «بشيرادم رحمة» الوالي، أما حكاية الانبطاح فيُحكى أن عمنا الناظر «بأبو نمر» – ألف رحمة ونور عليه – التقى «جعفر نميري» وكانت تربطه به صلة قوية، و«نميري» طبعًا في أول عهده حلَّ كل شيء وصادر كل شيء وأمَّم كل شيء، ثم عاد وأعاد معظم المصادرات والأشياء المؤمَّمة التي فعلها على قاعدة «إن الثورة تراجع ولا تتراجع»، تلك كانت «مايو»،

جاءتنـا الآن «يونيـو» فهـي تتراجـع ولا تراجـع، يـا للمصيبـة، المهـم عمنـا «بابـو نمـر» التقـى «جعفـر نميري» بعـد أن ألغـى قـرارات التأميـم والمصـادرة وقـال لـه: «يـا جعفـر أنت كلـو زول في السـودان دا صارعتـو ورميتـو، ولكـن قـم منـو إلا نحنـا الإدارة الأهليـة دول صارعتنـا ورميتنـا لكـن انبطـح فينـا بطحـة واحـدة لكـن مـا قـم كلـو»، وطبعًـا «نمـيري» لـم يرجـع الإدارة الأهليـة وظـل منبطحًـا عليهـا إلى أن راح مـع «شـليل»، أقـول «فضـل اللّٰه التـوم» و«ونـسي» كانـا جبهـة وإخـوان مسـلمين خمسـة نجـوم، ولهـذا لـم نسـمح لشرهمـا - التزمـت والتشـنج والهـوس - أن يتمـدد في مدرسـة كادوقـلي الثانويـة، فكانـت «تلـو» منـارة، وكانـت بوتقـة تشـع النـور حولهـا فتـضيء كل جبـال النوبـة، وكانـت رسـالة التنويـر الـتي تقودهـا «تلـو» مشـتعلة متقـدة متعـددة الجوانـب كإنسـان الجبـال، فأنجبـت أبنـاءً متعـددي المواهـب، ويكفـي «تلـو» فخـرًا أنهـا أخرجـت أمثالـك، قـال لي أحدهـم : «في واحـد اسـمو يحـيى فضـل اللّٰه كتـب عنـك أكـثر مـن مـرة في جريـدة الخرطـوم، مـن هـو هـذا؟»، قلـت لـه: «ألسـت ممـن يقـرأون الخرطـوم بانتظـام ؟»، أجـاب: «نعـم». قلـت: «ألـم تسـمع عنـه في الخرطـوم الثقـافي أو السـياسي أو حـتى في الاسـتراحة؟»، أجـاب: «لا». قلـت: «ألا تعـرف بعـض المسرحيـين والمخرجـين السـودانيين؟»، أجـاب : «نعـم»، قلـت: «ألـم تسـمع بواحـد منـه اسـمه يحـيى فضـل اللّٰه؟». أجـاب: «لا». قلـت: «أتعـرف الشـعر والغنـاء؟ أسـمعت بالفنـان الموهـوب مصطفـى سـيد أحمـد؟»، أجـاب: «نعـم». قلـت:

«ألـم تسـمع بـأن مـن الذيـن يكتبـون لـه الشـعر الغنـائي يحـيى فضـل الله؟» أجـاب: «لا». قلـت لـه: «يـا أخـي إنـك إذن لـم تسـمع ولـم تعـرف شـيئًا مفيـدًا حـتى جريـدة الخرطـوم نفسـها، لكنـني أقـول لـك إن يحـيى فضـل الله هـذا تلميـذي، وهـو مـن نـوع التلاميـذ الذيـن يفخـر المعلـم بهـم ويتباهـى». أعـود إلى «ونـسي» و«فضـل الله» اللذيـن كانـا مـن الإخـوان المسـلمين الناشـطين، لكننـا كنـا نبطـل مفعولهمـا باسـتمرار، وكانـا بعكـس الأسـتاذ «بشـير عبـد الواحـد» الـذي كان يـدرس اللغـة الفرنسـية قبـل مجـيء صديقـي «أحمـد حسـن عبـد القيـوم» وصديقـي «راجـي الله آدم» فقـد كان «بشـير عبـد الواحـد» هادئًـا ومهذبًـا لكنـه جبهـة، وفي كادوقـلي عملـت مـع أسـتاذي «بشـير آدم» المشـهور بـ«بشيرتيT».

نسـبة إلى الشـلوخ الـ «T» على خديـه وقد درسـنا في «خورطقت» الثانويـة ووجدنـاه في كادوقـلي نائبًـا للناظـر، وبسـبب الوجـود الكثيـف لخريجـي «خورطقـت» مـن معلمـي مدرسـة كادوقـلي أصر «بشـير آدم» أنـه لـن يـدرس الـ٦ حصـص الـتي كان يدرسـها كنائـب ناظـر، بحجـة أنـه لا يمكـن أن يـدرس وبالمدرسـة وهـذا الكـم الهائـل مـن تلاميـذه المعلمين، فهنـاك «علي عبـد الواحد» في العلـوم و«فضـل الله التـوم» في الإنجليـزي و«الـزاكي جمعـة» في التاريـخ و«الجيـلي عمـر بلـل» في الجغرافيـا و«بشـير محمـد عـلي» و«أبـو البـشر محمديـن» في الفنـون «بشـير عبـد الواحـد» و«أحمـد حسـين» في الفرنسـاوي، فـكان للأسـتاذ «بشـير» مـا أراد وكنـا جميعًـا نعاملـه كمـا يعامـل التلاميـذ ولـه الحـق في أن

يأمرنـا مسـتعملًا عبـارة «يـا ولـد» بـأي أوامـر كمعلـم لنـا طبعًـا وليـس كنائـب ناظـر فقـد كنـا ومـا زلنـا نكـره أوامـر الرؤسـاء.

وفي كادوقـلي كان الشـيخ «عبـاس إبراهيـم» مـدرس الديـن وهـو رجـل طيـب جـدًّا وبـريء، ومـن نـاس «رشـاد» أو «العباسـية تقـلي»، وكان رجـلًا محبوبًـا وبسـيطًا جـدًّا، وفي كادوقـلي كان الأسـتاذ «بشـير محمـد عـلي» وهـو أسـتاذ التربيـة الفنيـة، وبالمناسـبة ورد اسـمه في المفكـرة وهـو رجـل طيـب وبسـيط، ومـن تلاميـذ الأسـتاذ محمـود محمـد طـه، وهـو مشـهور باسـم «بشـير جريشـة» ويُحـكى أن «بشـير» هـذا عندمـا كان ممتحنًـا للشـهادة الثانويـة في العـام١٩٦٦م في مـادة الفنـون كان ضمـن الموضوعـات سـؤال عـن يـوم الحـشر - يـوم القيامـة يعـني - ولأن الـذي وضـع السـؤال لا بـدَّ أن يكـون مجنونًـا فـإن أخانـا «بشـير» كرفـس الورقـة تمامًـا ثـم مطهـا وخلـط كل مـا لديـه مـن ألـوان في خلطـة واحـدة ورشـها عليهـا ثـم سـلم الورقـة، فكانـت النتيجـة أن أحـرز «بشـير». Distenction One ودخـل كليـة الفنـون الجميلـة، بربـك يـا يحـيى مـن هـو الفنان، «بشـير» أم الـذي أعطـاه الامتيـاز؟ ومـن الـذي يسـتحق الشبال؟

وفي كادوقـلي كان أسـتاذي «حسـن أحمـد البـلاع» أسـتاذ مـادة اللغـة الإنجليزيـة المشـهور وهـو مـن أسرة كبـيرة مـن نـاس «النهـود» وبالمناسـبة هـو «حسـن» وليـس «عبـد الرحمـن» كمـا ورد خطـأ في مفكرتـك، «عبـد الرحمـن» هـو شـقيقه وهـو العقيـد الـذي ابتلعتـه حـرب الجنـوب وقـد اشـتهر بـين ضبـاط

الجيش بالشجاعة ودقة التصويب، وإن أردت اسأل عن ذلك الأخ «دليل» المتخصص في شؤون الجيش السوداني في جريدة «الخرطوم»، ولا أنسى موقف الأستاذ «حسن البلاع» في العام ١٩٧٨م عندما أضرب الطلاب بحجة أن المعلمين توقفوا عن تدريس الحصص الزائدة عن الحد الأقصى المحدد لكل معلم، وكان المعنيان بالأمر أنا وصديقي «أحمد حسين» معلم الفرنساوي فاُستدعِي المدير «ونسي» الأمن وجاء السيد المحافظ حينها السيد «محمود حسيب» رحمه الله، أذكر أن «البلاع» واجه «ونسي محمد خير» أمام المحافظ عندما أفاد «ونسي» بأن «الزاكي» و«أحمد حسين» توقفا عن التدريس فقال له: «القرار هو قرار هيئة التدريس وليس قرار الزاكي وأحمد حسين، وما عليهما إلا التنفيذ». وبرغم ذلك جعلنا «ونسي» نزور صديقنا «جلال تاور» زميل الدراسة في «خورطقت» - ولكن ما كان أحد يتمنى زيارته وبقينا في ضيافة «جلال» إلى أن أتت المصادفة بالأخ المستشار «عبد الله أحمد المهدي» فأطلق سراحنا.

في كادوقلي الثانوية كان «علي محمد عبد الواحد» معلم مادة الأحياء الممتاز والرجل الطيب وهو من أهلنا «الكواهلة» من «كالوقي»، ود ريف يمتاز بالشجاعة والكرم والإيثار وكان مكان احترام الطلاب دائمًا لطيبته وحسن خلقة وتجويد عمله، كان في كادوقلي الأخ الأستاذ «حياتي الطيب عبد القادر» في شعبة العلوم و«حياتي» كان المسؤولون بالوزارة كثيرًا ما يعتقدون أنه بنت نسبة لاسمه، وكذا الحال مع

الأستاذ «معالي»، وكان «حياتي» معلمًا ممتازًا وشجاعًا جدًّا في قول الحق، وكانت له صولات وجولات مع شيخ «ونسي»، كنا نسكن في «حي السوق» في منزل السيد «مصطفى أبو حسنين» شخصي و»أحمد حسين» و»حياتي» و»راجي الله آدم» وكان إيجار المنزل ٥٠ جنيهًا وكنا ندفع منها فقط ٧٫٥، وتدفع الحكومة ما تبقى من المبلغ حسب قانون الإيجارات للموظفين في ذلك الوقت، كانت كادوقلي في ذلك الزمان هي مدينة الموظفين، وكانت سوقها العامرة يتوفر فيها كل شيء، وكان الشيء الوحيد المعدوم في كادوقلي هو السلاح، فقد كانت خالية تمامًا منه، وكانت مدينة آمنة تمامًا ومسالمة تمامًا تفعل فيها ما تشاء، لا أحد يسألك، ومن يريد أن يتأكد من صحة كلامي فليسأل شخصًا اسمه «توتو كورو»، هل سأله أحد يومًا وقال له لماذا لا تلبس ملابس؟ قلت إنها مدينة للموظفين وقد كنت والصديق «أحمد حسين» وبرغم أننا معلمون، فإننا كنا مرتبطين تمامًا بالموظفين في المدينة، خاصة مجموعة الضباط الإداريين التي كان شيخها المفتش «علي ماقيت» وهذه المجموعة كان أجمل ما فيها صديقنا «الطيب عبد الله» الشهير بـ»الطيب شريعة» ثم «عبد العزيز بركات» و»محمد عثمان المقبول» وغيرهم وكانت كادوقلي تمتاز بمجموعة متجانسة وراقية جدًّا من الموظفين، وعلى ذكر الأخ «الطيب شريعة» فقد جمعني به نادي «المريخ»، طبعًا لا يُذكر نادي المريخ إلا ويُذكر الأخ «العاقب التوم» مدير الهاتف، فقد كان سكرتيرًا للنادي

وكنت نائبًا له، ولا ينسى المتحدث عن مريخ كادوقلي عمنا «كاكدله كوه» الذي كان أمينًا للخزينة، ولا أنسى أولاد «حجر المك» ناس «زكريا» و«حمري» وغيرهم، وعلى ذكر الأندية فهناك النادي «الأهلي» سيد الأيتام وأنصاره من الجلابة ناس «حي السوق» «آل مدني» و«سنجك» وأولاد «عمر الخليفة» بقيادة أخينا «الريح» وشقيقه «حجير» و«بكري» وأولاد «عبد الحفيظ» «عروة» وإخوته «ذو النون» و«أنس» وعمنا «عبد الرحمن أبو البشر» وناس «الهلال» في «كليمو» أولاد «سعد» وناس «جيمس» وأهل «الموردة» و«التلال» و«الجبال» وغيرها.

كادوقلي يا أخي جزء غالٍ وعزيز من العمر؛ عشت أيامًا فيها كاملة طولًا وعرضًا، وكانت المدينة فيها مستوى من الرخاء يصل إلى درجة الترف، فما كان يخلو أسبوع إلا وشهد ميزنا خروفًا مذبوحًا، وقد تكون المناسبة أن أحد أعضاء الميز حلق شعره مثلًا، وقد كان كل شيء ميسورًا ورخيصًا إلا الإنسان، فقد كان غاليًا ومحترمًا وحرًّا، ولا أدري كلما أذكر كادوقلي أتذكر أغنية سمعتها مرة واحدة من شاب اسمه «الباقر أبتر»، كان في إجازة مع أهله في «حي السوق»، يغني ذلك الإنسان بصوت شجي ويملك مقدرة على التطريب عجيبة، يحكي في تلك الأغنية حبه لكادوقلي وعن نيم كادوقلي البارد الظل، تلك أيام لا تُنسى يا أخي يحيى وستبقى في الذاكرة والوجدان وعبر الشرايين والأوردة، فقد كانت كلها بلون الحليب.

في العـام ١٩٧٨م نقلـت إلى «الأبيـض» حسـب رغبـة شـمال كردفـان الذيـن كانـوا يـودون نقـلي إلى «خـور طقـت» الـتي كان التفكـير في أن تكـون مدرسـة نموذجيـة، جئـت إلى «الأبيـض» لكنـني رفضـت الذهـاب إلى «خورطقـت»، فنقلـت إلى مدرسـة «إسـماعيل الـولي»، وكانـت المفاجـأة أنـه نُقِـلَ بعـدي بشـهر إلى المدرسـة نفسـها الشـيخ «ونـسي محمـد خـير»، لكنـه كان هـذه المـرة شـخصًا آخـر، وذلـك حديـث يطـول لا علاقـة لـك بـه.

ثـم طـاف عـلى كادوقـلي زمـان حـزن فيـه كل النـاس وتخـرب كل شيء فيهـا حـين تخـرب كل شيء في السـودان عندمـا طـاف عـلى بلادنـا أنـاس سـمُّوا أنفسـهم زورًا «إنقـاذ وطـني» ومـا هـم كذلـك، ومنـذ ذلـك الوقـت خرجـت كادوقـلي ولـم تعـد حـتى الآن، لكنهـا أخـي يحـيي حتمًـا سـتعود والعـود أحمـد.

وختامًا

أخـي العزيـز الشـكر كلـه لـك لأنـك حركـت فيَّ رغبـة الكتابـة، فـكان هـذا السِّـفر الـذي بـين يديـك والشـكر كلـه لـك، لأنـك ذكرتـني بالخـير في مفكرتـك في جريـدة «الخرطـوم» فشـعرت بـأن أناسًـا في الدنيـا في قامتـك يذكروننـا ونحـن متفرقـين أيدي سـبأ في المنـافي وخلـف المـواني نبحـث عـن لحظـة أن نكـون، وأرجـو أن تعـذرني عـلى أنـي كتبـت لـك أطـول رسـالة أكتبهـا.

وإلى الملتقى لك كل تقديري.

أخوك

الزاكي جمعة يوسف

أستاذي الزاكي

كل كلمة في رسالتك تحيلني إلى كتلة من الشجن والحنين، رسالتك جعلتني أتحسس موقعي من هذا العالم المرتبك.

أستاذي الزاكي جمعة

رسالتك الحميمة جعلتني أتحسس ذاكرتي وأحاول أن أتحمل عبء تقريظك لي، أحس بأنني أتحالف مع فرح خاص وكثيف، لأنك تتابع ما أكتب وأعتقد أن لي الحق – كل الحق – في أن أتباهى بذلك وأعجز تمامًا عن أن تمتص كلماتي معاني التقدير والشكر.

أستاذي

تحاصرنا الغربة في زمن تشيخ فيه المدن، ولا نملك إلا أن نلوذ بطفولة وصبا تلك المدن في ذاكرتنا، ترى أين تهرب أيديولوجيا القبح من كل تلك التفاصيل؟

هل ما زالت «الأبيض» – أب قبة فحل الديوم - هي تلك «الأبيض»؟ هل ما زال شبابها يلتقون في «جروبي» أو «مونتانا»؟ هل ما زالت خطواتهم تواقع ليل الشوارع الدافئة؟ هل ما زالت سينما «عروس الرمال» أو «كردفان» تقدمان عروض الدور الثاني؟ هل ما زال ليل «الأبيض» هو ذلك الصاخب الممراح؟ ها هي مدينة في ذاكرتك تموت

آلاف المـرات في بـؤس التفاصيـل وكيميـاء الخـراب، صديقـي الشـاعر الراحـل المقيـم «عمـر الطيـب الـدوش» حـاول أن يجـذر صرختـه الجماليـة ضـد أخطبـوط الخـراب الـذي حـاصر المـدن فقـال:

ولسه بترقد الخرطوم

تمد أوراكا للماشين

تطل من فوق عماراتا

تلز أطفالا في النيلين

وترجع للرقاد تاني؟

تأمـل معـي هـذا التسـاؤل عـن عاصمـة السـودان؛ تلـك الـتي كان لهـا ليـل اسـتعارته الموضـة «الخرطـوم بالليـل»، الخرطـوم تلـك الـتي ثـأر في وجههـا الشـاعر «فضيـلي جمـاع» ناعتًـا إياهـا بغابـة الأسـمنت في موجـة حنـين خصوصيـة إلى كردفـان الـتي يشـح فيهـا المـاء، في حـين أن الخرطـوم تتباهـى بالنوافـير، عـلى كلٍّ هـا هـي المـدن تتماهـى مـع الخـراب وتقـذف بنـا إلى متاهـات المقارنـة بـين مـا كان ومـا هـو كائـن الآن، لأن ذاكـرة السـوداني ترتبـك تمامًـا أمـام هـذه المقارنـات ودونـك مدرسـة «خورطقـت» الثانويـة الـتي حولـت إلى معسـكر للدفاع الشـعبي.

شـكرًا لـك أسـتاذي وأنـت تعيـد إلى ذاكـرتي اسـم الأسـتاذ الفاضـل «حسـن البـلاع» فقـد انزلـق قلمـي خالطًـا بينـه وبـين

شـقيقه «عبـد الرحمـن البـلاع».

الأسـتاذ «حيـاتي الطيـب»، مشاكسـات حميمـة قربـت بيننـا وجعلتنـا أصدقـاءً، كان يـصر عـلى أن تكـون العربـة «الـداف» هـي عربـة للمدرسين فقـط، وكنـت أعلـن احتجاجـي عـلى هـذه الفكـرة، خاصـة بعـد إنهـاء اليـوم الـدراسي، حـاول مـرة أن ينزلـني مـن العربـة ولكـني انحـزت إلى نـوع مـن العنـاد، وحـدث مـرة أن تأخـرت عـن حصـة الكيميـاء – كانـت «دبـل كيميـاء»، عـادة مـا تكـون الصبـاح - وحـين نقـرت عـلى البـاب مسـتأذنًا في الدخـول، سـألني عـن سـبب تأخـري ومعـي بعـض الزمـلاء، فأجبتـه قائـلًا وبطريقـة تؤكـد رفـضي فكرتـه تلـك: «والله عربـة المدرسـين اتأخـرت». فـأذن لنـا في الدخـول، لكنـه اسـتدرك معـنى ردي ذاك وأنـا في طريقـي لأجلـس عـلى الـدرج، انفعـل متسـائلًا: «منـو القـال عربـة المدرسـين ؟»

« أنا «

«انت بيتكم فيهو بلاط؟»

كان هـذا السـؤال مفاجئًـا لي، لأنـه قـرر وبطريقتـه في السـخرية أن يصيبـني بوابـل منهـا.

« لا، ما عندنا بلاط في البيت «

«لا كده معلش، لكن برضو حاول تتعلم تمشي في البلاط «

فقـد كنـت أجرجـر رجـلي بطريقـة مزعجـة وأضـاف بحـدة:

«اطلـع بـره وبعديـن قابلـني في المكتـب».

وقـد كان، كان الأسـتاذ «عـلي محمـد عبـد الواحـد» جالسًـا في مكتبـه وبطـرف خفـي كان يتابـع مـا يـدور بيـني وبـين الأسـتاذ «حيـاتي» الـذي كان منفعـلًا جـدًّا.

«شوف لو أنت صعلوك، أنا من صعاليك أم درمان».

«والله يـا أسـتاذ أنـا مـا صعلـوك، لكـن أنـت بـراك قلـت إنـك صعلـوك ومـن صعاليـك أم درمـان».

وهنـا ارتبـك الأسـتاذ «حيـاتي» أمـام ردي هـذا واسـتعان بالأسـتاذ «عـلي عبـد الواحـد» الـذي وقـف بجانـبي بتلقائيتـه المعهـودة واسـتطاع أن يصلـح بيننـا، الأسـتاذ «حيـاتي الطيـب» مـن المعلمـين الممتازيـن حقًّـا ولـه علاقـات حميمـة مـع الطـلاب برغـم الحـدة في طبعـه، وقـد قـاد فريـق المدرسـة الريـاضي إلى «الأبيـض» في الـدورة المدرسـية كصديـق حميـم، قبـل مجيـئي إلى «القاهـرة» في العـام ١٩٩٥م كنـت أزوره كثـيرًا في سـوق «أم درمـان» حيـث امتلـك دكانًـا للإسـبيرات تـاركًا مهنـة التدريـس بعـد أن عـاد مـن اغترابـه، الأسـتاذ «أحمـد حسـين» أسـتاذ الفرنسـاوي آخـر عهـدي بـه في مدينـة «الأبيـض» عـام١٩٨٠م وفي نـادي «المصـارف» حيـث جـاء ومعـه زوجتـه ليشـاهد مسرحيـة «مطـر الليـل» لجماعـة السـديم المسرحيـة، ولقـد سـعدت جدًّا بوجـوده في ذلـك اليـوم، وعـلى ذكـر المـسرح، أذكـر أن الأسـتاذ «فضـل الله التـوم» قـد قـاد نشـاطًا مسرحيًّـا في المدرسـة،

لكنـني لأسباب لا أعلمها لـم أكـن منحـازًا إلى أي نشاط يخـص هـذا الأسـتاذ، فقـد كنـت أحـس بـأن هنـاك خلـلًا مـا في علاقـتي بـه، ومـن حسـن حظنـا في القسـم الأدبي إبـان تلـك المشـكلة بـين القسـم وهـذا الأسـتاذ الـذي كان يدرسـنا الأدب الإنجلـيزي، وحـين رفضنـا أن يدرسـنا جـاء الأسـتاذ «عـزرا ولـد دبـوس» هـل تذكـره - كان مـن أبنـاء جنـوب السـودان - فقـد كان متمكنًـا برغـم تلـك الفـوضى الـتي تسـيطر عـلى الكثـير مـن تصرفاتـه، كان ممتعًـا في تدريسـه لتلـك المـادة - الأدب الإنجلـيزي - وقـد أحـرزت فيهـا درجـة كبـيرة «٩٣» لكـن يـا للأسـف كان قـد تقـرر حذفهـا مـن «البوكسـنق»، وبسـبب هـذا الأمـر حدثـت مشـاحنة بيـني وبـين الأسـتاذ «عبـد الرحمـن العبيـد» عـلى مـا أظـن، في مكتـب القبـول بجامعـة الخرطـوم.

أسـتاذي الـزاكي عـلى ذكـر «جـلال تـاور» أذكـر أنـه درَّسـنا في الابتدائيـة مـادة التاريـخ، وأذكـر أنـه كان متحمسًـا جـدًّا وبـه صفـات مـن تلـك الثوريـة الزائفـة، أعتقـد أنهـا اسـتأمنت روحـه وهـو يـؤدي تلـك المهـام.

أعـود معـك إلى كادوقـلي الـتي قلـت عنهـا «مدينـة كانـت تنـام عـلى أصـوات الموسـيقى ويستنشـق أهلهـا عبـير الياسـمين والريحـان، والآن يستنشـق أهلهـا رائحـة البـارود ورائحـة الجيـف» أعـود إلى كادوقـلي منتميًـا إلى الشـعر كي أهديـك هـذه القصيـدة:

كادوقلي أهزوجة للتداعي والانسجام

استشعرت العذوبة

وأعرف أني

انتخبت الألق

وأعرف شوقي

يعربد في جنبات الشوارع

يدكُّ حواجز حظر التجول

ويغري الأماني

بحلم الوصول إليك

وأنتِ التي سكنتني

وأعرف

أن الطريق إليك طويلة

وأن انتظاري انتصاري

على قبح كل الحروب

وحاسة نهب الشوارع

لدرب إليك يؤدي

وأعرف شوقي

سيغري الطيور

بحمل الرسائل

يراود كل النسائم

علَّ النسائم

تعرف معنى العذوبة

وتجهل عمدًا

سلاح الذين

استباحوا الشوارع

وسدُّوا منافذ

خطوي إليك

وأعرف

أني انتظرت طويلًا

وأن البلاد الحميمة

باعت في سوق الحروب الصغيرة معنى الأمان

ولـم يبـق إلا احتمـالي بـروح تشـف تجـادل طعـم افتقـادي
لسحرك لـدفء الأصابـع حـين الأصابـع تعلـن أنَّـا اتحدنـا ذهبنـا
عميقًـا في صمـت الغـرام عميقًـا عميقًـا وجـرح ابتعـادي يـنز
ويصبـغ لـون المسـاء بحرقـة شـوقي إليـك

أعيد انسجامي

وكيف انسجامي؟

و أنت غياب غياب غياب

كادوقلي

ضاع التماسك فيها

وعربد فيها السلاح

تمر عليها الطيور حزينة

وتبقى قليلا

تفتش عن ذكريات الأمان

تغرد لحنًا حزينًا

وتترك دون ارتياح

لريش الجناح

يعمق معنى الفرار

وتشرخ هذي المدينة

لحن التواصل

تهمد حينًا

وحينًا تضج

ويغدو عليها

انتظاري محال

وأعرف

أن الحصار

حوار الخلايا

التي سكنتها الحبيبة

وأي حصار

بكل معاني الحصار

دمار

فيا شوق... يا ...

هذا الذي لا ينطفئ

هل يبقي شيء لم يُقل؟

يا سرَّ هذا الذي ينتهي

إلا لكِ يبدأ احتمال

في احتمال

يا حال

كيف الحال؟

يا عتمة الدرب

الذي يمتصني

كيف يبقي الحال

نعم الحال؟

وذاكرتي أحرضها

كي تمدَّ اللحظة النشوى

وتمتد في صمت الشوارع

دلت دموع النساء اللواتي

اعترفن بسر المكان الأليف

ولون الفراق

استعان بلون الشفق

دلت دمع النساء على صمت كل الضواحي حين الرحيل

أضاع البقاء وتفقد كل الأماكن عمق ارتعاش الحياة

وأعرف

أني أحرض شوقي

وكل الخواطر

أعيد انسجامي

أطمئن خطوي

ألون كل الشوارع

بلون اشتياقي

وأعرف

أن الطيور الأليفة

تمر

وتنشد

دون ادعاء

نشيد الحياة..

أستاذي الزاكي جمعة يوسف

شكرًا لكل هذا التحريض الجميل

كيدمان وصل

مدرسة «تلو» الثانوية العليا تحاول أن تداري ارتباكها بغياب كيدمان، كيدمان طالب في الصف الثالث القسم الأدبي، نوع مشاغب جدًّا من الطلاب، لكنه كان ذكيًّا جدًّا حتى إن جفوته مقاعد الدرس لم تستطع أن تذمه بأي نوع من الرسوب، كيدمان مدمن الانفلات من القيود، يبدأ يومه الدراسي في حلة العمال، حيث يمارس تلذذه بمشروبات النشوة خاصة - الكونجو مورو - كانت مشروبات النشوة تحيله إلى كتلة من الصخب الحميم وتجلجل ضحكته في فناء المدرسة وسط تجمعات الطلاب المتناثرة هنا وهناك، كان كيدمان دائمًا ما يعلن وجوده بنبرة عالية متميزة «كيدمان وصل».

إن ضحكة كيدمان الصاخبة المفرقعة لا تتألف مع حجرات الدرس تلك التي عادة ما يجافيها، إلا أن لحصة التاريخ وقع خاص لدى كيدمان، ويبدو أن للأستاذ الزاكي جمعة أثر واضح في كسب مزاج كيدمان الذي نادرًا ما يخضع لأي

قيـد مـن القيـود.

كان ذلـك في مـا بعـد منتصـف العـام الـدراسي١٩٧٧ م، وكان مـشرف الداخليـة في مدرسـة كادوقـلي الثانويـة العليـا قـد وضـع علامـة الغيـاب المتكـررة والمعتـادة أمـام اسـم كيدمـان، كيدمـان نـادرًا مـا يـراه الطـلاب عـلى سريـره في الداخليـة، فهـو متحـرك دائمًـا إلى فضـاءات أرحـب خـارج المدرسـة وداخليتهـا، المشـوار الطويـل بـين المدينـة كادوقـلي والمدرسـة الـتي تبعـد كثـيرًا، حيـث تحتضنهـا الفيـافي شرق المدينـة، المشـوار مـن المدرسـة إلى قلـب المدينـة يمـر بأحيـاء حجـر المـك، حلـة الفقـراء، السـوق الـبره، وحـي السـوق للوصـول إلى عمـق المدينـة، حيـث المقاهـي والمطاعـم ودكاكـين ومحـلات تجارية، وكان كيدمـان يلـوذ بالمقاهـي في المسـاءات المبكـرة، يتنقَّـل مـن مقهـى إلى مقهـى، وقـد يصـل حـتى مركـز شـباب كادوقـلي جنـوب ميادـين الحريـة، وقـد يتنقـل في الأحيـاء الغربيـة مـن كادوقـلي، الرديـف، الملكيـة، البانجديـد، حجـر النـار، حيـث تقـوده حفـلات «الجالـوه» بنغماتهـا الحنينـة وإيقاعاتهـا الصاخبـة الـتي تنتمـي إلى أصـداء أفريقيـة الطعـم والمـزاج، وقـد تـسرب إلينـا أغلـب هـذا التجـلي الموسـيقي مـن زائـر، إذ اجتاحـت حفـلات «الجالـوه» كادوقـلي في السـبعينيات مـن القـرن المنـصرم، وكانـت نوعًـا جديـدًا في نسـيج العلاقـات بـين الجنسـين مـن خـلال الرقـص الـدافئ الحـار الصاخـب الفالـت عـبر لغـة الجسـد الحـر المنفلـت المنحـاز حـد البداهـة لهـذه الإيقاعـات الأفريقيـة، والحنـين والشـجن المنبعـث مـن أصـوات

المغنيـين والمغنيـات، ومـا زلـت كلمـا أسـتمع للمغنيـة العظيمة مريـم ماكبـا - مامـا أفريـكا - يقفـز إلى ذاكـرتي الأخ «عبـد الله شـاه» وقـد كان يملـك في ذلـك الوقـت جهـاز «بيـك آب» وكميـة مهولـة مـن الأسـطوانات، وبذلـك أصبـح مؤهـلًا للتنقـل عـبر كـنزه الموسـيقي هـذا بـين حفـلات كل المناسـبات، ويعلـن اسـمه «في حفلـة في كحليـات، بيـك أب عبـد الله شـاه» وكان لـ«عبـد الله شـاه» ذائقـة موسـيقية حريفـة مكنتـه مـن أن يـدسَّ عذوبـة مريـم ماكبـا في نسـيج هـذه الحفـلات، كيدمـان أدمـن هـذه الحفـلات.

هاربًـا دائمًـا مـن فكـرة القطيـع، متفـردًا ومنفـردًا لا تقيـده تجمعـات الطـلاب، لا يشـارك في انتخابـات الاتحـاد، كـرة القـدم ومبارياتهـا لـم تسـتطع أن تقيـد خطـوات كيدمـان ذات التجـوال القلـق والباحـث عـن المتعـة في تفاصيـل الانفـلات، نـدوات المدرسـة نـادرًا مـا يتابعهـا، كيدمـان كائـن لا ينتمـي إلا إلى تلـك الحريـة المطلقـة ويبـدو أن صفاتـه المتفـردة جعلـت منـه شـخصية عامـة وهامـة في نسـيج حكايـات المدرسـة.

غـاب كيدمـان عن المدرسـة فيمـا بعد منتصـف العام الـدراسي، حتمًـا هـو غيـاب غـير طبيعـي، إذ إن الطبيعـي والواقعـي هـو أن يكـون كيدمـان موجـودًا، موجـودًا لأنـه يجـب أن يسـتعد لامتحانـات الشـهادة، الامتحـان لـدى كيدمـان واجـب ثقيـل، أيًّـا كانـت أهميـة هـذا الامتحـان، عـادة مـا كان يسـخر مـن أولئـك الذيـن ينظـرون إلى مسـتقبلهم مـن خـلال ورقـة الامتحـان، لا

أدري إن كان كيدمان قد تعرَّف جملة الشاعر الفرنسي الشهير «رامبو» تلك التي تقول: «من العبث أن تفنى سراويلنا على مقاعد الدرس»، وإحقاقًا للحق أقول إن لكيدمان علاقة وثيقة بمكتبة المدرسة المتواضعة، وكان يُشاهد دائمًا وهو يحمل كتابًا لا علاقة له بالكتب المدرسية، لا أنسى تآمري عليه حين سرقت منه كتابًا يضم ثلاث مسرحيات للدكتور مصطفى محمود؛ من بينها مسرحية «الزلزال»، كيدمان كان يعرف بودلير وإيليا أبو ماضي وفيكتور هيجو ومعجب جدًّا بشخصية «جان فالجان» في رواية «البؤساء»، وكان يدمن قراءة روايات نجيب محفوظ، ولكيدمان مسار صباحي مهم في يوم الجمعة من كل أسبوع، هذا لو كان نائمًا في الداخلية ليلة الخميس، وهذا أمر نادر، إذ إنه تفاديًا لهذا المشوار الصباحي المهم يميل إلى المبيت في كادوقلي، ومن ثَمَّ يذهب إلى كشك العم عابدين في الركن الشمالي من الجامع الكبير لشراء جريدة «الأيام» حرصًا منه علي متابعة الملحق الثقافي، وأذكر أنه كان يحفظ وبمحبة عميقة قصيدة للشاعر عالم عباس عن «وادي أزوم».

غياب كيدمان تجاوز الشهر، اختفت تلك الضحكة المجلجلة واختفت صيحاته حين كان يعود من حلة العمال منتشيًا في ميعاد الغداء.

- كيدمان وصل.

ارتبكت المدرسة، ووصل أمر هذا الغياب إلى الناظر الأستاذ

«ونسي»، كان رجلًا صارمًا أو هكذا يدعي، وبه ميول حادة إلى الإخوان المسلمين أدت به إلى دخول انتخابات الاتحاد الاشتراكي ومجلس الشعب، وأظن أن دخوله الاتحاد الاشتراكي وخوض الانتخابات جرى بخطة من هذا التنظيم السياسي المراوغ دائمًا، وأذكر أنه عاد إلى المدرسة وهو يحمل أوزار فشله في تلك الانتخابات، ليجد الطلاب قد علَّقوا رسمًا كاريكتوريًّا على باب مكتبه يصوره وهو عائد يحمل بقجة مكتوب عليها «الفشل» ومع تعليق يعتذر للأغنية ويقول: «تعال لي أهلك الطيبين دار الغربة ما بترحم»، الأمر الذي جعله يصرخ متشنجًا أمام الطلاب في طابور صباحي دعا إليه هو، كان يصرخ بتشنج أدى إلى تداخل بعض الآيات القرآنية التي كان يحاول الاستشهاد بها.

وصل غياب كيدمان إلى الناظر «ونسي» ولأن هذا الغياب أكثر من شهر، فإن هذا ما يجعل العقاب حادًّا جدًّا، إذ إن هذه المدة تؤدي إلى فصل الطالب عن المدرسة، وفصل طالب في الصف الثالث يعني الكثير، وهكذا وسط إشفاق الطلاب على مصير كيدمان، وبينما تأهب الناظر كي يطبق القانون واللائحة المدرسية، وفي ليل ممطر عاد كيدمان إلى الداخلية ملوثًا بالوحل ومبتلًا بسياط أمطار تلك الليلة، عاد كيدمان من «الدلنج» موطنه، وأظن أن غيابه هذا متعلق بانتماء عاطفي كثيف لفتاة من «الدلنج» جثمت على خيالاته وأربكت عواطفه، عاد كيدمان وكأن شيئًا لم يحدث، حذره الزملاء الطلاب من مغبة هذا الغياب، وفي الصباح ذهب

إلى مقابلـة الناظـر في مكتبـه بنـاءً عـلى أمـر مـن الناظـر معلـق عـلى لوحـة الإعلانـات، لكـن قبلهـا لـم ينـسَ كيدمـان أن يذهـب إلى حلـة العمـال، لأن ذلـك الصبـاح الخريفـي الغائـم لا يحتمـل أن يكـون كيدمـان خـارج نشـوته.

كان الناظـر يجلـس عـلى مكتبـه مسـتدعيًا مهابتـه ومعلقًـا نظارتـه عـلى عينيـه، واضعًـا ملـف الطالـب كيدمـان أمامـه منتظـرًا دخولـه، ممنيًـا نفسـه بمتعـة متناهيـة في ممارسـة سـلطته تلـك الـتي كان يحلـم أن تتباهـى بمقعـد في مجلـس الشـعب، فجـأة، فتـح البـاب ودخـل كيدمـان عـلى الناظـر وهـو أشـعث أغـبر، متسـخ الثيـاب، دخـل بعـد أن وضـع عـلى كتفـه الأيـسر إمالـة واضحـة كعـادة صعاليـك السـتينيات، زمجـر فيـه الناظـر:

«انت كيدمان»؟

«أيـوه»، قالهـا كيدمـان ممطوطـة مـع هـزة خفيفـة تؤكـد إمالـة كتفـه الأيـسر.

«تغيب يا ولد أكتر من شهر؟».

وهنـا اقـترب كيدمـان مـن مكتـب الناظـر، مكثفًـا إمالـة كتفـه الأيـسر، نظـر إلى الناظـر في عينيـه وحـرَّك حاجبيـه إلى أعـلى وإلى أسـفل بطريقـة مدربـة، اهـتز هـزة معلنـة اسـتخدم فيهـا كل جسـمه ومـد يـده اليمـنى بحركـة مفاجئـة لتمـر كفـه مشرعـة الأصابـع بوجـه الناظـر وقـال بصـوت مشـحون بالانفـلات: «هـو أنـت شـفتنا حاجـة؟».

وهنا اهـتزت هيبـة الناظـر، بـردت أطرافـه، كأنمـا كيدمـان جـرَّده مـن الفعـل، أحـس باللاجـدوى تجـاه هـذا الطالـب المنفلـت، كيدمـان ابتـذل أهميتـه تمامًـا، لذلـك وبيـأس ممـزوج بالإحبـاط أشـار الناظـر بيـده نحـو كيدمـان دون أن ينظـر إليـه قائـلًا: «امـشِ، اطلـع بـره». وعـاد كيدمـان إلى صخبـه وضجيجـه وضحكتـه المجلجلـة وصـاح في الطـلاب الزمـلاء المتجمهريـن أمـام مكتـب الناظـر لمعرفـة نتيجـة اللقـاء مـع الناظـر «كيدمان وصـل» كيدمـان لـم يسـقط في امتحانـات الشـهادة.

أحمد حاوتين

تلك العيون البراقة التي تشع بالذكاء، عادة لا تخلو قائمة الرجاجين من اسمه، لا يعرف مطلقًا أن يستجيب إلى ذلك الهدوء الذي يحاول دائمًا "ألفة" الفصل أن يجـبر عليه التلاميذ، وحده "الألفة" الذي يملك حق أن يخترق ذلك الهدوء بصيحاته الآمرة، لكن ما الذي يستطيع أن يفعله ذلك الطفل المسكون بقلق طفولي مزمن سوى أن يلعب ويتلاعب مستغلاًّ المـدة الزمينة القصيرة بين حصة وأخـرى، همساته إلى جاره تتسرب إلى أذن المدرس مربكة الحصة، رائحة الفول المدمس تصل إلى أنف المدرس الذي حتما سيبحث عن مصدر تلك الرائحة النفاذة ليجدها قد تسربت منه ، كان ملولاً لا يركن إلى ثوابت العادات، يخرق دائمًا النظام، لا يرتاح للقيود يتمرد دائمًا على ما هو مألوف، يبحث وبلهفة طفل شقي عن كل فعل مدسوس في تفاصيل تلك المتعة التي ينشدها دائمًا، في الطابور الصباحي وحين تبدأ أصوات "الفوات" الفصول الأربعة تصيح بأسماء التلاميذ الذين عادة ما يؤكدون وجودهم حين يسمعون أسماءهم بكلمة "أفندم"، لكنه وحده الذي يخرج من ذلك التكرار ويؤكد وجوده حين يسمع

اسمه بكلمة "أيوه" ممطوطة بطريقة تحرض على الضحك، يا لها من ضحكة عذبة ضحكته، هي ضحكة نشطة، ذلك النشاط الذي يميزه دائمًا عن بقية التلاميذ، له حرفة خاصة تتعلق بالشغب، حين يرن جرس الفسحة لا يخرج من الفصل كما هي العادة من الباب بل يقفز خارجًا من الشباك، جاء متاخرًا ذات صباح وكانت الحصة قد بدأت، وقف أمام باب الفصل ونقر بإصبعه على الباب مستأذنًا في الدخول لكن أستاذ الحساب تجاهل تلك النقرات المستأذنة والخالية من الخوف ومن مغبة ذلك العقاب الذي اعتاد تحمله، نقر مرة أخرى على الباب، تجاهل الأستاذ نقراته، نقر مرة ثالثة، ما زال الأستاذ يتجاهله مستمرًّا في تدريس الحصة، فما كان منه إلا أن تحرك من الباب ورجع يحمل حجرًا في يده وضرب بالحجر مؤكدًا بذلك وجوده المهمش و الناشز ووقفته تلك التي طالت خلف الباب؛ ارتبك الأستاذ وأرغى وأزبد وأدخله إلى الفصل متخلصًا من ضجته، ليتحمل هو وبشجاعة ذات دربة عالية سياط الأستاذ العشرة على جسده دون أن تهتز نظراته المثبتة على بقية التلاميذ الواجمين على مقاعد الدرس، ومن ثَمَّ جلس في مكانه المعتاد في ذلك الركن، كان يحب دائمًا الجلوس في الأركان وبالقرب من الشباك، اكتشف مرة وبالصدفة أن خد "فريد جورج أجيا"، أحد أبناء الشوام الذين قذفت بهم الحاسة التجارية العالية إلى جبال النوبة، اكتشف أن خد فريد يحمر حين يقرص فأدمن رغبته في رؤية ذلك الاحمرار، وفريد لا يملك إزاء ذلك الإدمان إلا الهرب من قرصاته، كان فريد يهرب راكضًا أمامه وهو يلاحقه فيصبح لهذه المطاردة الطفولية الحميمة جمهورها، وأحيانًا يصاحبه بعض التلاميذ في الركض وراء فريد، بالرغم من

كل ذلك الشغب الذي يمارسه إلا أنه كان دائمًا ما يكون في العشرة الأوائل الذين يتباهون بأسمائهم التي تعلن مع نهاية الامتحانات، لا أحد يعرف سر ذلك التحالف الغريب بين الشغب والنجاح، في حصة المذاكرة المسائية كان هو يمارس شقاوته وشغبه الممتع.

كانت حصة العلوم مصدر رعب لكل التلاميذ، فالأستاذ

كمال الأيسر كان قاسيًا جدًّا ويستمتع بجلد التلاميذ، يده اليسري أدمنت ذلك الجلد، عادة ما تبدأ حصة العلوم تلك بسؤال تعجيزي في أغلب الأحيان، كان الأستاذ كمال يقذف بالسؤال في وجوه التلاميذ وله طريقة خاصة في كيفية إجاباتهم، إذ إنه يبدأ من الصف الأمامي وحتى الصف الأخير من الفصل، يقف كل تلميذ مجيبًا عن السؤال، ويظل واقفًا ودون أي إشارة من الأستاذ على صحة أو خطأ الإجابة وهكذا، حتى يكون كل الفصل واقفًا، ومن ثَمَّ يبدأ الأستاذ كمال باختيار التلاميذ أصحاب الإجابة الصحيحة ويمنحهم حق الجلوس، وما على بقية الواقفين إلا الاستعداد المرعب لتحمل قسوة اليد اليسرى لأستاذ كمال وهي تنهال بالضرب على أجسادهم، الأستاذ كمال يدخل الفصل دائمًا وهو يحمل معه "سوط العنج".

ذات حصة للعلوم وقف كل التلاميذ أمام ذلك الأستاذ وعيونهم زائغة بسبب شكوكهم حول إجابتهم عن الفرق بين التسرب المائي في التربة الرملية والتربة الطينية، كل الفصل يقف على خوفه وذهبت إشارة الأستاذ نحو ذلك المشاغب واهبًا إياه راحة الجلوس وأيضًا راحة البال، كل الفصل ظل واقفًا، وحده هو الذي فاز بالإجابة الصحيحة لذلك السؤال، ووحده الذي استمتع بمشاهدة كل الفصل

يُجلَد أمامه، وحين انتهت حصة العلوم في تلك الظهيرة التف حول ذلك الناجي المشاغب عدد من التلاميذ، فما كان منه إلا أن حوَّل إجابته الصحيحة إلى أسطورة حين شرح لهم كيف أنه اهتدى إلى وصفة سحرية تجعله يفلت من عقاب أستاذ العلوم ومن كل عقاب متوقع، وكانت تلك الوصفة هي أنه يملأ جيوبه قبل الدخول إلى حصة العلوم، التي عادة ما تبدأ بعد فسحة الفطور، أي إنها الحصة الثالثة في جدول اليوم، يملأ جيوبه بالتراب الذي حول بيت النمل، ويقرأ آية الكرسي سبع مرات، وحين ينتهي من السبع قراءات يبصق على التراب الذي في كفه ليضعه بعد ذلك داخل جيبه، وتحوطاً منه كان يكثف هذة العملية بوضع ثلاث كفات من تراب النمل المدعوم بآية الكرسي في جيبه الأيمن وأربعة كفات في جيبه الأيسر ليكون مجموع الكفات سبعاً، ولكل كفة سبع قراءات لآية الكرسي، أي إنه قرأ آية الكرسي ٤٩ مرة، وبذلك كان قد نجا من العقوبة.

في حصة العلوم القادمة كان كل الفصل قد دخل إليها والجيوب مليئة بتراب النمل الذي استقبل كل تلــك القراءات الكثيرة لآية الكرسي، لكن في تلك الحصة لم ينج أحد من عقوبة الأستاذ كمال الذي كان قد وضع سؤالاً تعجيزياًّ أمامهم مستنداً إلى خطأ أساسي في السؤال نفسه، متخالفاً مع رغبته المضمرة في جلد كل الفصل، إنها متعة تميز بها ذلك الأستاذ، وفشلت تلك الوصفة السحرية في أن ينجو هؤلاء التلاميذ الذين لاذوا بفكرة ذلك المشاغب.

صباح سبت من صباحات العام ١٩٦٧م كان ابن عمي محمــد دفع الله العوض - رحمه الله - يرقد مريضاً بمستشفى كادوقلي، وكان عليَّ

أن أحمل له الإفطار و"ثرموس" الشاي، لذلك تأخرت في ذلك الصباح عن الطابور الصباحي بعد عودتي من المستشفى، تسللت حتى لا أضبط بتأخري الآثم، تسللت إلى الفصل الثالث في مدرسة كادوقلي الشرقية الأولية، كان الأستاذ أبو زيد - رحمه الله - أستاذ العربي، يا له من أستاذ حميم ونادر، كان أستاذ أبو زيد قد دخل الفصل قبل وصولي بدقائق لذلك سمح لي بالدخول، جلست في مكاني، كانت كراسات مادة الإملاء موضوعة على الدرج أمام الأستاذ، وبكل ذلك الفرح الذي عودنا عليه الأستاذ أبو زيد بدأ الحصة بإعلان نتائج الإملاء، لوَّح الأستاذ بكراسة واحدة أمامنا وقال بكل فرح: "الوحيد اللي قفِّل الإملاء هو أخوكم أحمد حاوتين"، وبدلًا من التصفيق المعتاد في مثل هـذه الظروف انفجر الفصل ببكاء غريب، بكاء إلى درجة الصراخ والتشنج، ارتبك الأستاذ أبو زيد وأنا تجمدت من الدهشة وأخيرًا قال أحد التلاميذ في الصف الأمامي وبصوت باكٍ:

"يا أستاذ أحمد حاوتين مات يوم الخميس"

ولم أملك إلا أن أضيف صوتًا بكائيًّا إلى بقية الأصوات

الباكية.

مات أحمد حاوتين ذلك الطفل المشاغب ذو العيون البراقة المشعة بالذكاء بضربة سحائي مفاجئة في يوم الخميس، حين كان يوزع نشاطه الكثيف في لعبة دافوري بميدان "أشلاق البوليس" – البلك - ودُفِنَ في مقابر "كليمو" وكان عليَّ أن أتذوق أول مرة ذلك الفقد الذي يسببه الموت.

أغنية لـ «عمر الخليفة»

دائمًا ما كنت أتساءل: ترى هل كان من الممكن أن أكون أنا هو أنا بصفتي ممارسًا لفنون الدراما، لو لم تكن هناك في كادوقلي في قلب جبال النوبة دار للسينما؟ أستطيع أن أجزم أن أقداري كانت قد اختلفت عما عليه الآن لولا ذلك السحر، ذلك العشق لتلك العوالم التي نجدها في السينما. عانقت خطواتي في الستينيات – نهاياتها - عوالم السينما، تعلقت بها إلى حد الهوس، خلقت بيني وبين والدي جفوة ومشكلات لا حصر لها، تحملت من أجل ذلك العشق الكثير من الضرب بمختلف أنواعه، تعلمت أساليب الهروب من المدرسة، خاصة في حصص المذاكرة بالأمسيات، تميزت عن أقراني بفضل تلك العوالم بمقدرتي على الحكي وقدرتي على تقليد الممثلين؛ عوالم وفضاءات، كنا نشاهد مختلف الأفلام، عربية، إنجليزية، إيطالية، هندية... عرفنا أسماء النجوم من ممثلين وممثلات، تتوسع منا المدارك، وتتعمق

فينـا الخيـالات، وتقودنـا الدهشـة بتلـك العوالـم إلى أولى خطـوات المعرفـة ببـلاد لـم نزرهـا، بتلـك القيـم المثـلى الـتي هـي محـور الـصراع الدرامـي في الفيلـم السـينمائي، خاصـة الأفـلام الهنديـة. إنهـا طفولـة غنيـة تلـك الـتي كنـا نعيشـها، حيـث هنـاك، حيـث تقـع كادوقـلي في وسـط جبـال، وتزهـو بنفسـها مـن حيـث علاقتهـا بالمدنيـة، والفضـل في هـذا الزهـو الـذي تتمتـع بـه هـو هـذه الـدار الـتي هـي «سـينما كادوقـلي».

تقـع هـذه الـدار جنـوب السـوق «الـبرة»، وبزاويـة مائلـة يقـع محلـج أقطـان كادوقـلي، حيـث تتجمـع وتـوزن أقطـان جبـال النوبـة؛ القطـن قصـير التيلـة. إن موسـم «المـيزان» يعتـبر صحـوة نشـاط داخـل تلـك المدينـة الصغـيرة. شرق السـينما يمتـد ميـدان واسـع كان وقتهـا موقفًـا للشـاحنات واللـواري الـتي يكتـظ بهـا الميـدان إبـان موسـم «المـيزان»، وبعدهـا تمتـد الأحيـاء السـكنية: «العصاصـير»، «حجـر المـك»، و«الفقـراء». وغـرب السـينما تمتـد تلـك الأحياء القريبـة والبعيدة: «السـوق»، «الموظفـين»، «الملكيـة»، «الرديـف»، و«البـان جديـد»، وجنوبهـا تمتـد أحيـاء «كليمـو»، «أم بطـاح»، و«السـمه».

المقـترب مـن السـينما يلاحـظ لافتـة كبـيرة تتحلـق حولهـا اللمبـات الملونـة الـتي كانـت بالنسـبة إلينـا تشـكل نوعًـا مـن الإبهـار لا يوصـف، اللافتـة مكتـوب عليهـا باللـون الأبيـض عـلى خلفيـة سـوداء «سـينما كادوقـلي لصاحبهـا عمـر الخليفـة تأسسـت العـام ١٩٥٦م».

أي فعل ذلك الذي صنعه «عمر الخليفة» كي نقترب من المدنية، وكي نرى تلك العوالم الباهرة؟ من أين خطرت له هذه الفكرة؟ لا أستطيع أن أقول سوى إن هذا الفعل فعل حضاري لا يستهان به، برغم تلك النوايا التجارية والتي هي من الطبيعي أن تكون وراء هذا المشروع؛ مشروع السينما.

«عمر الخليفة» من أولئك «الجعليين» الذين أدمنوا الترحال والهجرة إلى حيث تذهب بهم الأرزاق، إنه واحد من أولئك «الجلابة» - كما يقال عنهم - قادته أقداره وأرزاقه إلى حيث جبال النوبة، إلى تلك المنطقة التي تعودت أن تسلب روح أولئك القادمين من الشمال، فلا مفرَّ لهم إلا البقاء فيها، فامتزجوا بناسها وصارت لهم أوطان لا يمكن التخلي عنها. هكذا فعل «عمر الخليفة» ذلك الفعل المتميز عن بقية أولئك التجار، أن تتصل مدينة صغيرة مثل «كادوقلي» بالعالم وتختلط أحاديث رواد السينما عن إسماعيل يس، جون واين، أشا باريخ، محمود المليجي، كيرك دوغلاس، دوليب كومار، ألالات شويا، جاك بلانس...

وتتشابه جبال النوبة مع تلك الجبال التي يطارد فيها رعاة البقر بعضهم بعضًا، ويجزم البعض أن الخضرة في «كشمير» لا تقل عنها خضرة جبال «كادوقلي» في الخريف.. هكذا تتلون العوالم وتتشكل، تتنوع الأغنيات وتختلف، ونعرف أن الغناء أنواع وأجناس، وأن الرقص مزية متأصلة في كل شعوب العالم، ترى من يعرف قيمة ما فعله «عمر

الخليفـة» ذلـك التاجـر الاسـتثنائي في تلـك المناطـق؟

إنهـم يعرفـون قيمـة هـذا الفعـل. إنهـم يعرفـون ويقـدرون هـذا الفعـل، هـم سـكان تلـك المنطقـة، لذلـك حـين يكـون الغنـاء بمنزلـة تمجيـد لتلـك الأفعـال الـتي عـادة مـا تقـترب مـن معـنى البطولـة أو أي فعـل نبيـل آخـر، ولأن ذلـك الفعـل اعتـبر مـن نقـاط التحـول في المنطقـة، دخـل ذلـك الفعـل في نسـيج ذاكـرة أهـل المنطقـة، تداخـل في وجدانهـم، لذلـك كان الغنـاء بعظمـة ذلـك الفعـل، بمنزلـة رد جميـل لذلـك الرجـل الـذي صنـع هـذا الفعـل - إنشـاء دار سـينما - هكـذا أصبـح أولئـك الراقصـون الذيـن يرقصـون رقصـة «الكمبـلا» يتغنـون بعظمـة هـذا الفعـل، هكـذا كان إن خرجـت أصـوات شـباب وشـابات ورجـال ونسـاء وأطفـال «مـيري بـره» و«مـيري جـوه» و«كحليـات» و«أبـو سـنون» تـردد بـكل عذوبـة ذلـك الغنـاء المصاحـب لرقصـة «الكمبـلا»، يـرددون تلـك الأغنيـة الـتي أخـذت شـهرة واسـعة:

«عمر خليفة

سوَّى سينما»

هـي أغنيـة بلغـة مـن لغـات جبـال النوبـة المتعـددة، لا تتبـين منهـا سـوى هـذا المطلـع الـذي يظهـر فيـه اسـم «عمـر خليفة» وكلمـة «سـينما»، ويكـون بذلـك «عمـر الخليفـة» قـد دخـل في ذلـك الوجـدان النقـي، والدليـل عـلى اشـتهار هـذه الأغنيـة أنـه

لما دخلت رقصة «الكمبلا» من ضمن برنامج رقصات فرقة الفنون الشعبية، صارت «الكمبلا» ترقص مستصحبة تلك الأغنية.

«عمر خليفة

سوَّى سينما»

وكنت أنا المتعلق بأشجاني حول تلك المنطقة، كلما أسمع هذه الأغنية وأشاهد فرقة الفنون الشعبية وهي ترقص «الكمبلا» أحس بأن التواصل الثقافي هذا الذي يمثله انتقال هذه الأغنية مع الرقصة من جبال النوبة كي تصبح نموذجًا تحتفي به فرقتنا القومية للفنون الشعبية، أحس بأن التواصل الثقافي مزية لها تلك القدرة على توحيد شعوب السودان.

في ذلك اليوم الذي فيه اُفتتِح المسرح القومي في العام ١٩٩٤م، إن الذين حولوا المسرح القومي إلى خرابات هم أنفسهم الذين احتفلوا بافتتاحه وسط ضجة من الادعاءات والخطب الرنانة، في ذلك اليوم قدمت فرقة الفنون الشعبية وصلة من ضمن برنامج ذلك الافتتاح، قدمت الفرقة من ضمن ما قدمت رقصة «الكمبلا» وبدلًا من أن يغني الراقصون:

«عمر خليفة

سوا سينما»

غنوا:

«عمر بشير

سوا سينما»

هكـذا غنـوا، وكنـت وحـدي بـين الحضـور الـذي أحـس بهـذا التحريـف الغريـب، كنـت وحـدي ذلـك الشـاهد وتلـك الضحية. وقتهـا أحسسـت بغـبن حقيقـي: لمـاذا يـا تُـرى زُيِّفـت تلـك الأغنيـة العذبـة الـتي حكيـت عـن كيـف تـم التغـني بهـا؟ هـي أغنيـة ترمـز إلى ذلـك التواصـل الثقـافي، إلى ذلك العمق الإنسـاني، إلى كل تاريـخ فعـل مؤثـر ولـه القـدرة عـلى صنـع التحـولات.

وقتهـا خرجـت مـن المـسرح القومـي ويقـود الحـزن خطـواتي وأحـاول أن أجـرب الخجـل مـن كل ذلـك الـذي تـم أمامـي والمعتـدي عـلى ذاكـرتي، أنـا لا أؤمـن بالتفسـير الميتافيزيقـي للأحـداث، ولكـن مـا حـدث فعـلًا أنـه بعـد يومـين مـن ذلـك الفعـل التحريفـي داخـل نسـيج أغنيـة رقصـة «الكمبـلا» جـاءني مـن «كادوقـلي» مـن يخـبرني أن العـم «عمـر الخليفـة» قـد رحل عـن هـذه الدنيـا، لكـن سـيبقى اسـمه باقيًـا في كل الأصـوات الـتي تغـني وترقـص «الكمبـلا» هنـاك في جبـال النوبـة.

«عمر خليفة

سوَّى سينما»

البعاتي

إلى آدم سحنون – تحديدًا

هأنذا أتململ على سريري، ظلام الغرفة يكثف خوفي جهزت الأدوات اللازمة للحماية من ذلك الهاجس الغريب، كرتونة، هي قطعة صغيرة من الكرتون غرزت فيها عددًا من الإبر، هذه القطعة الصغيرة من الكرتون وضعتها تحت المخدة في الجانب القريب من يدي اليمنى، لا أطمئن إلا إذا وضعتها داخل يدي اليمنى بعد أن أضعها تحت المخدة.

في الجانب الأيسر من المخدة القريب أيضًا من متناول يدي اليسرى، وضعت الشبط البلاستيكي، ولا أطمئن إلا إذا وضعت يدي اليسرى على «فردتي» ذلك الشبط، يهرب مني النوم وأنا أتوقع في أي لحظة حضور ذلك الكائن العائد من موته.

لم أنسَ أن أضع تلك الكاميرا ذات اللون الأزرق على «سحارة»

جدتي «بت مدني» التي أحتفظ فيها بالكتب والمجلات المصورة، مجلة الصبيان وميكي وسمير والوطواط وسوبرمان وطرزان وبونانزا والرجل العنكبوت والرجل البرق، كانت تلك السحارة موضوعة أمام شباك الغرفة، والسرير الذي أنام فيه موضوعًا بالقرب من هذه السحارة، هذه الكاميرا الزرقاء اللون هي موضوع خوفي من ذلك الهاجس، كانت هذه الكاميرا تخص هذا الكائن العائد من موته، صديقي «آدم سحنون» الذي يسكن في حي «أم بطاح» حرضني على أن أصر على أخذ هذه الكاميرا من شاب يجاورهم في السكن وكان له هناك متجر صغير.

كان هذا الشاب طيبًا بما فيه الكفاية، حتى إنه لم يبدِ اعتراضًا على ذلك الطلب وتركنا نأخذ أنا وآدم تلك الكاميرا متعلقين بتحسسنا الطفولي لمعرفة هذه الآلة التي تستطيع أن تهب الإنسان صورته، وهذه مزية تحرض على نزعة ذلك التملك الطفولي للأشياء.

هأنذا أتململ على سريري وقطعة الكرتون الصغيرة بها عدد من الإبر وهاهما «فردتا» شبطي البلاستيكي تحت مخدتي، وها هو ظلام الغرفة يكثف داخلي تفاصيل الخوف والهواجس.

الشاب الذي أخذنا منه أنا وصديقي آدم سحنون تلك الكاميرا طبعًا لم نرجعها إليه مدى أكثر من شهر.

هـذا الشـاب مـات فجـأة إثـر علـة لـم تمهلـه طويـلًا، أبلغـني آدم ذات صباح ونحن في حـوش المدرسـة – مدرسـة كادوقـلي الشرقيـة - الـتي تحولـت مـن الأوليـة إلى الابتدائيـة بعـد مـا يسـمى بالسـلم التعليمـي.

كان ذلـك في العـام ١٩٧٠م مـن القـرن المنـصرم ونحـن نتهيـأ ونسـتعد لامتحانـات الدخـول إلى الثانويـة العامـة، أبلغـني آدم بذلـك الخـبر، خـبر مـوت ذلـك الشـاب صاحـب الكامـيرا الزرقـاء، بعدهـا بأيـام، جـاءني آدم منزعجًـا يقـول:

إن الشـاب صاحـب الكامـيرا الـذي مـات قـد رجـع إلى الحيـاة وهـو الآن «بعـاتي» يتجـول في حـي «أم بطـاح» وقـد جـاء ليـلًا وفتـح متجـره الصغـير وقـد شـاهده بـأم عينـه «حميـدان» الـذي رجـع مخمـورًا مـن سـهرة في الحاميـة العسـكرية.

لمـح حميـدان ضـوء فانـوس المتجـر الصغـير وفكـر في سـيجارة النـوم، وحـين وصـل إلى المتجـر رأى مـا لـم يكـن في الحسـبان، رأى الشـاب الـذي مـات قبـل أقـل مـن شـهر وهـو يتجـوَّل داخل متجـره الصغـير وهـو يبحـث عـن شيء مهـم.

دقـق حميـدان النظـر مغالبًـا فكـرة أنـه مخمـور ليـس إلا، لكـن هـا هـو الشـاب البعـاتي يقـترب منـه، فجفـل راكضًـا متخليًـا عـن ترنحـه، وكان الشـاب البعـاتي يركـض وراءه وسرعـان مـا أمسـك البعـاتي بحميـدان وبصـوت فيـه «نخنخـة» قـال البعـاتي لحميـدان: «بتجـري مـني! مالك يـا حميـدان؟» وينفلـت حميـدان

مـن قبضـة البعـاتي ويركـض البعـاتي وراءه ويمسـك بـه متسـائلًا ذات السـؤال: «بتجـري مـني! مالـك يـا حميـدان؟» وهكـذا بـين انفـلات وركـض وسـؤال متكـرر أكـثر مـن ثـلاث سـاعات قضاهـا حميـدان راكضًـا في أي اتجـاه حـتى إنـه وجـد نفسـه وهـو يلهـث مـن التعـب أمـام سـينما كادوقـلي وكان الوقـت فجـرًا وديـوك حـي «العصاصـير» القريبـة مـن السـينما تتصايـح.

جـاءني آدم مفزوعًـا بحكايـة حميـدان هـذي، وحـين لمـح في عيـوني اتهامـي إيـاه بأنـه خيـالي، أصر عـلى أن أقابـل حميـدان في «أم بطـاح».

المهـم، الشـاب صاحـب المتجـر الصغـير في «أم بطـاح» الـذي أخذنـا منـه الكامـيرا الزرقـاء قـد عـاد مـن موتـه كي يأخـذ مـا يخصـه مـن أشـياء، قيـل إنـه أخـذ كل ملابسـه وقـد أخـذ أيضًـا العـود الـذي كان يعـزف عليـه أمـام متجـره.

وفي الليـالي المقمـرة كان صـوت عـوده يسـمع مـن اتجاهـات مختلفـة، وهـذا يعـني أنـه يتحـاوم في الفريـق وخارجـه، المصيبـة أن الكامـيرا الزرقـاء معـي أنـا، وهـذا يعـني أن عـليّ أن أسـتعد للقـاء هـذا الكائـن المخيـف لأنـه حتمـا سـيأتي لأخـذ كاميرتـه. وبذلـك المنطـق الطفـولي تجـاه هـذا الحـدث غـير العـادي والـذي ينتمـي إلى تلـك الفكـرة الغريبـة الـتي تتعلـق بعـودة المـوتى، يقـول لي آدم:

«يمكن يجيني في البيت ويقول عايز الكاميرا»

- «خلاص أنت شيل الكاميرا معاك وكان جاك أديها ليهو»

- «لكن هو ما عارف إنو أنت اللي أخدتا الكاميرا»

- «أنا أول مرة أقابلو وهو ساكن جمبك»

- «لا، أنت خلي الكاميرا معاك وبعدين لمن يجيني أنا بقول ليهو الكاميرا عندك وحيجي ياخدها منك»

- «هو حيجيك أنت أول لأنو ساكن جمبك، وبعدين هو ما عارف أنا ذاتو ساكن وين»

- «منو القال ليك، دا بعاتي يكون عارف أي حاجة»

وهكذا أصبحنا نتحدث أنا وآدم عن ذلك الشاب الميت صاحب الكاميرا باعتباره موجودًا وحيًّا في صورته تلك الغريبة، صورة البعاتي.

الشعور بذلك الرعب من أن تلتقي هذا البعاتي الذي بينك وبينه علاقة هي تلك الكاميرا، ووصلنا بعد نقاش غريب وطويل به أفكار الهروب من تلك المواجهة المرعبة ودخلنا في تفاصيل وتفاصيل وصلنا بعدها إلى أن تكون الكاميرا معي يومًا وتكون مع آدم اليوم التالي، وهكذا حين يأتي الشاب البعاتي ليأخذ تلك الكاميرا التي تخصه، فإذا وجدها معي فبها ونعمت وإذا لم يجدها معي سأخبره أنها مع آدم، وهكذا في حالة مجيئه لآدم.

كل ذلك ونحن مدفوعون بذلك الرعب من تلك الفكرة نكون قد اقتسمنا الخوف بيننا.

يغيب عني آدم في الأمسيات ويأتيني في الصباح بحكايات وحكايات عن ذلك الشاب البعاتي، يأخذ الكاميرا معه يومًا ويرجعها إلى في اليوم التالي، ونحن في حالة هذا الرعب والخوف الكثيف، جمعنا كل معلومة تخص هذا الكائن العائد من الموت، عرفنا أن البعاتي لا يمكن أبدًا أن تهرب منه، كلما ركضت منه تجده أمامك، وإذا حدث واشتبكت معه في عراك فهو الغالب دائمًا وأنت المغلوب، لأنك إذا رميته على الأرض فستجده من فوقك، عرفنا أيضًا أن صوت البعاتي به «نخنخة» وذلك من أثر القطن الذي يوضع في أنف الميت عادة، وجاءني آدم بفكرة غريبة لم أملك إلا تنفيذها، وهي إن ظهر لك البعاتي فما عليك إلا أن تغرز الإبرة على أي نعل مقلوب، لذلك حين تكون الكاميرا معي ومتوقعًا حضور ذلك الشاب البعاتي، أجهز تلك الأدوات، الكرتونة الصغيرة وعليها تلك الإبر وفردتي شبطي البلاستيكي دائمًا تحت مخدتي، وهكذا يفعل آدم ذلك حين تكون الكاميرا معه.

تنقلت بيننا الكاميرا وتنقل أيضًا ذلك الخوف وذلك الرعب، وهأنذا أستلقي مرعوبًا على سريري وبي من ذلك الانتظار - السريالي - انتظاري هذا الكائن العائد من موته، بي من ذلك الانتظار تلك اليقظة ذات التوقع المخيف، أتحسس بيدي

اليمنى كرتونة الإبر وبيدي اليسرى فردتي الشبط وأتأكد تمامًا من وضعهما بالمقلوب استعدادًا لغرز الإبر في الشبط البلاستيكي، وأنتظر وأنتظر وأنتظر وبي كل مخاوف الدنيا. وفجأة أحس بحركة على الشباك ولا أملك إلا أصابعي تلك المرتجفة وهي تمسك بكرتونة الإبر وفردتي الشبط تحت مخدتي، أتشبث بأدواتي الدفاعية تجاه هذا الكائن المخيف، وأحس برأسي قد تنمل، وفجأة أحس بخبطة على الشباك وأحس بشيء يقع على صدري وأصرخ، أصرخ، أصرخ بكل خوف الدنيا. أصرخ وأغرز إبرة على الشبط المقلوب، أصرخ وأغرز إبرة أخرى، أصرخ وأغرز، أغرز وأصرخ، أصرخ وأغرز كل الإبر على فردة الشبط، صرختي أيقظت كل من في البيت وحين جاءت أمي وهي تحمل في يدها بطارية ، فتحت الغرفة سقط ضوء البطارية علي ذلك القط الذي قفز على صدري من الشباك، وجدتني أمي منكمشًا على السرير من الخوف مبتلًّا من العرق وأحمل في يدي فردة الشبط التي تحملت كل تلك الإبر.

في الصباح حملت معي الكاميرا إلى المدرسة كي أسلمها لصديقي «آدم سحنون»، ولكني فجأة قررت أن أفعل شيئًا آخر، وهكذا وأمام دهشة آدم حطمت تلك الكاميرا على حجر كبير ولم يملك آدم إلا أن يحتج وهو يحدق إلى الشظايا الزرقاء التي كانت قبل قليل كاميرا، احتج آدم وبصوت مشروخ بالهواجس:

- «يعني كان جاني أقول ليهو شنو؟». الشاب البعاتي، أجهز تلك الأدوات، الكرتونة الصغيرة وعليها تلك الإبر وفردتي شبطي البلاستيكي دائمًا تحت مخدتي وهكذا يفعل آدم ذلك حين تكون الكاميرا معه. تنقلت بيننا الكاميرا وتنقل أيضًا ذلك الخوف وذلك الرعب وهأنذا أستلقي مرعوبًا على سريري وبي من ذلك الانتظار - السريالي - انتظاري هذا الكائن العائد من موته، بي من ذلك الانتظار تلك إلى قطة ذات التوقع المخيف، أتحسس بيدي اليمنى كرتونة الإبر، وبيدي اليسرى فردتي الشبط، وأتأكد تمامًا من وضعهما بالمقلوب استعدادًا لغرز الإبر على الشبط البلاستيكي، وأنتظر وأنتظر وبي كل مخاوف الدنيا. وفجأة أحس بحركة علي الشباك ولا أملك أصابعي تلك المرتجفة وهي تمسك بكرتونة الإبر وفردتي الشبط تحت مخدتي، أتشبث بأدواتي الدفاعية تجاه هذا الكائن المخيف وأحس برأسي قد تنمل وفجأة أحس بخبطة على الشباك وأحس بشيء يقع على صدري وأصرخ، أصرخ، أصرخ بكل خوف الدنيا. أصرخ وأغرز إبرة علي الشبط المقلوب، اصرخ وأغرز إبرة أخرى، أصرخ وأغرز، أغرز وأصرخ، أصرخ وأغرز كل الإبر علي فردة الشبط، صرختي أيقظت كل من في البيت وحين جاءت أمي وهي تحمل في يدها بطارية وحين فتحت الغرفة سقط ضوء البطارية علي ذلك القط الذي قفز علي صدري من الشباك، وجدتني أمي منكمشا علي السرير من الخوف مبتلا من العرق وأحمل في يدي فردة الشبط التي تحملت كل تلك

الإبـر. في الصبـاح حملـت معـي الكامـيرا إلى المدرسـة كي اسـلمها لصديقـي ادم سـحنون وكـني فجـأة قـررت أن أفعـل شـيئا اخـر وهكـذا وأمـام دهشـة آدم حطمـت تلـك الكامـيرا عـلي حجـر كبـير ولـم يملـك آدم إلا ان يحتـج وهـو يحـدق إلى الشـظايا الزرقـاء الـتي كانـت قبـل قليـل كامـيرا، احتـج ادم وبصـوت مـشروخ بالهواجس:»يعـني كان جـاني اقـول ليهـو شـنو؟«.

عمي فؤاد

أتحسس بأصابعي جرحًا قديمًا تحت شفتي السفلي، ليقفز عمي فؤاد من ذاكرتي ليتباهى به الورق الأبيض أمامي، كنت وقتها أنقب في نسيج هذه الذاكرة كي أستدعي منها خياراتي في الكتابة، عادة ما ألوذ بهذه الطريقة وأنا أحاول أن أهزم بياض الورق الذي أمامي، وهكذا حين كنت أحدق بعمق إلى دواخلي وجدت أصابعي وبحركة تلقائية تتحسس هذا الجرح القديم على شفتي السفلي، فوجدتني ألوذ بشخصية عمي فؤاد لعلاقته الوثيقة بهذا الجرح القديم.

عمي فؤاد، هكذا كنت أناديه، هو من أسرة ثرية؛ من أولئك التجار الشوام ذائعي الصيت بين مدينة الأبيض ومدينة كادوقلي، كان عمي فؤاد متداخلًا وبعمق في النسيج الاجتماعي، محطمًا بذلك عزلة أسرته الاجتماعية، تلك العزلة التي تحكمها تفاصيل الوضع الطبقي، أو قل حتى الوضع الديني، والشوام عادة ما يقتربون من عوام الناس بحكم علائق التجارة، وعادة ما يبعدون عنهم وهم

يمارسـون تفاصيـل حياتهـم الخاصـة، إلا أن عمـي فـؤاد كان نسيجًا مـن الانفـلات عـن تلـك العزلـة، كان قريبًـا مـن تفاصيـل حيـاة النـاس ويبـدو أنـه كان متمـردًا عـلى الكثـير مـن ضوابـط الأسرة، تـراه يصيـح طربًـا في الحفـلات، يتجـول في السـوق الكبـير مؤانسًـا ومستأنسًـا مـن دكان إلى دكان ومـن مقهـى إلى آخـر، ولعمـي فـؤاد ليـل عربيـد وممـراح، إذ يمتـد بـه متوغـلًا حـتى السـاعات الأولى مـن الصبـح، ويبـدأ ليـل عمـي فـؤاد مـن النـوادي وينتهـي بالأنـادي المتناثـرة بتلقائيـة في معظـم أحيـاء كادوقـلي، تـراه في دار الرياضـة منـذ أن كانـت تتباهـي بحوائـط مـن الشـوالات، وقبلهـا عـلى الميادـين المفتوحـة مثـل ميادـين الحريـة المقابلـة لنـادي الموظفـين أو ميـدان المدرسـة الشرقيـة، حيـث كانـت تقـام مباريـات كـرة القـدم خـارج نظـام التذاكـر، وحـتى حـين أصبـح لمدينـة كادوقـلي دار للرياضـة بحوائـط مـن أسـمنت ومدرجـات، تـراه عمـي فـؤاد وهـو يرتـدي الـزي الأسـود ذا الشرائـط البيضـاء ويحمـل العلـم البرتـق البرتقـالي، وأحيانًـا الأصفـر كرجـل خـط وهـو يجـري ويتراجـع متابعًـا مـا يحـدث في الجانـب الـذي يخصـه مـن الملعـب، وكانـت جماهـير الكـرة ترتـاح لطريقتـه في إدارة المباريـات حـين يكـون هـو الحكـم الرئيـسي.

عمـي فـؤاد ذلـك المتمـرد عـلى قيـود أسرتـه، المندمـج في تفاصيـل مجتمـع كادوقـلي وبطريقـة تخـص مزاجـه وخياراتـه تلـك المتعـددة، ولعمـي فـؤاد صداقـات عـدَّة ومتنوعـة، لذلـك تتنـوع لديـه مجالـس الأنـس وقعـدات الـشراب في إنديـات

الملكيـة أو حجـر المـك أو في حيشـان حـي السـوق، تواقـع خطواتـه الـدروب والأزقـة مترنحًـا يجـادل نشـوته ويجعلهـا تفيـض حيويـة وحبـورًا عـلى تلـك المقاهـي والمطاعـم الممتـدة في الأنـس حـتى بدايـات الصبـاح، تـرى هـل مـا زالـت كذلـك؟ ولعمـي فـواد شـلة يسـتأنس بهـا وتسـتأنس بـه.

يبـدو أن تفاصيـل حركـة عمـي فـؤاد المنفلتـة تلـك قـد أزعجـت أسرتـه، فبـدأت تقبـض يدهـا عنـه وتمنـع عنـه مـا يدعـم تلـك الحركـة مـن صرف مـالي وغـيره، تمـرد عمـي فـؤاد مبكـرًا عـلى العمـل في التجـارة مـع أسرتـه، انفلـت منتميًـا إلى مزاجـه ورؤيتـه الخاصـة للدنيـا، وهـي رؤيـة لا تتوافـق مـع الأسرة المدغمـة في كل تفاصيلهـا مـع تعاليـم الكنيسـة، وبـدلًا مـن أن يكـون مـن سكان تلـك البيـوت الجميلـة ذات الحدائـق المكونـة مـن زهـور وورود وتعاريـش العنـب وأشـجار الليمـون والبرتقـال واللارنـج واليوسـف أفنـدي في حـي السـوق؛ اكتفـى عمـي فـؤاد بزيارتـه لهـا فقـط ولاذ بـدلا عـن كل ذلـك بقطاطـي ورواكيـب وكرانـك يعاقـر فيهـا متعـة الخمـر ومتعـة التواصـل الحميـم مـع الناس.

جـاءني عمـي فـؤاد في إحـدى صباحـات خريـف ١٩٦٧ م وكنـت وقتهـا تلميـذًا في الصـف الثالـث بمدرسـة كادوقـلي الشرقيـة الأوليـة، ولـم تكـن وقتهـا الابتدائيـة في حـيز الوجـود ولا حـتى السلم التعليمـي، كنـت وقتهـا في إجـازة، كانـت إجـازة المـدارس في الخريـف وكنـت أكـره الإجـازات لأني أقضيهـا مكبـلًا في مطعـم ومقهـى والـدي، في حـين أن أنـدادي وأصدقـائي يسـتمتعون

بالخريف وألعابه المتنوعة من دافوري وسباحة في الخيران، خاصة خور المحلج في الجانب الجنوبي من حي العصاصير، ولعب البلي والقرقور والتسكع بعربات السلوك التي كان يتقن عملها الصديق الأستاذ عمر الجعلي والفنان التشكيلي ومصمم العرائس السر إبراهيم، جاءني عمي فؤاد في ذلك الصباح وهو يحمل عددًا من المجلات، عرضها عليَّ وكنت أجلس على ترابيزة الحسابات أستقبل الموارك من الجرسونات وأحاسب الزبائن وأكتب على دفتر ضخم ديون الرواد الدائمين في أوقات الوجبات، خاصة موظفي المجلس البلدي والأشغال وممرضي المستشفى الذين يدفعون ثمن وجباتهم شهريًّا، حيَّاني عمي فؤاد وأشهر أمام عيوني تلك المجلات قائلًا: «شوف دي بتنفع معاك».

كانت المجلات هي «سمير» و«ميكي» و«تان تان» فبرقت مني لهفة في العيون اصطادها عمي فؤاد وأبرم معي نوعًا من الاتفاق السري، السري جدًّا، وهو أن يأتيني هو بهذه المجلات ومجلات أخرى على أن أدفع له مبلغ ٢٥ قرشا - طرادة - وكان هذا المبلغ كبيرًا وقتها بما يكفي أن يغطي ثمن قفة الملاح بكل تفاصيلها، مدفوعًا بشغفي بالقراءة لم أتردد في تنفيذ هذا الاتفاق الجميل، كان عمي فؤاد يجلب لي هذه المجلات من بيت أخيه بعد أن يلقي بها أبناؤه، ويبدو أن لهم اشتراكًا شهريًّا، وبذلك كان عمي فؤاد يتخلص من فقر وعوز ألمَّ به حين خاصمت أسرته ماديًّا انطلاقه وتمرده على قيودها.

كانـت الزيـارات الـتي يفعلهـا عمـي فـؤاد مـع الأسرة الكبـيرة زيـارات سريـة يسـاعده في ذلـك حـب نسـاء وأطفـال الأسرة لـه، وعـبر تلـك الزيـارات السريـة وبفضـل نـزوات عمـي فـؤاد تلـك تفتحـت قـراءاتي عـلى عوالـم «سـوبرمان» و«الوطـواط»، «الرجل الـبرق» و«طـرزان» و«بونانـزا» و«الرجـل المطـاط» و«الرجـل العنكبـوت» وتطـورت هـذه العلاقـة حـتى بـدأت أقـرأ قصصًـا لـ«كامـل كيـلاني»، وأذكـر أنـه مـرة جـاءني بكتـاب ضخـم أصفـر الأوراق، وقـد كان ذلـك الكتـاب جـزءًا مـن «ألـف ليلـة وليلـة» بالـذات الجـزء الـذي بـه حكايـات سـندباد ولـن أنـسى مطلقًـا سـهراتي الممتعـة مـع هـذا الكتـاب عـلى ضـوء اللمبـة الشـاحب.

بتأثـير مـن هـذه القـراءات المنفتحـة عـلى الخيـالات الجامحـة المسـتعينة بالتصاويـر الجميلـة حاولـت أن أنفـذ فكـرة «الرجـل الوطـواط»، ربطـت عـلى عنقـي مـلاءة وبـدأت أركـض بهـا في الحـوش متحسسًـا فعـل الهـواء بهـا، وتماديـت أكـثر حـين حاولـت أن أقفـز بهـا كي تنفـرد أكـثر، ولا أنـسى أنـني قـد صممـت قناعًـا مـن الكرتـون لوجـه «الرجـل الوطـواط» ثبَّتـه عـلى وجهـي مسـتخدمًا في ذلـك أسـتك سروال قديـم، وفي محـاولاتي تلـك سـقطت عـلى كـرسي جلـوس خشـبي متـين، سـقطت واصطـدم حنـكي بعنـف بذلـك الخشـب المتـين، فـكان أن دخلـت إحـدى أسـناني في لحـم شـفتي السـفلي، فـكان هـذا الجـرح الـذي تحسسـته الآن وحـرض ذاكـرتي كي أكتـب عـن عمـي فـؤاد؛ ذلـك الـذي اسـتثمرني لنشـوته واسـتثمرته محققًـا بذلـك قفـزة كبـيرة كي تكـون القـراءة أهـم عـاداتي الجميلـة.

كنا نسمع ونحن في الثانوية العامة أن عمي فؤاد دخل ملة الإسلام لكنه لم يتخلَّ عن انفلاته ومعاقرته النشوة، وسارت في ذلك نكتة تقول إنه أجاب حين سئل عند دخوله الإسلام وكيف أنه لم يكف عن الخمر: «أنا مسلم عاصي»، وأذكر أن المدينة وقتها كانت تتهامس حول إسلام عمي فؤاد، وكيف أن أسرته قد أقامت مأتمًا رسميًّا أعلنت فيه أن عمي فؤاد قد أصبح في عداد الموتى بالنسبة إلى أسرته حين دخل الإسلام، وقيل أيضًا إن السبب وراء دخول عمي فؤاد الإسلام رفقة جميلة ومنفلتة مع «ست إندراية» جميلة تطورت إلى زواج.

بعد أن أوغل عمي فؤاد في الإدمان وُجِدَ ميتًا في أحد أزقة حي «حجر المك»، ترى أين دُفِنَ عمي فؤاد؟

عوض ك

أمـام مقهـى وحلـواني «كازابلانـكا» المقابـل لمستشـفى كادوقـلي والقريـب جـدًّا مـن بنـك النيلـين اسـتطاع «كاوو» - حـارس مرمـى نـادي الشـبيبة - أن يخلـق ضجـة مـن الضحـك كعادتـه دائمًـا وهـو يـوزع روحـه المرحـة والممـراح في تفاصيـل المدينـة، لكـن في هـذه الظهـيرة يبـدو الأمـر مختلفًـا باختـلاف الوسـائل الكثـيرة الـتي يختارهـا «كاوو» كمدخـل لضجـة كوميديـة محتملـة، وهـذه المـرة كان فعـلًا مدخـلًا مختلفًـا، دخـل «كاوو» في هـذه الظهـيرة الملتهبـة السـوق الكبـير وهـو قـادم مـن حـي الملكيـة يقـود دراجتـه بحركاتـه البهلوانيـة المعتـادة، رغـم أن الشـارع دون مـارة، وصـل «كاوو» إلى دكان عبـد المنعـم الطيـب الـترزي، وواحـد مـن أجمـل ظرفـاء المدينـة وأحـد أهـم مراكـز «كاوو» لتفجـير ضجتـه الضاحكـة، تـكل «كاوو» دراجتـه عـلى أحـد أعمـدة برنـدة الـدكان وقصـد أن يسـتهدف بوضـع الدراجـة هكـذا شـلة مـن الشـبان الجالسـين عـلى الكـراسي وبعضهـم وقـوف، قبـل أن يصـل «كاوو» إلى ماكينـة خياطـة عبـد المنعـم،

صرخ أحـد الشـباب ضاحـكًا وبمتعـة مشـيرًا إلى دراجـة «كاوو» وانفجـر الشـباب بالضحـك عـلى التـوالي وهـم يتابعـون إشـارة الضاحـك الأول إلى الدراجـة، وكانـت هـذه الإشـارة تتجـه تحديدًا إلى لافتـة صغـيرة مثبتـة عـلى سـبت الدراجـة الخلفـي، وكانـت هنـاك جملـة مكتوبـة عـلى اللافتـة هـي سـبب هـذه الضحـكات المتفجـرة والـتي يلمهـا كاوو بطـرف من حكايـات وحكايـات مفجرًا مزيـدًا مـن الضحـكات، وهكـذا أشـعل «كاوو» بلافتـة دراجتـه تلـك ظهـيرة المدينـة بالضحـكات متجـولًا هنـا وهنـاك، وهـا هو أمامـي الآن وأنـا أجلـس في الركـن الـذي أفضلـه في مقهـى وحلواني «كازابلانـكا»، أراه أمامـي وقـد تحلَّـق حولـه جمـع مـن النـاس وهـو يحـكي، ومـا كان عـلى الضحـكات إلا أن تتعـالي، الأمـر الـذي أثـار فضـولي فتحركـت واقتربـت مـن الحلقـة، اقتربـت أكـثر لأقـرأ الجملـة المكتوبـة عـلى اللافتـة وبخـط جميـل أصفـر عـلى أرضيـة سـوداء، وفرقعـت ضحكـتي لتختلـط بضحـكات أخريـات، كان مكتوبًـا عـلى اللافتـة هـذه الجملـة:

«أغلى من لاندروفر»

تـرى مـا الـذي يضحـك في هـذه الجملـة «أغـلى مـن لاندروفـر»؟ كل مـا في الأمـر أن «كاوو» باختيـاره هـذه الجملـة كان مسـتندًا عـلى حكايـة تهامسـت بهـا المدينـة حـتى وصلـت إلى المحاكـم، وهـي أن مصلحـة النقـل الميكانيـكي قـد لجنـت عـددًا مـن العربـات الحكوميـة وطرحتهـا للبيـع، ومـن ضمـن هـذه العربات كانـت هنالـك عربـة لاندروفـر بحالـة سـليمة حصـل عليهـا أحـد

أصحـاب الحظـوة الحكوميـة بمبلـغ تسـعين جنيهًـا، ولمـا كانـت دراجـة «كاوو» ثمنهـا ١٠٠ جنيـه فهـي أغـلى مـن لاندروفـر، وهكذا بـين هـذه المعادلـة الحسـابية يـوزع «كاوو» حكاياتـه المختلقـة والمحلقـة حـول حـدث يسـتحق التعريـة، وقـد كان المدخـل إلى تفجـير الضحـك حـول الحـدث يبـدأ مـن رؤيـة وقـراءة اللافتـة، عـدت بضحكـتي إلى ركـني المفضـل في المقهـى، ولكـني سرعـان مـا رجعـت مـرة أخـرى إلى دراجـة «كاوو» لأنظـر مـرة أخـرى إلى اللافتـة المميـزة بخـط جميـل، لأقـرأ تحـت الكتابـة توقيـع الخطـاط «عـوض ك».

«عـوض ك» عرفتـه المدينـة عـبر اللافتـات التجاريـة، الكتابـات عـلى اللـواري والحافـلات، دراجـات المدينـة كانـت تتباهـي بلافتـات صغـيرة تثبـت عـلى السـبت الخلفـي للدراجـة، فيمـا بعـد منتصـف السـبعينيات حـين تحولـت مدينـة كادوقـلي مـن مركـز إلى عاصمـة محافظـة «جنـوب كردفـان» كان «عـوض ك» بلافتاتـه ذات الخـط المميـز علامـة مـن علامـات هـذا التحـول، وقـد كان نـادرًا مـا توضـع لافتـات عـلى المحـلات التجاريـة، دكاكـين قليلـة كانـت عليهـا لافتـات تحمـل أسـماء شركات مثـل «شـيكان كـولا»، وأذكـر لافتـة موقعًـا عليهـا باسـم غريـب هـو «عيـون كديـس» ـ أبنـاء مدينـة «الأبيـض» يعرفـون هـذا الاسـم - جـاء الفنـان الخطـاط «عـوض ك» إلى كادوقـلي مـن ضمـن أولئـك الذيـن جـاؤوا إليهـا موظفـين وعمـالًا مهـرة مـن ضمـن مـشروع هـذا التحـول، كان هـو يعمـل بمصلحـة الأشـغال، وهـذه المصلحـة بالـذات منحـت كادوقـلي العديـد مـن

الشـخصيات المؤثـرة، ظرفـاء ولاعـبي كـرة ومدربـين ومغنـين وعازفـين، البعـض منهـم مـن أبنـاء المدينـة والبعـض جـاء إليها مـن مـدن أخـرى، كان يوقـع عـلى اللافتـات هكـذا «عـوض ك» فمنحـه هـذا التوقيـع الاختـلاف في مناداتـه، البعـض ينادونـه بــ «عـوض كاف» والبعـض الآخـر ينادونـه بــ «عـوض ك» دون إضافـة حـرف الفـاء، والمقربـين جـدًّا مـن الأصدقـاء يكتفـون بمناداتـه بــ «ك».

منـح «عـوض ك» روحـه المرحـة الجذابـة العذبـة للمدينـة، تـراه يتجـول بدراجتـه في السـوق الكبـيرة وتتبعـه صيحـات الترحـاب الـتي عـادة مـا يقابلهـا بـود عميـق عـبر تلويحـات يـده اليـسرى، كان «عـوض ك» عـادة مـا يسـتخدم يـده اليـسرى، أحيانـًا يلـوح بكلتـا يديـه متحكمـًا في تـوازن الدراجـة، كان ضجـة مـن المـرح وكرنفـالًا مـن البشاشـة، يـترك دائمـًا أثـره عـلى الأماكـن الـتي يمـر بهـا، هـا هـو يقـذف بنكتـة لاذعـة أمـام ترابيـزة «خليـل البـوني» أحـد أشـهر جـزاري كادوقـلي، حـين يسـمع النـاس ضجـة ضاحكـة تنبعـث مـن زنـك الخضـار يعرفـون أن «عـوض ك» مـر مـن هنـا، لـه في دار الرياضـة أو سـينما كادوقـلي اجتراحـات مـن المداعبـات، «عـوض ك» صديـق للألفـة، أينمـا يذهـب يتحلَّـق النـاس حولـه، أذكـر أن شـجرة النيـم الكبـيرة الظليلـة الـتي عـلى جانـب زنـك التشاشـة وأمـام زنـك الكرشـة والكمونيـة قـد لاذ بهـا جمـع مـن النـاس تحلقـوا حـول «عـوض ك» في إحـدى صباحـات الجمعـة، كان «عـوض ك» قـد بـدأ فاصـلًا مـن النـكات، «عـوض ك» كان يـؤدي النكتـة يرويهـا ويشـخصها بطريقـة بارعـة، لـن

أنسى تلك النكتة التي يتقمص فيها «عوض ك» شخصية تمتام، سأله أحدهم عن الزمن «الساعة كم لو سمحت» فرد عليه التمتام «وا... وا... وا... وا... وا» فحاول السائل أن يساعده قائلًا: «واحدة؟» فأجاب التمتام متخلصًا من تمتمته «لا... واقفة»

يتنقَّل «عوض ك» عبر شخوص نكاته المتعددة، تراه يتقمص شخصيات نسائية متنوعة في مفارقات ضاحكة بأداء ممثل مقتدر، هكذا دائمًا «عوض ك» أينما وجد يمنح روحه المرحة لكل الناس، في حي السوق وفي مناسبة زواج جارنا «عثمان عابدين» رحمه الله كان «عوض ك» هو مغني الحفل، بصوت رخيم عذب يتنقل بين الأغنيات خاصة أغنيات الحقيبة، ينقر بأصابع يده اليسرى على الرق بطريقة ساحرة وبين أغنية وأغنية يتقمص شخصيات نكاته، وحين سرنا من حي السوق إلى حي كليمو، حيث منزل العروس، كان «عوض ك» يمنح كورال البنات نقرات من الرق تتخلل نسيج إيقاعات الدلوكة العذبة، ويضيف بعدًا حواريًّا إلى أغنية تحتمل الفكرة.

«ما لي دخل تاني

ما دام هو نساني

يا فاطنه وفطينه

ما دام هو نساني

و أصلو الغربة شينه

ما دام هو نساني»

هـو «عـوض ك» يزيـن المدينـة بلافتاتـه ذات الخـط الجميـل، يمنـح لياليهـا زفـة مـن الأغنيـات، يحرضهـا كي تنتمـي إلى الضحكـة، يـوزع ألفتـه عـلى الـدروب والشـوارع والأزقـة والأسـواق والمقاهـي وكأنـه يحـاول أن يعيـد تكويـن الكـون عـبر أدواتـه الفنيـة المتنوعـة فـ «عـوض ك» يمتلـك فرشـاة للرسـم والخـط وحضـورًا دراميًّـا متميـزًا للنكتـة والتشـخيص وتصويـت عـذب للغنـاء والطـرب، وأهـم مـن كل ذلـك يمتلـك روحًـا باتسـاع الجمـال تسـتطيع أن تشـعل كل هـذه الأدوات الجميلـة.

«عـوض ك» كائـن درامـي حقيقـي وأظنـه قـد خـرج مـن كادوقـلي حـين تحولـت مـن مدينـة أليفـة إلى مدينـة قبحـت بحـرب لا منتـصر فيهـا، أحـن إلى صـوت «عـوض ك» الرخيـم العـذب وهـو يأتيـني عـبر ظلمـة داكنـة مـن حفـل عـرس في حـي الرديـف في ليلـة بهـا مـن الخريـف زيفـة بـاردة، وأنـا أتسـكع بـين أكشـاك كنتـين الملكيـة.

هروب

فناء المدرسة الشرقية الابتدائية يتناثر فيه تلاميذ الصف السادس، عم «تاور» انتهى من مهمته اليومية، رش الباحة التي أمام الفصول مستمتعًا بحركة يده مع خرطوش الماء، داعبت رائحة ذلك التمازج بين الماء والأرض أحاسيس التلاميذ. شجرة النيم الضخمة أمام مكاتب المدرسين تحمل منذ زمن بعيد تلك الدائرة الضخمة الحديدية باعتبارها جرس المدرسة، تجمعات تلاميذ الصف السادس تمارس حيويتها من خلال ذلك النشاط المتمرد المتنوع. حلقة «دافوري» صغيرة لكنها تثير من الغبار ما فيه الكفاية، لعبة «الرنق» تجمع حولها أكثر التلاميذ بين لاعب ومتفرج، صيحات تعلن ذلك الانتصار الذي تتمتع به لعبة «القرقور»، ثمرة أشجار النيم يستفاد من لونها الأصفر والأخضر لتكون علامات تتحرك في تلك الحفر التسع التي تشكل على الأرض بأصابع التلاميذ كي يلعبوا «صفرجت». «حسن تعريفة» يتجول بين التلاميذ حاملًا تلك الورقة المرعبة، ورقة الديون الصغيرة،

حس تجاري مبكر هو ذلك الذي دفع هذا التلميذ النشيط «حسن تعريفة» كي يستطيع أن يبيع ثلاثة أكياس حلوى «حلاوة دربس» في اليوم داخل فناء المدرسة، بعدها يعرف كيف يطارد أولئك الهاربين من تسديد الديون، ولكن تلك الورقة تستطيع محاصرتهم، سرقت منه مرة هذه الورقة، لكنه استطاع بعقلية تاجر مجرب أن يعيد تلك الأسماء إلى ورقة أخرى، كتبها من ذاكرته، وحين قارن أولئك الذين سرقوا الورقة الأولى بينها وبين تلك التي حاصرتها ذاكرته لم يجدوا أي فرق بين الورقتين، الغريب في الأمر أن «حسن تعريفة» دائمًا ما يتعبه مدرس الحساب.

في حديقة المدرسة، في الحقيقة هي جنينة المدرسة، تعايشت فيها أشجار الجوافة والليمون والمنقة والقشطة، هناك كان يتقافز التلاميذ بين أغصان أشجار الجوافة مستدعين «طرزان» من غاباته، مقلدين صرخته المدوية، بعضهم يمارس ذلك التأمل الطفولي وهم مأسورين بكرنفال عودة الطيور والعصافير إلى أعشاشها، كم هم مشاكسون أولئك التلاميذ الذين يمتلكون «النبل»، انتهازيون يستغلون هذا الكرنفال الحتمي لتقذف تلك النبال بحجارتها مقلقة هجعة طيور وعصافير الجنينة، غالبًا ما يجتمع أولئك المتخفون من العيون، يختبئون هناك في البعيد، في أحد أركان الجنينة النائية يسفون «التمباك»، بعضهم يدخن سجائر «أبو قندول»؛ تلك العلبة الصغيرة الزاهية بلونها الأحمر وقندولها المرسوم بعناية، يختارون الجنينة مكانًا لهذه

الممارسـة، لا لأنهـم يحبـون الخـضرة والجـو رائـق المـزاج، ولكـن لأن أوراق شـجرة الليمـون حـين تلوكهـا أفواههـم الملوثـة برائحـة الدخـان سرعـان مـا تختفـي تلـك الرائحـة الـتي تـدل عـلى الجريمـة، كـم غريـب ذلـك العالـم الـسري الـذي يصنعـه التلاميـذ، عالـم محكـم التفاصيـل، عالـم في حالاتـه المتلمسـة نحـو تكـون الضمـير، تجـارب حقيقيـة تحـاول أن تتمـرد عـلى أي وازع، عـلى أي قانـون، رغبـة جانحـة لممارسـة تلـك الانتهـاكات الصغـيرة، طموحـات لا تتقيـد بالممنوعـات.

عـم «تـاور» يتحـرك نحـو الجـرس حامـلًا تلـك المطرقـة الحديديـة، والتلاميـذ يهرولـون نحـو الأزيـار والمواسـير، أخرجـت الكنبـات بأدراجهـا، المذاكـرة في الصيـف دائمًـا مـا تكـون خـارج الفصـول، في حـوش المدرسـة، عُلِّقَـتْ الرتايـن عـلى تلـك الأعمـدة الخشـبية الـتي قـدر لهـا أن تتحمـل هـذا العـبء، ضُرِبَ الجـرس، وقـف أسـتاذ «عابديـن» خـارج المكتـب يراقـب انتظـام التلاميـذ، جلـس كل تلميـذ في مكانـه، ضُبِـطَ «هاشـم آدم» متأخـرًا، سرح في الجنينـة ولـم يسـمع الجـرس، صـوت «الألفـة» وهـو يمـارس ذلـك الـصراخ بأسـماء التلاميـذ للتأكـد مـن الحضـور والغيـاب يختلـط بضربـات السـوط عـلى جسـد «هاشـم» سـيئ الحـظ، همسـات التلاميـذ بـين المتشـفية والخائفـة مـن المصـير نفسـه تعلـو، لكـن «الألفـة» يقمعهـا، السـوط يفرقـع و«هاشـم» يـصرخ.

«أوعك تاني تكرر العملية دي.. سامع؟»

أستاذ «عابديـن» يحـذر بصوتـه الجهـوري، هـو وكيل المدرسـة، لا يشـاهد أبـدًا داخـل الفصـول، توقـف منـذ زمـن عـن ممارسـة التدريـس، تحـول إلى إداري المدرسـة، حازمًـا في الضبـط والربط، يشـكوه المدرسـون قبـل التلاميـذ ولا يسـمح مطلقًـا بـأي اختـلال في نظـام المدرسـة مـن بدايـة طابـور الصبـاح حـتى المذاكـرة، يبـدو أنـه بحزمـه هـذا يحـاول أن يتغلـب عـلى مـا حـدث قبـل ثلاثـة أعـوام حـين كان يـدرس الفصـل الأول، أولئـك الأطفـال الخارجـون عـن أي تحكـم، طفولـة تلقائيـة ومتداعبـة في القـول والفعـل، كان الأسـتاذ «عابديـن» يحـاول أن يـشرح لهـؤلاء الأطفـال الفعـل «هـرب».

«هـاء هـرب»، يـردد الأطفـال «هـاء هـرب»، لمـاذا خُيِّـلَ إليـه أن هـؤلاء الأطفـال المسـاكين لـم يفهمـوا كلمـة «هـرب» شرحهـا مـرة، مرتـين، ثلاثًـا، لكـن لـم يقتنـع بمـا فعـل، تمـادى في ذلـك الإصرار الـذي يتمتـع بـه المدرسـون، جـرى داخـل الفصـل، الأطفـال يكتمـون ضحكتهـم، جـرى مـرة أخـرى وهـو يقـول «هـاء هـرب»، ويـردد الأطفـال ذلـك ممزوجًـا بالضحـك «هـاء هـرب، هـاء هـرب»، ازداد الضحـك، قفـز مـن الشـباك، قفـز وراءه كل الفصـل، يركـض حـول المدرسـة صارخًـا «هـاء هـرب»، تحولـت المسـألة إلى لعبـة ممتعـة لـدى الأطفـال، يركضـون خلفـه ويهتفـون وراءه «هـاء هـرب»، دار هـذا الموكـب حـول المدرسـة، انطلـق الأسـتاذ «عابديـن» بأطفالـه الحميمـين في الشـوارع، دخـل الموكـب السـوق، طـاف بالأحيـاء والحـلال، يركـض وهـو يـردد «هـاء هـرب» ويـردد معـه بالحمـاس نفسـه

أولئك الأطفال المتلاعبون. ضرب الناظر تليفون إلى مكتب التعليم، تحركت عربة من المكتب تبحث عن الأستاذ «عابدين» وأطفال الفصل الأول الابتدائي، بحثت العربة كثيرًا، وأخيرًا وجد وفد مكتب التعليم الأستاذ «عابدين» في حي «الدرجة الرابعة» الذي يبعد من المدرسة مسافة لا يستهان بها، بعد تعب شديد تمكن الوفد من التحكم في هذا الموكب المنطلق إلى حيث لا نهاية، مهدودًا ومقتربًا من الإغماء صعد الأستاذ «عابدين» إلى العربة، وأطفال الصف الأول الابتدائي فرحين جدًّا بركوبهم العربة، أحد الأطفال مارس خبثه الطفولي حين صرخ والعربة تمر بالسوق «هاء هرب»، رددها البقية، إلا أن زمجرة قوية أسكتتهم. منذ تلك الحادثة توقف الأستاذ «عابدين» عن ممارسة التدريس ليتحول إلى هذا الإداري الحازم.

«يا ولد»

ينادي أستاذ «عابدين»، يهرول عدد من التلاميذ نحوه في سباق حميم.

«عايز واحد بس»

«نعم يا أستاذ»

«خلي الألفة يجيب ورقة الحضور والغياب»

في مكانه تحت شجرة النيم المعلق عليها جرس المدرسة

يجلس دائمًا، من هذا المكان يتابع كل الأمور، جلوسه تحت هذه الشجرة بالتحديد ليس اختيارًا حرًّا، ولكنه اختيار جبري، لأن أحد التلاميذ أراد أن يدعم هروبه من المذاكرة بسبب منطقي، فما كان إلا أن تسلل إلى هذه الشجرة وضرب الجرس معلنًا نهاية المذاكرة قبل نهايتها المعلومة، وخرج إثرها التلاميذ وكأن الأمر متفق عليه، إذن لا بدَّ من الاحتياط لمثل هذه الأفعال الخارقة والتصدي لها، «النظام أساس كل شيء» هكذا يردد الأستاذ «عابدين» ذلك بقناعة متناهية ولكن...

بينما كان الأستاذ «عابدين» يعاقب أولئك «الرجاجين»، وقف «محمود» مترنحًا ووقع على الأرض مغمى عليه، انتهز التلاميذ هذه الفرصة وكسروا ذلك الصمت القانوني، تحرك «عثمان» و«محجوب» نحوه بهمة عالية ورفعه من الأرض، وضع «محجوب» يد «محمود» اليمنى على كتفه ووضع «عثمان» اليسرى أيضًا على كتفه، تبرع أحدهم برشه بماء من الزير، جرجر «محجوب» و«عثمان» «محمود» متجهين نحو الخارج، إلى المستشفى، عند بوابة الخروج أوقفهم صوت أستاذ «عابدين» العالي النبرة:

«تعالوا هنا، زريبة هي؟ على وين؟»

جاء «محجوب» مهرولًا نحوه وبكل تلقائية قائلًا:

«يا أستاذ، محمود وقع غمران ومودينو المستشفى».

«ادخل المكتب دا وجيب دفتر المستشفى».

سجل اسم «محمود» مثلثًا على دفتر المستشفى وحمل «محجوب» الدفتر، وخرج ومعه «عثمان» يجرجران «محمود» الذي حافظ على أنينه، وعندما تجاوزوا المدرسة بمسافة لا تتيح الملاحظة والمراقبة تخلى «محمود» عن إعيائه المفتعل وقال قلقًا:

«دي ورطة، نعمل شنو في حكاية الدفتر دي؟»

«يا إخوانا حنفوت المناظر بالطريقة دي».

قالها «محجوب» متلهفًا:

«يا إخوانا نحن نمشي المستشفى، بس يا محمود أنت لازم تكون عيان»

«عثمان» دائمًا يدبر الخطط، وهذه الخطة من تدبيره، لكن دفتر المستشفى لم يكن في الحسبان، كانت الفكرة أن يقع «محمود» على الأرض وأن يتحرك «عثمان» و«محجوب» به نحو المستشفى في محاولة للهروب من المذاكرة إلى حيث تلك المتعة التي توفرها السينما، وخاصة أن الفيلم لا يمكن أن يهمل «سانتو ذو القناع الفضي».

وقف ثلاثتهم هنيهة أمام باب المستشفى يدعمون «محمود» بعدد من الوصايا، لبس «محمود» تلك الحالة المفتعلة، أرخى جسده على كتفي «عثمان» و«محجوب»، دخل الثلاثة

إلى مكتـب «الحكيـم باشـا» المنـاوب، «سر الختـم»، تجـاوز الأربعـين، وهـو أحـد ظرفـاء المدينـة ومـن أهـم مهرجيهـا، عادة مـا يتحـف دار الرياضـة بتعليقاتـه السـاخرة:

«أيوه، في إيه يا أبنائي؟».

«محمود دا عيان شوية».

رد «عثمان»

«سلامتك يا بني، اقعد بي جاي»

جلس «محمود» في الكرسي ببطء مفتعل جدًّا

«حاسس بي شنو يا محمود؟»

«عنـدي حمـى»، بصـوت يفتعـل الأنـين، والتوتـر يبـدو عـلى «محجـوب» و«عثمـان»، أخـرج «سر الختـم» مقيـاس الحـرارة مـن الكـوب الزجاجـي الـذي أمامـه أدخلـه في فـم «محمـود»، أخرجـه، نظـر إليـه بدقـة، أدخلـه مـرة أخـرى، أخرجـه، تفحـص الأرقـام بعنايـة، نظـر إلى «محمـود» قائـلًا:

«ما في أي حمى يا ابني»

«بس هي حمى جوه».

«محمـود» يحـاول أن يتماسـك، أن يحافـظ عـلى إعيائـه، وخـرج «محجـوب» مـن المكتـب، لحقـه «عثمـان» هامسًـا:

«دا ما لقى غير الحمى دي؟»

«يـا ابـني مفيـش حاجـة اسـمها حمـى جـوه، برضـو بتظهـر بالترمومـتر».

«يمكن الترمومتر بايظ»

«بايظ كيف يعني؟»

«يعني ما احتمال»

«أنت يا ود بتتفلسف عليَّ ولا شنو؟»

«لا ما بس... أنا»

لاحـظ «سر الختـم» أن «محمـود» فقـد حالـة الإعيـاء، بـدا حيويًّـا، نـسي أنـه مريـض في غمـرة محاولتـه إقنـاع «الحكيـم باشـا» الحصيـف.

«أنت ود مستهبل»

«والله يا عم السر»

«و المعـاك ديـل مسـتهبلين زيـك والله كويـس، لكـن عـلى منـو؟ نحـن يـا أولاد بنضرب السـماء بوهيـه»

وبانتصـار واضـح عـلى العيـون تنـاول «سر الختـم» الدفـتر وكتـب في الخـط المـوازي لاسـم «محمـود» المثلـث بقلـم

«الكوبيا» بعد أن مسح به على لسانه بحركة حادة، كتب بخط عريض وواضح هذه الكلمة «مستهبل».

خرج المتآمرون الثلاثة من المستشفى يحملون تلك التهمة الخطيرة بدلًا من الهروب إلى السينما ها هم يواجهون هذا الموقف الشائك والفاضح.

«أنت غبي يا محمود؟ ليه قلت ليهو حمى؟ ما تقول عندك إسهال، صداع، أي حاجة، ما لقيت غير الحمى دي؟!»

«عثمان» ثائرًا وقد أحس بالتورط.

«يا اخوانا هسه نعمل شنو؟ نودي الدفتر المدرسة ولا كيف؟»

«محمود» بصوت خافت ومضطرب.

«أصلو يا اخوانا البقت بقت، مجلودين مجلودين فأحسن نمشي السينما وبكرة يوم تاني»

«محجوب» يقترح والبقية تنفذ الاقتراح.

بدفترهم الذي يحمل في داخله إشهار الجريمة، ذهبوا إلى السينما، لا يهم، فالفيلم استطاع أن يبعد أحاسيسهم الصغيرة والمتوترة عن كل تفاصيل المؤامرة؛ تلك المؤامرة المكشوفة.

حين دخل «محجوب» البيت متلصصًا خوفًا من أسئلة الوالد

يحمـل دفـتر الفضيحـة، وهـو يحـاول التسـلل إلى الداخـل، ارتجـف مخلوعًـا، سـقطت تلـك الفضيحـة ودفترهـا عـلى الأرض حـين سـمع ذلـك الصـوت الجهـوري، «جيـب الدفـتر دا وتعـال هنـا».

كان الأسـتاذ «عابديـن» مـع والـده، كان في انتظـاره، رفـع «محجـوب» الدفـتر مـن الأرض، لـم يكـن يتوقـع ذلـك، اقـترب مرتعـدًا، ناولـه الدفـتر بيـد مرتجفـة، ويحـاول أن يتفـادى نظـرات والـده الحـادة، الأسـتاذ «عابديـن» يفتـح الدفـتر، يضيء بطاريتـه الـتي لا يتخـلى عنهـا أبـدًا، نظـر إلى تلـك الكلمـة الحـادة والمكتوبـة بعنايـة، نظـر نظـرة حازمـة في عيـون «محجـوب»:

ـ «امشي دلوكتي نادي عثمان ومحمود.. هسه سريع».

عبدو جوطة

مغمى عليه، ممزق الثياب، الدم ينفجر من عدة مناطق في الوجه، العنق، الرأس، الرجلين، الأيادي. وصل إلى المستشفى محمولًا على الأكتاف ويركض خلفه جمهور متوتر وساخط، أمام باب المستشفى كادت المعركة تتكرر لولا تدخل الشرطة التي حاصرت ذلك الجمهور أمام الباب.

خلع عنه الممرض ما تبقى من تلك الثياب المعروفة بلونها الأسود، كومها على يده وقذفها حيث استقرت على كرسي، كتلة سوداء عليها بقع حمراء، بين هذين اللونين كان «عبدو جوطة» يرقد ممددًا على الكنبة، خارج وعيه تمامًا، بعد أن طرح الجمهور على الأرض سور السلك الشائك الذي يحدد الميدان، احترقت الشباك، كراسي المقصورة تهشمت، الأبواب خلعت من مكانها، عنف في كل مكان، صيحات انفعال لاحظها أطفال الأحياء القريبة من دار الرياضة، النسوة خرجن إلى الشارع وبعضهن أمام أبواب البيوت، انتشرت معارك صغيرة في الداخل والخارج،

تداخلـت المشـكلات وتشـابكت فاختلطـت الانفعـالات، حـين جـاءت قـوات الشرطـة كان العنـف قـد وضـع ملامحـه عـلى كل شيء، كل مـا فعلتـه هـو ملاحقـة ذلـك الموكـب الثائـر الـذي يركـض خلـف «عبـدو جوطـة» المحمـول عـلى الأكتـاف.

كان «عبـدو جوطـة» رجـل الخـط المعـروف هـو السـبب الأسـاسي في كل مـا حـدث، فيمـا مـضى، «عبـدو جوطـة» كان مـن أهـم وأمـيز المشـجعين المتعصبـين لفريقـه، لا يقبـل هزيمتـه، يحتفـي بانتصـاره بجولـة كاملـة حـول كل المدينـة، يـصرخ أمـام مـن يصادفـه، حـين الهزائـم لا يتـوانى في الدخـول في مشـاجرات صغـيرة غالبًـا مـا يلتـف حولهـا النـاس كنـوع مـن التسـلية، كان معروفًـا بحـب ذلـك الفريـق، فريـق «العاصفـة»، وكان مـن أهـم رمـوز الفريـق، الجميـع يعـرف أن «العاصفـة» يخصـه وحـده، يمكنـه خلـق ضجـة يعجـز عنهـا موكـب كامـل مـن المشـجعين.

هكـذا كان «عبـدو جوطـة» إلى أن جـاء ذلـك الحكـم الـدولي إلى المدينـة في كـورس تدريـبي للحـكام ورجـال الخـط، فـكان أن انخـرط «عبـدو جوطـة» في هـذا الكـورس ليصبـح بعـد ذلـك رجـل الخـط المعـروف، ويحلـم أن يـأتي ذلـك اليـوم الـذي يتحـول فيـه إلى حكـم أسـاسي.

في تطلعاتـه وأمانيـه الجديـدة تخـلى عـن حالـه كونـه مشـجعًا، أعلـن حيـاده، لـم يعـد يتحـدث عـن «العاصفـة»، فقـدت المدينـة تلـك الضجـة، حـاول أن يثبـت حيـاده مـن خـلال

أدائـه حـين يشـارك في المباريـات، نـسي النـاس ذلـك العشـق القديـم؛ عشـق «عبـدو جوطـة» لـ«العاصفـة»، ونـسي هـو تلك الكراهيـة المعلنـة ضـد فريـق «الكفـاح»؛ ذلـك النـد التقليـدي لفريـق «العاصفـة»، اجتهـد في أن يبعـد عنـه كل ذلـك الانحيـاز القديـم واضعًـا في بالـه أن مثـل هـذا التاريـخ قـد يخلـق مـن التأويـلات والشـائعات مـا يكفـي تمامًـا لإجهـاض حلمـه بقيـادة المباريـات، وأظنـه نجـح في ذلـك بالرغـم مـن أن دواخلـه لـم تسـتطع الابتعـاد عـن ذلـك العشـق، لـذا كان متعبًـا جـدًّا أن يسـجن انفعالاتـه الحميمـة في الدواخـل حيـث لا يعلـم أحـد، حيـث يكـون الانحيـاز في الخفايـا البعيـدة مسـتعينًا عـلى ذلـك بصمتـه وانسـحابه التكتيـكي مـن تلـك النقاشـات الـتي كان مـن أهـم رموزهـا، بأدائـه الجـاد في المباريـات، بحـذره الحسـاس الـذي يتحكـم في اسـتخدامه لتلـك الرايـة الحمـراء، خاصـة في حـالات التسـلل الـتي يكـون فيهـا الجمهـور دائمًـا صاحـب وجهـة نظـر أخـرى.

حـالات مـن الترقـب والإثـارة اجتاحـت المدينـة، فمبـاراة «العاصفـة» و«الكفـاح» تحـدد الفائـز بالـدوري، وهـي لا تقبـل التعـادل بسـبب تسـاويهما في الأهـداف والنقـاط، يعـني مبـاراة حاسـمة.. كل المدينـة تتحـدث وبحمـاس غريـب عـن الاحتمالات، نقاشـات حـادة حـول المعركـة القادمـة، تصريحـات وأمنيـات، تحليـل دقيـق مـن قبـل أولئـك الذيـن حـضروا تماريـن الفريقين، اسـتعداد نفـسي معقـد مـن قبـل الجمهـور، كل المدينة سـمعت أن مـدرب وكابـتن وسـكرتير فريـق «العاصفـة»، ذهـب ثلاثتهـم

إلى حيث يسكن شيخ «هـارون» في تلك الضاحيـة مـن ضواحـي المدينـة. شيخ «هـارون» معـروف بقـدر عظيـم لـدى الجمهـور الريـاضي، يقـال إنـه يستطيع أن يـرى المبـاراة قبـل أن تقام عبر قرعـة كبـيرة يعـرف كيـف يحولهـا إلى شاشـة تلفزيـون بعـد أن يملأهـا بالمـاء ويقـرأ بعـض التعاويـذ المبهمـة، يمسـح عـلى مـاء القرعـة بيـده اليمـنى فيشـاهد المبـاراة القادمـة.. يعـرف مواقـع الخطـورة عـلى الفريـق الـذي استنجد بـه في مشـاهدته للمبـاراة الـتي لـم تقـم بعـد، يستطيع شـيخ «هـارون» أن يغـير نتيجـة المبـاراة حسـب مـا يتفـق. يستطيع أن يحـول الكـرات الـتي تلـج الشـباك إلى ضربـة مرمـى عاديـة، ولـو صعـب الأمـر يحولهـا إلى ضربـة ركنيـة، وذلـك حـين يدخـل إصبـع يـده اليمـنى في مـاء القرعـة ويسـوط المـاء عـلى شـكل دوائـر معـدلًا في المشـهد الـذي أمامـه.. لكـن نـادرًا مـا يحـول شـيخ «هـارون» الأهـداف إلى ضربـات جـزاء وذلـك هروبًـا مـن التفاصيـل المتعبـة.

لـكل ذلـك كان الجمهـور الريـاضي يلقـب «الشـيخ هـارون» بلقـب حضـاري وهـو «الفـكي أبـو دش».. قلـت إن المدينـة كلهـا تعـرف اتصـال فريـق «العاصفـة» الـسري للغايـة مـع «الفـكي أبـو دش»، لكـنَّ بعـض الحاذقـين الذيـن يـرون أبعـد مـن أنوفهـم يعرفـون أن فريـق «الكفـاح» قـد اتصـل أيضًـا بـ»الفـكي أبـو دش» لـذا يرجحـون أن نتيجـة هـذه المبـاراة ستحسـم عـن طريـق ضربـات الجـزاء، ويقولـون إنهـا سـتكون مبـاراة طويلـة للغايـة.

تتهامس المدينة أيضًا بأن فريق «الكفاح» أرسل مندوبه إلى الفكي «أبو حسنين»، الذي يتميز بالتدخل المباشر في لياقة لاعبي الفريق الخصم، إذ يستطيع أن يؤثر في اللاعبين الخطرين ويجعلهم فاترين، ضعيفي همة، وغالبًا ما يقيد أي لاعب خطير يشير إليه ذلك الفريق الذي يتعامل معه، يقول المحللون إن فريق «العاصفة» قد اتصل أيضًا بالفكي «أبو دش» والفكي «أبو حسنين»، وتتوه الأحاديث وتتفرع ويكون الغموض قد صفع كل الحقائق حين يكون الحديث عن احتمال أن كلا الفريقين قد اتصل بكلا «الفكيين».. يبدو أن فريق «العاصفة» قد اتفق مع حارس مرمى و»ثيرد باك» فريق «الكفاح» على مبلغ من المال كي تُفتعَل ضربة جزاء في حالة التعادل، يقال أيضًا إن فريق «الكفاح» يحاول أن يشتري طاقم الحكام، ثم إن هداف فريق «العاصفة» الخطير «زمبة» استطاع «الكفاح» أن يشتري منه صومه عن الأهداف، هكذا في انتظار المدينة هذه المباراة تمارس كل ذلك الهذيان مستمتعة بالإثارة والترقب، غارقة في محيط من التفسيرات والتحليلات والشائعات التي تجرد الحقائق وتجعلها دائمًا بين الأبيض والأسود، بين الشيء وضده.

وسط صيحات الجمهور وصفيره العالي دخل طاقم الحكام ومن بينهم «عبدو جوطة» كرجل خط، تعالت الصيحات حين دخل الفريقين إلى أرض الملعب، فريق «العاصفة» بزيه الأحمر والأخضر، فريق «الكفاح» بزيه الأصفر والأسود، يتقافز اللاعبون متناثرين على أرض الملعب، الجمهور

محتشد بكثافة في كل الدرجات، جمهور غفير جلبته تلك الرغبة في الارتياح من كل الاحتمالات، بدأت أهازيج التشجيع تخرج من الحناجر، طبول تدق، نظر الحكم الداخلي إلى ساعته بعد أن انتظم اللاعبون في خاناتهم من اللعب وأعلن بداية المباراة، هستيريا من الصراخ، توجيهات حادة من الجمهور للاعبين، تصورات الجمهور عن المباراة تتصارع مع تصورات المدرب، العيون معلقة مع الكرة، أجساد المشجعين تتحرك حسب موقع الكرة في الميدان، «عبدو جوطة» يتحرك إلى الأمام وإلى الخلف حاملًا رايته الحمراء يصارع دواخله حتى لا يتخلى عن ذلك الحذر الذي تدرب عليه بضبط حالات التسلل والرميات الجانبية على الخط، لا يهتم مطلقًا بمداعبات الجمهور الذي هو بين الجلوس والوقوف في المدرجات التي تقع خلفه، الإثارة والترقب تغطي المكان بتجلياتها المختلفة، صراخ، صيحات، مناقشات عالية، تحرشات صغيرة، أهازيج تملأ فضاء المكان بالمتعة، صعاليك دار الرياضة يمارسون حيويتهم بتلقائية عالية، بعض محبي الظهور يعلنون أنفسهم بطرق مختلفة مستغلين تلك الجمهرة، على المقصورة الجانبية يجلس أولئك الذين يدعون الاحترام ويتأففون من الغوغاء والدهماء التي تعج بهم دار الرياضة، أطنان من التسالي والترمس والكبكبي أُستهلِكت. «قصب السكر» يُسهِم في اتساخ الأمكنة بعد أن نزعت تلك الأفواه المتوترة عنه قشرته، الجمهور متفاعل بكل شعوره مع أحداث المباراة

التي لم تشهد حتى الآن أي أهداف، إنها مباراة إثارة مكتملة، «عبدو جوطة» يمارس ذلك الركض إلى الأمام، إلى الخلف، وبالعكس، يكاد عنقه يطير عن جسده هو يركض وعيونه متجهة نحو الميدان، رأسه يكون بإمالة ملحوظة وهو يجري محاذيًا الخط، يخفي إثارته هناك في الحنايا البعيدة، يعاوده ذلك الحنين إلى انحيازه القديم، يهرب من كل ذلك بحذر معلن يشكل خطوات ركضه على الخط، يرفع رايته مؤكدًا حياده.

انتهى الشوط الأول دون أهداف، ما زالت تلك الاحتمالات تطل برؤوس من قلق وتوتر، من بين ذلك الانتظار الذي يبدو طويلًا حلَّق في الفضاء صقر، دار حول سماء دار الرياضة عدة مرات، تهادى إلى أسفل، اختار بتلقائية أن يستريح على أحد القوائم، القائم الذي على الجهة الجنوبية ، على قائم المرمى الذي كان يخص فريق «العاصفة» في الشوط الأول، وبحكم اتجاه اللعب سيخص في الشوط الثاني فريق «الكفاح»، فسَّر أحد المجربين ذلك «الصقر دا يا اخوانا ركّ في قون «الكفاح»، افهموها بقى، «الكفاح» مغلوب مغلوب»، شاع هذا التفسير وتسرب بين الجمهور لذلك ضاع الشوط الثاني من المباراة بالاهتمام الذي تابع به الجمهور الصقر بدلًا من المباراة. الصقر ما زال على قائم مرمى «الكفاح» يحرضه قلقه الخاص أن يطير في الفضاء، يحلق الصقر وتحلق معه عيون الجمهور وتبدو المباراة فاترة، يتهادى الصقر في سماء دار الرياضة مصاحبًا

بكل ذلك الاهتمام الشديد وكأنه يعرف ذلك، يقترب من مرمى «العاصفة» يرتاح من دورانه المنساب على القائم يضج المكان بالصراخ، تشهق الأفئدة وتهتز قلوب مشجعي فريق «العاصفة»، يحاول بعضهم هش الصقر من القائم، لكن الصقر لا يحرك ساكنًا، يداعب الأماكن المخفية من جناحه بمنقاره، والجمهور يتصايح ويتشنج، الصقر يدور في السماء، تدور عيون الجمهور، يرك على قائم مرمى «الكفاح»، صرخات، هتافات، الطبول تدق بعنف، يهشه مشجعو فريق «الكفاح» عن القائم، المباراة ضاعت من عيون الجمهور، أصبح اللعب رخوًا دون أي حماس، أحس اللاعبون أن الصقر قد خطف منهم الأضواء، حاول حارس مرمى «الكفاح» أن يهش الصقر من مرماه مستغلًّا ابتعاد اللعب عن المنطقة ليصرخ فيه مشجعو فريق «العاصفة» متهمين إياه بالجبن وبكمية من الألفاظ البذيئة، والصقر لا يستجيب إلا لدورته الخصوصية خارج كل تفسيرات وأفكار جمهور دار الرياضة، يرك، يحلق، ويرك، وحين قرر الابتعاد عن المنطقة كان قد فعل ما فعل بذلك الجمهور الذي عادة ما يلجأ إلى تفسير الظواهر بتلك الروح الميتافيزيقية.

حين ابتعد الصقر عن سماء دار الرياضة مخلفًا تلك العلامات التي رسمها بحركته من قائم هذا المرمى إلى ذلك، وحين انتبه الجمهور إلى المباراة اتضح أنه قد مضى زمن كبير من الشوط الثاني والمباراة تقترب من نهايتها وما زالت الشباك خالية من الأهداف، عادت أهازيج التشجيع،

ارتفـع حمـاس اللاعبـين، كان «عبـدو جوطـة» عـلى الخـط بزيـه الأسـود، يركـض متقدمًـا ومتراجعًـا، اسـتطاع أن يضحـك بصـوت مكتـوم وهـو يراقـب خلسـة انفعـالات الجمهـور مـع حركـة ذلـك الصقـر المتلاعـب.

المبـاراة في دقائقهـا الأخـيرة، توتـر عـالٍ يلـوث انفعـالات البـشر، إثـارة مكثفـة، الجـو مشـحون بالترقـب، صرخـات، أهازيـج تقـترب مـن الصيـاح، أصـوات مبحوحـة، في الدقيقـة الثالثـة والأربعـين مـن الشـوط الثـاني مـن المبـاراة، بينمـا كان «عبـدو جوطـة» يمـارس ركضـه حينمـا تكـون الكـرة عـلى الجانـب المسـؤول عنـه، نـال فريـق «العاصفـة» ضربـة ركنيـة، ترقـب وتشـنج الجماهـير.

أرسـلت الضربـة الركنيـة ليتلقاهـا «الـسر نتشـه»، مهاجـم العاصفـة، طائـرًا عـلى الهـواء ويركلهـا قويـة عـلى يمـين حـارس المرمـى فيشـتعل الميـدان بالـصراخ والعويـل، ولكـن الأغـرب مـن ذلـك أن «عبـدو جوطـة» لـم يجـد أي مشـقة في أن ينـسى أنـه رجـل الخـط في هـذه المبـاراة، عـاد إليه ذلـك الحنـين، لذلك وبمجـرد أن ولجـت الكـرة شـباك مرمـى «الكفـاح» مـا كان منـه إلا أن وضـع الرايـة الحمـراء بـين إبطيـه وقفـز قفـزة عاليـة، صفـق بيديـه، رقـص منتشـيًا بالهـدف، صرخ عـلى طريقتـه القديمـة نفسـها «أخ يـا الـولاد»، هكـذا وصـل «عبـدو جوطـة» إلى هـذا المصـير بعـد أن أعلـن انحيـازه في تلـك المبـاراة، وإذ إن فريـق «العاصفـة» كان منتـصرًا، إلا أن مـا فعلـه «عبـدو جوطـة» أضـاع

ذلـك الانتصـار، لذلـك فـإن الجمهـور الـذي اعتـدى عليـه لـم يكـن غـير مشـجعي فريـق «العاصفـة» الـذي عـبَّر هـو نفسـه بتلـك الطريقـة الخارجـة عـن القانـون عـن انتصـاره.

خرج الممرض من الحجرة معلنًا حالة «عبدو جوطة» قائلًا:

«الزول دا عايز نقل دم».

عصابة الدندورمة

صيف ١٩٦٧م من القرن المنصرم، وضعت أمي براد الشاي على نار المنقد وأعطتني خمسة قروش – شلن - لأذهب إلى دكان حسن حميدة كي أشتري سكرًا وشايًا وهذه اللحظة بها وثوق كامل، أن تضع أمي براد الشاي على النار منتظرة عودتي بالسكر والشاي، أنا أتحدث عن لحظة الوثوق هذي في ذلك الزمان، لأنها لحظة أطاحت بها تمامًا فكرة السبع أوقيات سكر للفرد التي تمنحها بطاقة التموين للمواطن في بدايات التسعينيات والهذيانات التي أصابت المواطن السوداني بسبب ندرة وعدم السكر في أزمنة سابقة، في الدكان قابلني زميلي في المدرسة وصديقي محمد، كان راديو الدكان وقتها يبث أغنية محمد وردي:

«جربت هواهم

وقلبي انكوى»

وما زلت كلما استمعت لهذه الأغنية أتذكر أحداث ذلك

الصباح، أغنيات كثيرة ترتبط في ذاكرتي بمواقع وأحداث وشخصيات، بينما كنت منشغلًا ومشغولًا بفهم العلاقة بين القطر والندى، لأن هنالك مقطع في الأغنية يقول:

«يا زينة حياتي

يا قطر الندى»

بينما كنت أحاول أن أوجد هذه العلاقة المستحيلة بين القطر والندى أخذني محمد على جنب وبطريقة خفية دسَّ في يدي مبلغ عشرة قروش - ريال - وذهب.

حين رجعت إلى البيت وبَّختني أمي على تأخيري، حتى إنها أنزلت البراد من على المنقد لأن الموية خست. في طريقي إلى مدرسة كادوقلي الشرقية الابتدائية انشغل ذهني بأمر تلك العشرة قروش التي دسها محمد في يدي ودون أي مناسبة، قبل إنهاء اليوم الدراسي عرفت أن محمد خصَّ آخرين غيري بهبات مالية تعدت المبلغ الذي أعطاه لي، فها هي طرادة كاملة - خمسة وعشرين قرشا - تقبع مختفية في الجيب السري في جلابية مبارك، عبد الرحمن حصل على عشرين قرشًا، آدم خلص ديونه من عوض تيه بائع حلاوة دربس ومُنِحَ طرادة أيضًا، دعك من أولئك الذين قذف محمد نحوهم بعدد من الفرينات الصغيرة - أب قرشين - هل تذكرون ذلك الفريني؟ المهم ها هو محمد يوزع القروش على من يختار من الزملاء، في حين كنت أبحث عن سر هذه الهبات المالية

المفاجئة جدًّا، مبارك كعادته يحب التآمر وملحاح في معرفة الأسرار تلك التي حتمًا سيستفيد من علائقها، موظِّفًا هذه العلائق في الحصول على منافع، أي منافع، وبسبب قدرات مبارك عرفنا أن محمد يملك كمية لا يستهان بها من المال، لم نفكر مطلقًا في الكيفية التي حصل بها محمد على ذلك المبلغ من المال، لكننا اقتربنا أكثر من محمد، التففنا حوله وحاصرناه بصحبة شبه دائمة، أنا وعبد الرحمن، مبارك طبعًا، حامد مندله، ترى أين حامد مندله الآن فقد كان يتميز برأس كبيرة وبسرعة غريبة في استخدام البكاء، التففنا حول محمد أربعتنا وتابعنا كل حركته، نوصله حتى منزله وننتظر خروجه في العصر ونحن نرابط حول منزله، اشترى لنا كرة جديدة، وزع علينا علب عسل ماركة الأسدين بعد الدافوري، تسكعنا في مقاهي ومطاعم كادوقلي، وبخاصة تلك التي بها بترينات وصواني الباسطة، وحتمًا يكون ذلك بعد خروجنا من السينما، منحنا هبات مالية تعدت مبلغ الطرادة، ذلك المبلغ المهول في ذلك الوقت، وشيئًا فشيئًا أصبحنا نتدخل في تفاصيل كل تلك الثروة التي يملكها محمد، كانت هذه الثروة مبلغَ عشرة جنيهات، أي إنها ألف قرش، وإذ كان المليم في ذلك الوقت وحدة مالية صغيرة لم تفقد قيمتها، يكون المبلغ في هذه الحالة عشرة آلاف مليم ، هي ثروة لا طائل لها كانت تحت تصرفنا نحن الخمسة، تدخلنا في أمور صرفها وبعقلية جمعية، وصلنا إلى هذا التدخل من جانبنا مستخدمين كل الأساليب بما في ذلك تخويف محمد،

كنا عصابة صغيرة نحاول السيطرة على هذه الثروة، جرجرنا محمد إلى فكرة أخرى وهي أن ندفن هذا المبلغ في مكان نعرفه كلنا، اخترنا بيتًا مهجورًا بالقرب من منزل أهل مبارك وتحت شجرة تبلدي كبيرة، دفنَّا تلك الثروة واتفقنا فيما بيننا على أن يُتصرَّف ويُصرَف بهذا المبلغ بحضورنا جميعًا، لكن يبدو أن مبارك صاحب فكرة الدفن تلك كان يخطط للانفراد بهذا المبلغ، ولكنه لم يجد فرصة، لذلك إذ كنا ندور في كل الأوقات حول تلك التبلدية، وحين ضُبِطَ مبارك وهو يحاول أن ينفرد بالمبلغ، ضبطه حامد مندلة في الساعات الأولى من الصباح، وهذا ما مكنه من اتهام حامد بأنه جاء في هذا الوقت للتبلدية للغرض نفسه، المهم أخرجنا المبلغ من الحفرة وهددنا محمد بعدم التصرف في أي مليم، نعم، أي مليم إلا بوجودنا، ذلك الوجود المفروض فرضًا على محمد صاحب هذا المبلغ الذي لم نكلف عقولنا معرفة من أين جاء به.

في الفسحة الكبيرة، فسحة الفطور، كنا نتمرد على وجبة الفطور العادية ونلوذ بمطعم «الإخلاص» بدلًا عن «حاجة آمنة» التي تبيع للتلاميذ الفطور تحت شجرة النيم الكبيرة، ودائمًا ما ينتهي بنا الأمر إلى منزل حياة الحلبية، والتي أدهشتنا وأدهشت طفولتنا تلك بنوع من المتعة، هي متعة الدندورمة، الدندورمة جعلت خطواتنا تدمن الطريق إلى بيت حياة في حي السوق، وقد جلب كل منا من منزله كباية من كبابي الشاي، تقبع هذه الكباية في شنطة الدمورية

وسـط الكراسـات والكتـب، الدندورمـة تتنـوع ألوانهـا، فهـي بيضـاء لأنهـا مـن اللـبن، وصفـراء لأنهـا مـن البرتقـال، وحمـراء لأنهـا مـن الكركـدي، وبنيـة لأنهـا مـن العرديـب، في الفسـحة الصغـيرة بعـد الحصـة الخامسـة نركـض فيهـا إلى بيـت حيـاة ونعـود والكبـابي تتلـون بألـوان الدندورمـة، ومـا ألذهـا في ظهـيرة صيـف كادوقـلي تلـك، الـتي مـن حـرارة طقسـها يحلـو للبعـض أن يحـرف اسـمها إلى «كاد يغـلي»، المهـم بـدأت ثـروة محمـد تلـك تتناقـص وتتناقـص ويـزداد التفافنـا حـول محمـد، نـدلله أحيانًـا ونخوفـه أحيانـا كثـيرة وهـو يهـرب بجبنـه ويـصرف ذلـك المبلـغ علينـا نحـن الأربعـة، في مشـاوير العصريـة إلى السـوق الـبره، حيـث نشـتري الهالـوك، نتسـكع هنـاك حـتى موعـد السـينما، وقـد نجنـح أحيانًـا ونحـاول زيـارة حـي العصاصـير، وبعـد ذلـك نحظـى بوجبـة عشـاء دسـمة غالبًـا مـا تكـون شـية السـيخ المغموسـة داخـل صحـن الشـطة بالليمـون.

وأخـيرًا اكتشـفت والـدة محمـد اختفـاء مبلـغ العـشرة جنيهـات، والـتي كانـت عبـارة عـن ختـة أو صنـدوق تشـارك فيـه عـدد مـن نسـاء حـي السـوق، وكانـت والـدة محمـد هـي أمينـة هـذا الصنـدوق، اختفـى المبلـغ مـن عـلى بـراد الصيـني الكبـير الموضـوع داخـل الفضيـة، وبعـد تحريـات قصـيرة اُكتشِـف ذلـك السـارق الصغـير وظهـرت أسـماؤنا في وقائـع الجريمـة، بعـد الضغـط عـلى محمـد ومحاولـة معرفـة أوجـه صرفـه ذلـك المبلـغ المهـول، كنـا صرفنـا مـن المبلـغ حـتى اكتشـاف الجريمـة مـا يقـترب مـن السـبعة جنيهـات.

حاصرتنا الجريمة، حاصرتنا في بيوتنا أولًا، إذ أبلغت والدة محمد كل أسرنا بهذا التعدي الجامح، طبعًا، نالت أجسامنا من السياط والضرب ما يكفي تمامًا أن نحس بمغبة هذا الفعل الناشز، ثم إن المطالبة بعودة هذا المبلغ هي مهمة يجب أن تنفذها أسرنا وقد حدث، لكن الذي حدث حين وصلت وقائع جريمتنا تلك إلى المدرسة، أُشهِرت أسماؤنا في الطابور الصباحي بعد خطبة رصينة عن مكارم الأخلاق تمتع بها إلى درجة النشوة ناظر المدرسة، بعد إشهار أسمائنا أشهرت أيضًا تلك الكبابي التي كانت تقبع بين الكراسات والكتب، عُرِفَ أمر هذه الكبابي بعد تحقيق استمرَّ ساعات في مكتب الناظر في العصر الذي سبق الطابور الصباحي، أُخرِجت تلك الكبابي من داخل شنط الدمورية، ولوَّح الناظر بها أمام كل الطابور موضحًا علاقتها بالجريمة بعد أن تهكم تمامًا بكلمة دندورمة وصرخ بعدها الناظر صرخته النهائية «أربعة كبار» وجاء الأربعة الكبار، وحُمِلَ كل منَّا بواسطتهم، وانهالت سياط الناظر على أجسادنا، لم ينتهِ الأمر إلى هذا الحد فقط، لكننا أصبحنا نأتي إلى المدرسة ويقابلنا بقية التلاميذ بهتافات مصاحبة بالصفقات «عصابة الدندورمة» ونخرج من المدرسة وليلاحقنا ذلك الوصف إلى داخل بيوتنا، طبعًا سُدِّدَ ذلك المبلغ إلى والدة محمد، ولكن بقيت تلك الوصمة المتعبة التي ظلت تلاحقنا طويلًا وتحيل كل تصرف لنا إلى هذه المرجعية «عصابة الدندورمة».

عم أحمد زايد، يحمل عقله المتداعي في قدميه

المركز الثقافي الأمريكي، أمسية من أمسية ١٩٨٠م، كان وقتها المركز الثقافي الأمريكي يجاور فندق المريديان بشارع القصر، وكنا نبدأ التسكع بمكتبة هذا المركز في العصريات، ومن ثَمَّ نتسرب إلى داخل ليل الخرطوم حين كان للخرطوم ليل استعارته الموضة كي يطلق على نوع من أنواع تلك الفساتين اللامعة التي ترقش كما ترقش أضواء الخرطوم، الخرطوم بالليل.

كنا نسكن داخلية المعهد العالي للموسيقى والمسرح في منطقة «نمرة اتنين» خلف المجمع الرياضي، في ذلك المساء داخل فناء المركز، المركز الثقافي الأمريكي، كنا نجلس، أنا ومعي الأخ الصديق والزميل عادل السعيد على كراسي الكافيتريا، لاحظ عادل السعيد وجود رجل مميز الشكل، شعره كثيف، لحيته اختلط فيها البياض بالسواد بنسبة أضافت إليه جاذبية في الوجه لا تقاوم، يرتدي بدلة كاملة من الجينز غامق الزرقة ويضع في أذنيه سماعات،

كان الرجل يبدو هادئًا، وهذا ما جعلنا نخمن أنه يستمع لنوع من كلاسيكيات الموسيقي، صديقي عادل السعيد قرر أن يتحدث مع هذا الرجل الجذاب محيلًا إياه إلى الزنوج الأمريكان، عادة ما ينجذب عادل السعيد إلى خَلق علائق وعلاقات مع الأجانب، يدفعه إلى ذلك حلم خفي وسري بالرحيل إلى عوالم جديدة، تحرك عادل السعيد نحو الرجل وجلس يحادثه، وحين أطال المكوث قررت أن أنتزعه وأحرضه على التحرك إلى سينما غرب التي استطعنا أن نداوم على دخولها ببطاقة المعهد كنوع من التميز في حقل الدراسة، وحيث اقتربت من حيث يجلس ذلك الرجل وإلى جانبه عادل السعيد شعرت أنني أعرف هذا الرجل، نعم أعرفه جيدًا، حين تأكدت من ذلك تمامًا لم أملك وقتها إلا أن أصرخ فرحًا في وجه ذلك الرجل «عم أحمد زايد؟» نظر إليَّ العم أحمد زايد نظرة اختلطت فيها المعاني وأشاح بوجهه عني في لفتة حادة تعلن نوعًا من الانزعاج وعاد ينظر إليَّ بنفس حدة تلك اللفتة نظرة حادة مباشرة داخل عيوني وبرقت عيناه بابتسامة صبوحة تقول إنه عرفني ووقف وتحرك خارجًا من المركز الثقافي الأمريكي وعادل السعيد تضج في وجهه الدهشة، لأن العم أحمد زايد تعامل معه حسب تصوره له كزنجي أمريكي وكان يحادثه بإنجليزية لم تخن مطلقًا تصور عادل له، تركت عادل السعيد مبهورًا بما حدث وركضت خلف عم أحمد زايد وأنا أصيح لعله يقف وأتمكن من محادثته ومعرفة أخباره، فعم أحمد زايد

يخصني بمعيار واعتبار.

«عم احمد زايد»

لم يتوقف كأنه لا يسمع صياحي الحميم باسمه.

«يا عم أحمد زايد، دقيقة»

لم يتوقف فهرولت نحوه وأنا أصيح باسمه دون جدوى، يبدو أنه أحس بصوت ندائي المهرول والذي تحول إلى ركض فانحرف يسارًا بعد أن تجاوز فندق المريديان، أسرعت راكضًا لكنه كان قد اختفى عني ولاذ راكضا بزقاق.

الصديق الشاعر والكاتب الدرامي المتميز محمد محي الدين في انتباهاته الدائمة للشخصيات المنفلتة لكزني بكوعه، وبخفاء مدرب كي أنتبه لتلك الشخصية التي كانت تجلس على الأرض أمام ست الشاي وتكتب بقلم أحمر على قطعة كرتون قديمة، كان الرجل يرتدي بنطالًا من الكاكي الأخضر وقميصًا من القماش نفسه مفتوح الأزرار، له لحية مميزة ويتدلى من عنقه على صدره العاري عدد متنوع من السبح، وحين اقتربنا منه مسافة تمكننا من قراءة ما يكتب وجدنا ذلك الهذيان الغريب يبين من خلال تلك الجمل التي كان يكتبها وبخط واضح وجميل، كان الرجل يكتب ودون ترابط منطقي عن ثمار الباباي وعن حزب البعث، عن أزمة الملح في جنوب السودان، عن الهجليج، عن حزب سانو، عن التلمساني، عن تفاح جبل مرة، عن اتفاقية أديس أبابا، عن

بورتسـودان وديـم جابـر، عـن الطريقـة البرهانيـة، عـن حريـق الملكيـة جوبـا، عـن سـوق أبـو جهـل بالأبيـض، عـن الصمـغ العـربي، عـن ضربـة أكوبـو، عـن زريبـة العيـش، عـن الحـزب القومـي السـوداني، وتختلـط مـع تلـك الجمـل المتداعيـة أبيـات مـن الشـعر أحيانًـا بشـطر واحـد وأحيانًـا مكتملـة، ولكـن يبـدو أن للسياسـة سـطوة عـلى هذيـان هـذا الرجـل، وحـين أمعنـت في وجـه هـذا الرجـل المتداعـي بعـد أن جلسـت بقربـه عـلى الأرض بمسـافة معقولـة وجدتـني أصيـح «عـم أحمـد زايـد؟»، ارتبـك العـم أحمـد زايـد وهـرب مـن صيحـتي وذهـب في اتجـاه لـم يختـره وصديقـي محمـد محـيي الديـن يلاحقـني بأسـئلته عـن العـم أحمـد زايـد.

كثـيرًا مـا ألتقـي عـم أحمـد زايـد وهـو مبعـثر في هذيانـه عـلى شـوارع أم درمـان، في زقاقـات حـي أبكـدوك، متناثـرًا في شـارع الأربعـين، وكلمـا ألتقيـه تجعلـني الدهشـة أختـار صيحـتي تلـك «عـم أحمـد زايـد؟» ويختـار هـو هروبـه مـني إلا فيمـا نـدر مـن حالاتـه الـتي تجعلـه يتعرفـني ويثرثـر معـي قليـلًا عـن كادوقـلي ونـاس كادوقـلي، وقـد نحـت مـن أجلهـم اسـمًا يخصـه، إذ يعرفهـم بـ «آل كادوقـلاب» وأحـس في أحاديثـه تلـك المقتضبـة والمتقافـزة بـين الأحـداث والشـخصيات بنـوع مـن ذلـك الحنـين العـارم المشـبوب لكادوقـلي الـتي خـرج منهـا وتركهـا وراءه كـشيء منـسي وقديـم وعـاد إلى حيـث أهلـه في أمدرمـان - أبكـدوك.

الأستاذ أحمد زايد، هكذا كان يتمتع بهذا اللقب الذي يشي بالاحترام بين الكادوقلاب الذين يعرفونه كمعلم ومثقف وسياسي قلق ومقلق تجول في وبين كل الأحزاب السياسية يسارها ويمينها ووسطها، طائفية كانت أو قومية أو أممية، يدخل الحزب بضجة ويخرج منه بضجة كبرى كي يدخل في حزب آخر إلى أن لاذ أخيرًا بصوفية تخصه وحده وتجعله يجمع بين كل النقائض، خرج عم أحمد زايد من كادوقلي وهو يحمل طاقة غريبة على الهذيان والذهول والتداعي إلى حيث احتملت العاصمة المثلثة بشوارعها ومقاهيها وحدائقها وأنديتها وملاهيها ومنتدياتها وندواتها خطواته تلك القلقة، كان عم أحمد زايد يخرج من حي أبكدوك راجلًا، يعبر كوبري النيل الأبيض مواصلًا سيره حتى يصل إلى كوبري النيل الأزرق، فيعبره حيث يتسكع في بحري، ومن ثَمَّ يصل أم درمان عابرًا كوبري شمبات، من الممكن جدًّا أن ينتهي به هذا التسكع إلى أن يكون واحدًا من الحضور في ندوة ثقافية في نادي الخريجين بأم درمان، كأن عم أحمد زايد يحمل عقله ذلك المتداعي في قدميه.

للأستاذ أحمد زايد فضل كبير عليَّ، كبير جدًّا ولن أنساه، وهذا الفضل هو السبب الذي يجعلني أصرخ باسمه كلما التقيته في أي منطقة من مناطق ذهوله المتعددة، بالقرب من مطعم وقهوة الإخلاص في كادوقلي فتح الأستاذ أحمد زايد مكتبة ثقافية ضخمة بزَّت مكتبة العم عابدين التي هي كشك صغير في ناصية الجامع الكبير بالقرب من موقف

اللـواري القديـم، دخلـت وأنـا تلميـذ صغـير بـدأ يتلمَّـس تغـيرات السـلم التعليمـي إلى هـذه المكتبـة وبهرتـني الكتـب بأغلفتهـا المتنوعـة وبهرتـني أكـثر مجلـدات سـوبرمان، الوطواط، الرجـل الـبرق، الرجـل العنكبـوت، طـرزان، بونانـزا، كان المجلـد الواحـد يحتـوي عـلى ١٢ عـددًا مـن المجلـة، أي أعـداد عـام كامـل للمجلـة، وحرضـني ذلـك الانبهـار عـلى محاولـة أن أسرق إحـدى تلـك المجلـدات، وحـين كنـت أظـن أنـني قـد نجحـت في محاولـتي للسرقـة وقـد بـدأت أتسـلل خـارج المكتبـة، قبـض عـليَّ الأسـتاذ أحمـد زايـد متلبسًـا وقـادني مـن يـدي إلى داخـل المكتبـة، وبـدلًا مـن أن يعاقبـني أشـهر في وجهـي ابتسـامة وقـال لي: «شـوف يـا ابـني بـدل تـسرق الكتـب والمجـلات أنـتَ تجـي تشـتغل معايـا هنـا في المكتبـة، مـش أنـت في إجـازة؟».

«بـس أبـوي مـا بيخليـني أشـتغل معـاك لأنـو أنـا دايمـا بشـتغل معاهـو في المطعـم»

«بلا مطعم بلا كلام فارغ، ارح نمشي على أبوك»

وأغلـق عـم أحمـد زايـد المكتبـة وقـادني إلى مطعـم والـدي، الـذي حـين حـاول أن يرفـض طلـب عـم أحمـد زايـد في أن أعمـل معـه في المكتبـة صرخ في وجهـه «شـوف يـا فضـل اللـه ولـدك دا حيشـتغل معـاي في المكتبـة يعـني حيشـتغل وأنـت مـا عنـدك غـير خيـار واحـد فقـط وهـو انـو أنـت تسـكت سـاكت، قدامـي يـا ولـد».

ورجـع بي الأسـتاذ أحمـد زايـد إلى المكتبـة مبـاشرة بعـد أن تـرك والـدي دون أي قـدرة عـلى الاعـتراض، فتـح أبـواب المكتبـة وفتـح أمامـي ذراعيـه مرحبًـا بي «أهـي دي الكتـب والمجـلات ـ اقـرأ قـدر مـا تقـدر، وبالمناسـبة أنـا حادفـع ليـك يوميـة طـرادة، يـلا ورينـا همتـك». مـن تلـك اللحظـة بـدأ ذهـني يتفتـح وعالمي يتسـع، وبـدأت أتلمَّـس خطـوات تطـوري في ومـع عالـم الكتـب.

قبـل رحيـل عـم أحمـد زايـد عـن الدنيـا التقيتـه وقـد كـثرت السـبح عـلى عنقـه وتنوعـت، وسـألني عـن مـاذا أعمـل، وحـين أجبتـه بأنـني أعمـل في مجـال المـسرح وأمـارس نوعًـا مـن الكتابـة الإبداعيـة أشـهر ابتسـامته النقيـة وقـال لي «يـا ابـني دا كلـو عمـل غيـبي».

قاطع الطريق الجميل

ذات خريـف، خريـف ١٩٨٦م، كنـت قـد انتميـت، وبحرفـة ذات حنـين أعرفـه، إلى رغبـة صديقـي «السـماني لـوال» في رؤيـة «منقـلا»، لذلـك حرضتـه عـلى السـفر معـي إلى كادوقـلي، فالطبيعـة هنـاك وخريـف جبـال النوبـة كفيـل جـدًّا بتقريـب صـور «منقـلا» إلى ذاكرتـه. وأغـرت فكـرتي تلـك الأخ «عبـد الله حسـب الرسـول» المعـروف بـ»عبـد الله الشـماسي» كي ينضـم إلى رحلتنـا.

طالبـت بإجـازتي - عـادة مـا أهمـل إجـازتي السـنوية لأنـي لا أتذكرهـا - وفعـل «السـماني» و»عبـد الله الشـماسي» ذلـك. وتحركنـا مـن موقـف بصـات أم درمـان - كادوقـلي بالسـوق الشـعبي بأمدرمـان. عمـي «محمـد يوسـف» انتهـز فرصـة وجـودي معـه في مكتـب الترحيـلات الـذي يملكـه، فـكال لي الكثـير مـن العتـاب واللـوم لأنـي نـادرًا مـا أزورهـم، وهـذه إحـدى عيـوبي الكثـيرة.

كانـت كردفـان تتباهـى بخريفهـا اليانـع، وكان الطريـق تطـارده الغيمـات الـتي تظللـه أحيانًـا، وأحيانًـا تغـدق عليـه مـاء السـماء، تلـك السـماء الـتي تبـدو كلوحـة تتغـير، وتتبـدل ملامحهـا بحركـة السـحب الراحلـة إلى حيـث تختفـي تدريجيًّـا حـين نصـل إلى مشـارف جنـوب كردفـان، إذ تتبـدل التربـة بدايـة من «القـردود»، وهـي تربـة خليـط بـين الرمـل والطـين، إلى أن تكون قـد أصبحت طينيـة تمامًـا حـين التوغـل في جبـال النوبـة. لا أنـسى أن رائحـة الدعـاش تـلازم الأنـوف معلنـة ذلـك الإحسـاس بالخصوبـة.

وحـين وصولنـا إلى تلـك المدينـة الصغـيرة «الدلنـج». تلـك المدينـة الـتي لا تقـاوم، قررنـا أن نمكـث فيهـا أيامًـا، خاصـة أن شـقيقتي «عوضيـة» تقيـم فيهـا، وقـد كان.

«السـماني لـوال» بـدأ يتأمـل فكـرتي تلـك عـن أن جبـال النوبـة أقـرب إلى جنـوب السـودان. «عبد الله الشـماسي» أدمـن الذهاب إلى سـوق «الـروب» بالقـرب مـن تلـك الغابـة المخـضرة، والـتي تختلـط فيهـا أشـجار المهوقـني مـع أشـجار البـان في جـيرة خـضراء الألفـة. ليـلًا تدمـن خطواتنـا لزوجـة الطـين في دروب أحيـاء «الدلنـج»، تلـك المظللـة بالغمـام دومًـا، حـي «قـوز» هـو الحـي الـذي وثـق بحميميتـه المحرضـة عـلى النشـوة، خطواتنـا عـلى دروبـه وقطاطيـه ورواكيبـه.

في تلـك الصباحـات النديـة يتلـون الفضـاء بألـوان الطيـور، تلـك الـتي تجـيء مـن أماكـن لا تعرفهـا إلا هـي. الزرازيـر الصغـيرة تتراقـص بأفـواج عـلى ذلـك الفضـاء، وتحـط عـلى قناديـل عيـش

الريف في «الجبرايك» الصغيرة في الأحياء. أذكر ذلك الصباح، الصباح الذي تميز بتلك «الشكشاكة» الخفيفة التي لا تمنع الجلوس خارج القطية. كنا في انتظار شاي الصباح، ذلك المميز في تلك المناطق بالحليب الطبيعي. وكانت تلك «الشكشاكة» قد بدأت تعلن نهاية كرنفال رذاذها الممتع.

انتبهت إلى سرب من النمل في انتظامه ذلك الكيميائي وهو ينقل حبات العيش إلى حيث مسكنه، وكان طريق ذلك السرب من النمل يمر بأعواد القنا على صريف القش، نمل يحمل حبات العيش، ونمل في الاتجاه المعاكس فارغ من تلك الحمولة، ذاهب إلى حيث جوال العيش المرمي في زاوية داخل القطية. نملة تدخل وتخرج نملة، والعيون منا الثلاثة تتابع تلك الحركة المفعمة بمعاني العمل من أجل الحياة. فجأة حط عصفور جميل، أزرق اللون، زرقة زاهية وبها لمعة، وعلى عنقه خط أحمر زاهٍ، ومنقار صغير، حطَّ ذلك العصفور الجميل بالقرب من صف ذلك النمل. نظر العصفور إلى ذلك السرب العامل، وخُيِّلَ إليَّ أنه ابتسم. ومن ثَمَّ بدأ يلتقط حبة العيش من ذلك النمل، بمنقاره يلتقط النملة بحبتها وينفضها عن قوتها ويستأثر بها، يلتقط نملة، ويفصلها عن حبة العيش، ويبتلعها، ونحن الثلاثة سكنت فينا الحركة، وقطعنا التنفس حتى نرى ذلك الفعل العدواني الغريب من طائر صغير وجميل لا يوحي شكله مطلقًا بأخلاق قطاع الطرق، ارتبك سرب النمل تجاه ذلك الفعل المعتدي، وبدأنا نلاحظ ارتباك ذلك الصف.

ورويدًا، رويدًا، وبفعل التقاط الطائر الجميل حبة العيش من ذلك النمل، توقف خط السير. وبعد أن فرَّ النمل متبعثرًا وبنظام، وكأن كل نملة حين تلتقي بنملة أخرى تبث إليها باللغة الكيميائية خطة حماية مخزونها من العيش، والطائر المتباهي بألوانه الزاهية يلاحق ما تبقى من تلك القافلة التي بدأت تختفي تدريجيًّا، حلق الطائر مبتعدًا. خيل إليَّ أيضًا أن هنالك ابتسامة على منقاره، من نوع تلك الابتسامات التي عادة ما تعلن انتصارات قطاع الطرق، لم أشاهد، يا للأسف الشديد، ابتسامات رجال النهب المسلح، وحين كنا نستعد للخروج بعد الإفطار صاح بنا «السماني لوال»: «يا مونج تعال شوف»!

ورأينا فعلًا ما يبعث على الإعجاب، رأينا إصرار ذلك النمل على الحياة، رأينا سرب النمال ذاك وقد غير اتجاه سير قافلته حاملًا حبات العيش، وقد اختار طريقًا طويلًا إلى مسكنه، يبدأ بالخروج من باب القطية، محتميًا بجدارها الطيني، وقد كان خروج تلك القافلة سابقًا يتخذ الطرف الأيمن من باب القطية، ويتحرك حتى الصعود على أعواد قنا الصريف، ومن ثَمَّ ينزل عنها إلى حيث مسكنه. أما هذه المرة فالقافلة تخرج من الطرف الأيسر للباب - باب القطية - ومن ثَمَّ تدور محاذية الجدار، وتنحرف مع الجدار الأيسر، ثم تنحرف مع الجدار الخلفي للقطية، وتصعد إلى أعواد القنا محتاطة بحذر له عمق هذه التجربة حتى تُدخَل حبات العيش إلى مسكنها. هكذا حتى النمال تتعلم ذلك

الحـذر مـن مغبـة أن تفقـد حبـة العيـش. وذكـرت «السـماني» و«عبـد الله الشـماسي» بتلـك القصـة القصـيرة جـدًّا للقـاص المتأمـل «صـلاح حسـن أحمـد». «دخلـت نملـة وأخـذت حبـة وخرجـت، وجـاءت نملـة وأخـذت حبـة وخرجـت جـاءت أخـرى أخـذت حبـة وخرجـت، جـاءت نملـة أخـذت حبـة وخرجـت، إلى أن جـاءت نملـة عميـاء أخطـأت المدخـل فتبعهـا الباقـون»، وهكـذا أضاعـت تلـك النملـة العميـاء حيـاة النمـل؛ تـرى هـل بالإمـكان البحـث في ممارسـات السياسـة السـودانية عـن تلـك «النملـة العميـاء»؟!

كادوقـلي احتوتنـا بخريفهـا المـترع، صعدنـا جبالهـا، تجولنـا في وادي «لوفـو»، ذلـك الـوادي بـين الجبـال الـتي تقـع خلـف «قعـر الحجـر». «السـماني لـوال» يسـتحم عـلى شـلال «كِلـبي» و«الشـماسي» يكتـب برنامـج النشـوة عـلى ذاكرتـه فيعـرف ظهيرة الثلاثـاء مـع «حكومـة» وظهـيرة الأربعـاء مـع «كنتوشـة» وذلـك بخـبرة قديمـة مـع الأنـادي، كان الشـماسي يتحسـس خطـوات المسـاء المقبـل فسربـت إليـه نسـمة مشاكسـة صـوت دلوكـة تنبعـث مـن حـي «الرديـف»، بأصـوات ذات لكنـة محببـة تغـني:

«يا غيمة امشي ديارا

ما تقيفي زي محتارة

كان جبتي لينا إشارة

هاك ديل قلوبنا بشارة»!

فانسجمت خطواته مع عذوبة الأصوات وذهب نحوها وهو يلوي على شيء

«السماني لوال» يرقص «الكرنق» على قمر يجادل فسحة السلخانة بحي «قعر الحجر»، ويحمل تفاصيل الرقصة في ذاكرته الإبداعية كي ينفذها مع فرقة الفنون الشعبية، ترى هل تركوك تفعل ذلك يا «مونج»؟!

صفا - انتباه

دخـل حامـد مكتـب الناظـر، ناظـر المدرسـة الثانويـة العامـة «ج»، دخـل بعـد أن طـرق البـاب عـدة مـرات، وحـين قـرر أن يرجـع سـمع صـوت الناظـر يقـول «اتفضـل».

دخـل «حامـد» والحـيرة تحتـل خطواتـه، وجـلًا، خائفًـا، وقـف أمـام الناظـر الـذي كان مسـتغرقًا في تصحيـح الكراسـات الـتي أمامـه، وهـذا مـا جعـل حامـد يخمـن مـا هـو موضـوع الناظـر، مـن تحـت نظارتـه السـميكة شـمل الناظـر حامـد بنظـرة سريعة.

- أيوه، في شنو؟

- أنا حامد، حامد محمود.

- أيوه يا حامد، في شنو؟

- ما أنت رسلت لي!

- آآ، أنت حامد؟

- أيوه يا أستاذ.

- حامد أنت بتسف تمباك؟

- أنا؟ ، يا أستاذ، أبدًا، ما بسف.

وقـف الناظـر كالملـدوغ، بعـثر الكراسـات الـتي أمامـه، في حـين كان حامـد يرتجـف مـن الخـوف، أخـذ الناظـر إحـدى الكراسـات، لـوح بـه أمـام حامـد قائـلًا- دا كراسـك ولا لا؟

نظر حامد إلى الكراس وأجاب بصوت بعيد: نعم يا أستاذ.

- طيـب، تعـال، قـرب هنـا، شـوف دا شـنو، البقعـة دي شـنو؟ كاسـتر يعـني؟ دي مـش بقعـة تمبـاك؟ كمـان مـا خايـف، تمسـح السـفه في كـراس الحسـاب؟ يعـني دايـر تثبـت إنـك صعلـوك ولا شـنو؟

أمـام هـذا الإثبـات الدامـغ لـم يحـاول حامـد أن يسـتنكر هـذه التهمـة، لذلـك حـين وضـع الناظـر نظارتـه عـلى المكتـب بانتصـار واضـح وأخـرج عينيـه بطريقـة بوليسـية أمـام وجـه حامـد وصرخ فيـه: «أنـت بتسـف تمبـاك؟»

لـم يملـك حامـد إلا أن يجيـب وباستسـلام شـديد: «أي يـا أسـتاذ، بسـف تمبـاك».

- أيوه، أحسن تعترف.

بانفعـال واضـح فتـح الناظـر الـدولاب، أخـرج سـوط العنـج المشـهور واتجـه نحـو حامـد الـذي أيقـن تمامًـا أنـه في مصيـدة

ولا فكاك، لذلك انحني ممسكًا أقرب كرسي وأغمض عينيه استعدادًا لتحمل لسعات السوط، رفع الناظر السوط إلى أعلى وحين هم بإنزال أول ضربة على جسد حامد، برقت منه العيون وتوقف عن ذلك، نظر إلى حامد المنحني على الكرسي، رجع إلى المكتب، ازداد بريق العيون، نظر إلى حامد الذي تشنجت أعصابه أكثر بسبب انتظاره الذي طال لأول ضربة من ذلك السوط الشهير.

- تعال هنا

صرخ الناظر، ازداد خوف حامد أكثر لجهله بخطوة الناظر القادمة، اقترب من المكتب، نظر إليه الناظر بذلك البريق:

- حامد.

- أيوه يا أستاذ؟

- طبعًا، بتعرف كل الطلبة البسفو تمباك.

- والله يا أستاذ...

- ما عايز كلام كتير، بتعرفهم ولا ما بيتعرفهم؟

- بعرفهم يا أستاذ.

- بس خلاص، بكره في الطابور تطلعهم لي كلهم، مفهوم؟

- مفهوم يا أستاذ.

-عشان كده أنا بطلت أجلدك.

-.. ....

صمت حامد وهو يحس بصعوبة المهمة

- بكرة في الطابور، كلهم، اوعك تنسى زول، مفهوم؟

- مفهوم يا أستاذ.

- خلاص امشِ.

خرج حامد وابتسم الناظر بخبث شديد قبل أن يستغرق في عملية التصحيح، رجع حامد ليقول: يا أستاذ، بس بكرة الجمعة.

- خلاص يوم السبت يا غبي، تعال هنا، الموضوع دا سري جدًّا، اوعك تقول لي زول، مفهوم؟

خرج حامد من المكتب وخطواته تنوء بعبء تلك المهمة السرية الخطيرة.

عباس التوم، ناظر المدرسة الثانوية العامة «ج» مثار اهتمام الطلاب بسبب تصرفاته الغريبة، متقلب المزاج، يظهر ذلك في لبسه قبل تصرفاته، صاحب صوت جهوري وله همس مميز حين يرغب في ذلك، مهاب جدًّا ولكن لا تمنع تلك الهيبة من أن يكون موضوع نكات الطلاب، حين يضحك يضحك بعمق، وحين يغضب يرتجف من الغضب،

لكـن، يجهـل الجميـع مـا يضحكـه ومـا يغضبـه، كتلـة مـن النشـاط والحيويـة، يفعـل كل ذلـك باسـتغراق كلي يجعلـه ينـسى كل التفاصيـل، يـدرس مـادتي الإنجلـيزي والرياضيـات بمتعـة يحسـها الطـلاب ويفرحـون بهـا، حـدث مـرة أنـه كان يـدرس الرياضيـات للصـف الثـاني، وإذ إنـه كان مسـتغرقًا في عمليـة التدريـس، كان يكتـب المسـائل الحسـابية ويحلهـا عـلى السـبورة بمتعـة متناهيـة، وحـين امتـلأت السـبورة تمامًـا لـم يفكـر مطلقًا في مسـحها، بـل اسـتمر بـكل ذلـك الاسـتغراق يكتـب بالطباشـير عـلى الحائـط القريـب مـن السـبورة، واسـتمرَّ يكتـب عـلى الحائـط وسـط همهمـات الطـلاب الضاحكـة، عـادة مـا يخلـع الأسـتاذ عبـاس التـوم حـذاءه حـين يبـدأ الحصـة، وعـادة مـا يخـرج مـن الفصـل حافيًـا، حينهـا يتخاطـف الطلبـة الحـذاء كي يحمـل إليـه في مكتبـه تعبـيرًا عـن الحميميـة تجاهـه، حـدث أن حمـل أحـد الطلبـة الفـردة اليمـين مـن الحـذاء وهـرول بهـا إلى مكتبـه، وحمـل طالـب آخـر الفـردة اليسـار وهـرول بهـا نحـو المكتـب أيضًـا، وحـين وصـل الحـذاء إلى مكتـب الناظـر عبـاس التـوم بتلـك الطريقـة، اسـتنكر الأمـر تمامًـا وأخـرج سـوط العنـج مـن الـدولاب وجلـد الطالبـين بعـد أن أوضـح سـبب العقوبـة قائـلًا: «مـا في جزمـة بشـيلوها نفريـن، دا خطـأ في التـصرف، مـا في علاقـة بـين الجهـد والفعـل».

يقـال إن السـبب في تصرفـات وشـطحات الأسـتاذ عبـاس التـوم الـتي تقـترب مـن الجنـون هـو أنـه نجـا مـن المـوت بأعجوبـة لا تعـزى إلا إلى الأقـدار، كان ذلـك إبـان التمـرد في الجنـوب

في الستينيات، إذ حُرِقَ ميز المدرسين في «أكوبو» ومات كل المدرسين ما عدا الأستاذ عباس التوم المستغرق الآن حتى الجنون في كل ما يفعله.

تسلل حميدان ومجدي من حصة المذاكرة في ذلك المساء عن طريق فتحة في سور السلك الشائك البعيد عن الفصول، كانت تلك التسللات ذات تراكم في النجاح، ولكن من سوء حظ حميدان ومجدي أن اكتشف الناظر عباس التوم تلك الفتحة مصادفة حين كان يركض مستغرقًا وراء عدد من الأغنام التي دخلت حوش المدرسة عن طريق تلك الفتحة، لذلك وضع عباس التوم تلك الفتحة تحت المراقبة وهكذا، تسلل مجدي وحميدان في ذلك المساء وعيون الناظر قد احتلها ذلك البريق وتحرك من مكانه لمتابعتهما، وبكل ذلك الاستغراق تسلل مثلهما عبر الفتحة نفسها، حرص على متابعتهما من بعيد، كان حميدان ومجدي يتجهان نحو السينما التي تعرض فيلم «جانوار» مرًّا بالسوق والناظر عباس التوم يتبعهما من بعيد، تجاوزا «حي السوق» والناظر مستمر في المتابعة، «زريبة العيش» متابعة الناظر مستمرة، «سوق الرواكيب» يحافظ الناظر على المسافة المعقولة، تجاوزا الفسحة بين موقف البصات واللواري والسينما، وقفا في صف التذاكر، وقف الناظر في الصف خلفهما حريصًا كل الحرص على عدم اكتشافه، دخل مجدي وحميدان السينما، دخل بعدهما الناظر عباس التوم، كانت المناظر قبل الفيلم قد بدأت، وسط تلك

العتمة كان الناظر يبحث بين المقاعد عن حميدان ومجدي مثيرَي الكثير من المشكلات مع رواد درجة «الشعب»، أخيرًا وجد الناظر عباس التوم حميدان ومجدي واقتلعهما من تلك المتعة التي هربا من أجلها وخرج بهما خارج السينما، يقودهما أمامه صامتين، في حين استغرق الناظر يحكي عن أعظم فيلم شاهده وهو «سقوط الإمبراطورية الرومانية» وحين وصل الناظر ومعه الرهينتان إلى المدرسة كانت حصة المذاكرة قد انتهت وأطفئت أنوار المدرسة، حينها نظر الناظر عباس التوم إلى حميدان ومجدي قائلًا: «معليش يا شباب يوم الجمعة أنا عازمكم سينما».

في إحدى الصباحات خرجت المدرسة الثانوية العامة «ج» مشاركة في مظاهرات الطلاب بمختلف المراحل الدراسية، في ذلك الصباح دخل الأستاذ عباس التوم الفصل الأول ليدرس حصة الإنجليزي حسب الجدول الموضوع، وجد الفصل خاليًا إلا من ثلاثة طلاب، كان الناظر عباس التوم يعلم بأمر المظاهرات، نظر إلى الثلاثة طلاب المتخاذلين عن بقية زملائهم وشعر بالاشمئزاز وصرخ فيهم: وانتو مالكم؟ مكسرين. مالكم ما طلعتو مع زملاكم، خايفين؟

رد أحد المتخاذلين وبصوت متمكن من منطقه:

- يا أستاذ نحن دايرين نقرأ بس، ما لنا ومال المظاهرات.

عندها ارتجف عباس التوم من الغضب ونادى الخفير الذي

أسرع وأحضر سوط العنج، وبانفعال واضح أغلق الناظر كل الشبابيك وباب الفصل بإحكام وصرخ في أولئك المتخاذلين: «الليلة أنا حاوريكم القراية أم دق يا جبانات».

وكانت معركة نموذجية تحكى دائمًا حين يتحدث المتحدثون عن شخصية الأستاذ عباس التوم.

يوم السبت، الطابور الصباحي، الناظر عباس التوم يقف على دكة عالية، يبدو أنيقا هذا الصباح، انتهت الأصوات التي تنادي بأسماء الطلاب للتأكد من الحضور والغياب.

- صفا، انتباه، صفا، انتباه.

من تلك الدكة العالية جاء صوت الناظر، تحدث عن النظام والضبط والربط وعن الأخلاق الحميدة، بعدها برقت منه العيون وقال:

- أنا عارف إنو في بعض الطلبة بيسفو تمباك والليلة هنا وفي الطابور دا حنطلعهم واحد واحد.

أحد الطلبة لكز زميلًا بجانبه مشيرًا إلى «حقة» هي علبة بحاري كانت لتباكو تقبع مشكلة دائرتها في جيب بنطال الناظر.

- زميلكم حامد محمود حيتولى هذه المهمة، حامد محمود، تعال هنا.

جاء حامد محمود يتصبب منه العرق، وقف أمام الناظر، همس الناظر في أذنه، تحرك حامد نحو الطابور، وإذ إن الطابور يتشكل من ثلاثة فصول يقف كل فصل على طريقة صف في الأمام وصف في الخلف، لذلك كان خط سير حامد بين الصفين الخلفي والأمامي.

تحرك حامد بين صفي الفصل الأول، مر حامد بين الصفين، في مروره ذاك همس متعاطو التمباك بأصوات تدين هذا السلوك:

- خلي عندك ذوق يا حامد.

حامد مستمر في مروره.

- ما معقول يا حامد.

قالها أحد الطلبة في الصف الأمامي دون أن يلتفت إلى الوراء

حامد يتصبب منه العرق ويحس بالانهيار.

- تكون بالغت يا حامد.

خرج حامد من صفي الفصل الأول دون أن يعلن أحدًا، في مروره بين صفي الفصل الثاني تكررت تلك النداءات الهامسة والزاجرة تدين وتشجب مبدأ الخيانة، خرج حامد من صفي الفصل الثاني دون أن يشير إلى أحد، في صفي الفصل الثالث تضخمت كذلك نداءات الزملاء في أذن حامد بحيث لم

يستطع أن يـؤدي تلـك المهمـة الـتي أوكلهـا إليـه الناظـر، خـرج حامـد مـن الطابـور دون أن يعلـن متعاطيًـا واحـدًا للتمبـاك، تحـرك نحـو الناظـر الـذي يقـف عـلى تلـك الدكـة العاليـة، اقـترب مـن الناظـر بحـذر وقـال بصـوت مخنـوق: مـا في زول بسـف يـا أسـتاذ.

عندهـا صرخ الناظـر عبـاس التـوم بـكل فـرح الدنيـا لتشـمل الدهشـة عقـول الجميـع.

- برافـو، برافـو يـا ابـني، أنـت رفضـت الخيانـة، برافـو، برافـو يـا ابني.

واحتضـن الناظـر عبـاس التـوم الطالـب حامـد محـود حضنًـا حميميًّـا وضـج الطابـور بالفـرح وتعالـت الضحـكات، عندهـا انتبـه الناظـر لتلـك الفـوضى وصرخ في الطابـور:

- صفاء انتباه، صفاء انتباه.

محمد علي حمامة

سقط مني كتاب «التعذيب في السودان» الذي أصدرته منظمة ضحايا التعذيب بالقاهرة، سقط مني الكتاب بعد أن ارتعشت أصابعي مستجيبة لهزة عنيفة في دواخلي، كان ذلك في أوائل أبريل ١٩٩٥م تاريخ قدومي إلى القاهرة وكنت مستضافًا مع الإخوة الأستاذ عبد الرحمن الزين المحامي، والأخ الصديق علي العوض الذي يستحق تمامًا لقب عمدة، والأخ الصديق عبد الله عبد الوهاب «كارلوس» في شقة بأرض الجولف على شارع حسن أفلاطون، كانت الشقة هي مكتب منظمة ضحايا التعذيب، صدمني ذلك الكتاب وأنا أقرا فيه عن زميل دراستي «رمضان» لاعب مريخ كادوقلي المعروف، قيل إنه مات مقتولًا برصاص الاستخبارات العسكرية بكادوقلي وكنت أعرف قبلها أن الصديق «إبراهيم مرمطون» لاعب هلال كادوقلي ذلك المتفق عليه بالحب من جميع أهالي كادوقلي قد صُفِّيَ، وقد كنت كتبت عن ذلك، «نصرالدين جكسا» مدرب كرة القدم واشتهر بتدريب فريق

الشبيبة، ضاعت حياته في هذيان غريب اختار له بعض المغرضين اسم «نحن كادوقلي» وهذا موضوع آخر، المهم هنا أن «نصرالدين جكسا» قد صُفِّيَ من قبل الاستخبارات العسكرية في زمن الديمقراطية الثالثة، ترى لماذا تتساوى مآسينا بهذا الشكل المتجاوز دائمًا لنوع الحكم؟

في الكتاب قائمة من أسماء أعرفها ولا أعرفها ولكني أذكر مساء ذلك اليوم الذي قرأت فيه اسم «محمد علي» من ضمن قائمة هؤلاء الموتى الذين في الغالب لم تحظ أسرهم بدفنهم، لأنهم يذهبون ولا يرجعون، هكذا يختفون من على وجه البسيطة وتبقى الحسرة أزلية الوجود في وجدان أهلهم، حكى لي أحد الأصدقاء وهو زميل دراسة بكادوقلي، وأحد الناشطين السياسيين، أن هنالك منطقة تقع جنوب حي «أم بطاح» أو تحديدًا جنوب حامية كادوقلي العسكرية تُدفَن فيها جثث هؤلاء الموتى، كم كان «جيمس» لاعب هلال كادوقلي محظوظًا، إذ إنه دفن في نادي الهلال، كان «جيمس» من أبناء جنوب السودان، كان لاعبًا ماهرًا وصانع ألعاب لا يضاهى، ولولاه ما كان لـ «جلال كادوقلي» لاعب هلال كادوقلي وهلال العاصمة ذلك الصيت وتلك الشهرة، «جيمس» صُفِّيَ ليلًا في حي «كليمو» حيث كان يسكن من قبل أحد أفراد الاستخبارات العسكرية لأسباب خاصة تتعلق بنوع من ذلك الحقد إثر منافسة عاطفية، لكن هذا السبب قد حُوِّلَ إلى سبب سياسي يبيح ممارسة التصفية وهو أن «جيمس» يتعامل مع الخوارج - طابور خامس -

خاصة أن «جيمس» من جنوب السودان، دائمًا حين أتأمل كلمة - خوارج- أحس بأن السودان قد أُحيل زمانيًا ومكانيًا إلى وضع آخر لا يتعلق إلا بوسواس هؤلاء المتنطعين، أرجو أن نتذكر أول من أطلق على مقاتلي الحركة الشعبية هذه الصفة «خوارج»، ألاحظ أن أغلب هؤلاء الموتى الذين أتحدث عنهم من الرياضيين، «رمضان» لاعب المريخ، «نصر الدين جكسا» مدرب كرة القدم، «إبراهيم مرمطون» لاعب الهلال، «جيمس» لاعب الهلال وكلهم صُفُّوا بالإحالة إلى تلك التهمة، وقد يضاف إليها ذلك البعد العنصري الذي أعرف تمامًا أنهم لا يشبهون هذه الصفة - عنصري - أنا أعرفهم، أعرفهم تمامًا، أعرفهم كما أعرف أن هذا الدمع دمعي، أعرفهم وأحس بذلك الخبث المدسوس في نوايا من أهدروا حياتهم.

لم أكن أعرف أن بين هؤلاء الموتى «محمد علي»، أو حمامة كما يفضل جمهور كرة القدم بكادوقلي أن ينادوه، «محمد علي»، حمامة الذي كان يعمل في السلك الكتابي في مدرسة كادوقلي الثانوية العليا - «تلو»، «محمد علي حمامة» ذلك الرياضي المطبوع الذي يملك جسدًا مرنًا يتحكم فيه حد أن يشكل به مشية العقرب، ما زلت أذكر دهشتنا الطفولية ونحن نتابع حركات «محمد علي حمامة» الرياضية في ميدان الحرية في المناسبات العامة، على ميادين المدارس في احتفالاتها وكرنفالاتها الرياضية، أينما يكون «محمد علي حمامة» يكون هنالك هذا الكرنفال الجسدي الذي يجترحه

في المكان، يمارس «محمد علي حمامه» أنواعًا مختلفة من الألعاب الرياضية، الجمباز، اللعب على الحصان المتوازي، القفز العالي، الكرة الطائرة، الباسكت، كان «محمد علي حمامة» يعمل أولًا في مدرسة كادوقلي الثانوية العامة «أ» وقد انتقل إلى الثانوية العليا «تلو» بعد أن ترك بصماته الرياضية على رياضيين ممتازين أشهرهم «نجيب إسماعيل بكر» أو «راس كديس» حارس مرمى الأهلي واللاعب صاحب مزية اللعب في كل الخانات وغيره، لم يكن «محمد علي حمامة» مجرد موظف في السلك الكتابي، لكنه كان ممتدًّا ومنتشرًا وسط الطلاب من خلال الرياضة، كان يدرب فريق المدرسة لكرة القدم وألعاب القوى المختلفة، يهتم اهتمامًا خاصًّا بحراس المرمي، إذ إنه كان من أكثر حراس المرمي تميزًا، وقتها كان يحرس مرمي نادي الهلال ولسنين طويلة، له علائق حميمة مع الطلاب، «محمد علي حمامة» نموذج حقيقي للرياضي الكامل المواهب، ويبدو أن صفة الرياضي قد مكنته من سلوك رفيع وأخلاق حميدة تستطيع أن تهزم تمامًا هؤلاء الذين أهدروا حياته، يتحدث «محمد علي حمامة» إليك وبالكاد تسمع صوته الهادئ، متزن التصرفات، لا يستطيع أن يتشنج أبدًا، له تلك الروح الشفيفة التي حتمًا صهرتها وجملتها ممارسة الرياضة، محبوبًا كان «محمد علي حمامه» لدى أهالي كادوقلي، كان واحدًا من اهم نجوم المدينة، لا سيما وهو الذي يهدي المدينة دائمًا تابلوهاته الرياضية الساحرة.

ها هو «محمد علي حمامه» وأنا أقرأ اسمه ضمن قائمة أولئك الموتى، الموتى الذين بلا قبور، حتمًا هذا النوع من الموتى يستطيع تمامًا أن يهدينا القدرة على رؤية قاتليهم وهم يمرحون زيفًا في فساد الحياة.

شكوى مضادة

ارتبك تمرين الفريق الأول في ذلك العصر حين مرت «شادية» و«عفاف» بميدان المدرسة الشرقية الابتدائية، توقف اللعب تمامًا، همد الحماس في اللاعبين، تخلى أستاذ الرياضة عن قيادة التمرين، هكذا حين مرت «شادية « و«عفاف» أمام الميدان كف الجميع عن كل شيء، تخلى المتفرجون من التلاميذ عن حيويتهم، هرول بعض أولئك الذين في الفصول نحو أقرب النقاط إلى موقع الحدث.

كانت «شادية» ترتدي فستانًا أخضر – أخضر زرعي – كانت سمراء، كانت حين تمشي يعلن شعرها أطول «ضنب حصان «على الإطلاق، عادة ما يصرخ أستاذ «عووضة « حين يراها: «يا أرض احفظي ما عليكِ» يصرخ هكذا متخليًا عن صرامته أمام التلاميذ، عادة ما ترقص «عفاف» حين تمشي وأحيانًا كثيرة تمارس ذلك التقافز السريع على الشارع..

في ذلك العصر الذي ارتبك فيه تمرين الفريق الأول، كانت

«عفاف» تعزق في البمبي، وتتأرجح من رأسها ضفيرتان تمران عبر عنقها الطويل، ضفيرة ترتمي على الصدر وضفيرة تتراقص على الظهر، قمحية اللون، حين تراها تعرف أنها قد بدأت تتحسس أنوثتها. «عفاف» و«شادية» تلميذتان في الصف السادس الابتدائي في مدرسة البندر، من بنات حي الموظفين.

الكرة تمر من قدم إلى قدم في حركة خالية من الحماس، أستاذ «عووضة » تحرك من وسط الملعب نحو الشارع الذي احتفى بمرور «عفاف» و«شادية» تناثر أولئك التلاميذ في كل زوايا الشارع، اقترب أستاذ «عووضة» أكثر من الشارع متحركًا في زاوية تسمح له بالتظاهر بقيادة الفريق «شادية» و» عفاف» تتقاسمان أحداث ذلك الفرح، منافسة شريفة بينهما لا تنتصر فيها إحداهن على الأخرى، العيون التي تحملق إليهما تعجز تمامًا عن رؤية الواحدة دون الأخرى، هكذا دفقة من الجمال لا تقبل الانشطارات، دفقة واحدة من الألق ترفض أن تتجزأ ولا تقبل الانقسام، يشع منهما الجمال أكثر حين تكتشفان ذلك الكرنفال من الاهتمام، تلك اللهفة في عيون التلاميذ، الأستاذ «عووضة» صرخ كالممسوس، كالدراويش حين ينجذبون» «يا أرض احفظي ما عليك» عاد الأستاذ «عووضة» إلى صرامته الرياضية حين ردَّد بعده مباشرة ذلك التلميذ الذي كان قريبًا منه: «يا بدر اوعك تسحرو» سرعان ما عاد إلى شخصيته بصفارة طويلة وركض نحو الميدان ولم يستعد التمرين حيويته إلا حين

تـوارت «شـادية» و«عفـاف» عـن الأنظـار متجهـين إلى حـي السـوق.

تـسرب التلاميـذ إلى الشـارع الـذي يمـر بالمدرسـة يـؤدي إلى حـي السـوق متابعـين ذلـك الكرنفـال الجميـل، يتمـادى البعـض منهـم ويلاحـق «عفـاف» و«شـادية» يصفـر يعلـن الابتهـاج، لا يتـوانى البعـض عـن الصيـاح، تجـرأ أحـد التلاميـذ واسـتطاع أن يسـلم عليهمـا ورجـع إلى البقيـة معلنًـا انتصـاره، تحلَّـق حولـه الزمـلاء يشـمون مـا تعلـق مـن عطـر عـلي كفـه، حـين اختفـت «عفـاف» و«شـادية» بـين أزقـة حـي السـوق، وبعـد أن رجـع أولئـك التلاميـذ إلى مـا كانـوا عليـه.. تسـلل «عطـا» مسرعًـا قبـل غـروب الشـمس، قبـل أن تمنعـه عتمـة المسـاء ممـا أراد أن يفعـل، وقـف هنـاك، أخـرج مـن شـنطة الدموريـة ورقتـين مـن كـراس، لـفَّ الأولى كقرطـاس، انحـنى نحـو الأرض حيـث أثـار أقـدام «عفـاف» و«شـادية» لـم يكـن متأكـدًا مـن أن هـذا حـذاء «شـادية» وذاك حـذاء «عفـاف»، وقـف محتـارًا أمـام آثـار أحذيتهمـا عـلى الأرض، لذلـك وبعنايـة شـديدة وبحـرص عاطفـي عميـق، خمـش «عطـا» أثـر الحـذاء عـلى الأرض، الـذي عـلى يمينـه، تحـول ذلـك الأثـر عـلي رمـال داخـل القرطـاس، لـف الورقـة الأخـرى قرطاسًـا والعنايـة بنفسـها والحـرص بنفسـه قبعـت تلـك الرمـال الـتي عليهـا آثـار الحـذاء الـذي عـلى يسـاره داخـل القرطـاس الآخـر، تحسـس «عطـا» القرطاسـين بآهـة عميقـة ووضعهمـا داخـل شـنطة الدموريـة.

في الحصة الرابعة وفي نهايتها دخل عم «البلة» إلى الفصل السادس، تحدث مع أستاذ الجغرافيا، التفت الأستاذ إلى تلاميذ الفصل وصاح مناديًا:

«عبد الله محمد حامد»

«نعم»

«الناظر عايزك»

تحرك «عبد الله» مرعوبًا من مكانه، تابعته عيون بقية تلاميذ الفصل وهو خارج وهي خائفة من هذا المصير، مصير أن يستدعيك الناظر.

في عودتهم من السوق «البرة» إلى المدرسة كان بعض التلاميذ يتساءلون عن سبب استدعاء الناظر لـ «عبد الله» يتبرع «عبد الرحمن» بالإجابة على هذا السؤال بعد أن نزع قشرة «الهالوك» الخارجية، قال عبد الرحمن: «ورطة كبيرة عبد الرحمن بكرة لازم يجيب ولي أمرو، أصلو ستونة، ستونة بتعرفوها البت الكانت بتعمل المنلوج بتاع السكر – السكر» – «أيوا – السكر – السكر كبير صغير ما بذكر من الصباح إلا السكر، أها مالا؟» – «قامت ستونة كتبت جواب لي عبد الله وبعدين نست، أصلو الجواب كان في كراس الحساب، أها قامت نست وجمعت كراس الحساب، كراس الحساب وقع في يد ست «منى» قامت قرت جواب ستونة لعبد الله، قامت رسلت الجواب للناظر، طبعًا» بتكون زرزرت ستونة،

الجـواب وصـل إلى الناظـر قبيـل عشـان كـده عبـد الله مـورط مـورط، سـت «مـنى» دي بتاعـت مشـاكل».

قبـل الطابـور الصباحـي اقـترب «راشـد» مـن «عطـا» بدراجتـه، كان «عطـا» يجلـس تحـت شـجرة النيـم الـتي تتوسـط فنـاء المدرسـة، نـزل «راشـد» مـن دراجتـه واقـترب مـن «عطـا» قائـلًا: «عنـدي ليـك سر رهيـب»

- سر، سر شنو؟

- أنا حاكلمك، بس ما تقول لزول

- كدي في الأول أديني سحبة في العجلة دي

- جدًّا

دار «عطـا» بعجلـة «راشـد» حـول المدرسـة مسـتغلًّا حاجـة «راشـد» إليـه «راشـد» مـن أولاد الموظفـين، يشـغل والـده منصبًـا رفيعًـا في المجلـس البلـدي، لحـق «راشـد» بـ «عطـا» كان متلهفًـا أن يقـول مـا لديـه، مـا زال «عطـا» عـلى الدراجـة بينمـا «راشـد» بقـول: - شـايف الـزرارة دي، الـزرارة دي تعـرف الخيطـا في القميـص دا منـو؟

- منو يعني؟

- اوعك تقول لزول – خيطتا شادية.

- شادية؟

- أيـوا شـادية، أقـول ليـك مفاجـأة تانيـة، شـايف المنديـل دا، لاحـظ معـاي، عليك الله يـا «عطـا» الـكلام دا سر، المنديـل دا، تعـرف المنديـل دا هديـة مـن منـو؟

- من شادية برضو؟

- لا، من عفاف.

- عفاف؟

- أيوه ما أصلهم الاتنين متنافسات فيني.

نـزل «عطـا» عـن الدراجـة وتحسـس القرطاسـين اللذيـن يقبعـان داخـل شـنطة الدموريـة، ضرب جـرس الطابـور فهـرول الجميـع نحـو فنـاء المدرسـة.

تجمهـر تلاميـذ الصـف السـادس أمـام الشـبابيك المطلـة عـلى مكاتــب المدرســين وهــم يتابعــون «عبــد الله» ومعــه والــده «محمـد حامـد» يدخـلان إلى مكتـب الناظـر.

داخـل مكتـب الناظـر، جلـس «عبـد الله» منزويًـا، أشـعل والـده سـيجارة، أخـذ ينفـخ دخانهـا بضيـق وتـبرم واضحـين، نظـر الناظـر إلى «عبـد الله» قائـلًا: «كلـم أبـوك، قـول ليهـو عملـت شـنو». هـز «عبـد الله» رأسـه بالنفـي.

- قــل لي أبــوك أنــت ســويت شــنو. «عبــد الله لا يســتطيع الـكلام».

- قل ليهو ما تتبكم.

وهنا تدخل الوالد «محمد حامد» قائلًا: «يا أستاذ أنا ما فاضي نحن بنقرش في المواهي فأرجوك اختصر المسألة وخش في الموضوع»

- ولدك دا آفة .

- كيف يعني؟

- تتصور بحب.

- بحب؟

- تخيل بحب «

- طيب ما يحب، دي فيها شنو؟ «وتململ عبد الله على مقعده».

- كيف يعني فيها شنو؟ أنا ضبطت جواب من ليهو، بتقول ليهو في كلام غريب – أهو دا الجواب، اسمع البت دي بتقول لي ولدك شنو.

- أنا ما داير أسمع، وبعدين ياخ ما تكتب لي جواب فيها شنو يعني، البت أعجبت بيهو، حبتو، دي جناية دي؟

انتبه الناظر لمنطق والد التلميذ، أحس بأن هناك بوادر مشكلة، قرر أن يبعد التلميذ، صاح في «عبد الله»: «امشي اقف برا لحدي ما أناديك». خرج «عبد الله» من المكتب، وسمع أولئك التلاميذ الذين على الشبابيك والذين هم في داخل الفصول القريبة من مكتب الناظر سمعوا الناظر يصرخ في وجه «محمد حامد» والد التلميذ العاشق الذي أصر أن فعل الحب خارج أن ينظر إليه من ضمن الممنوعات.

دخل الناظر الفصل السادس يتبعه «عبد الله» وقف أمام التلاميذ، تحدث عن «عبد الله» و«ستونة» تحدث عن التربية والأخلاق، ومدفوعًا بغضب من والد التلميذ، ذلك الغريب، صاح قائلًا: «أربعة كبار يشيلو» خرج الأربعة الكبار من آخر الفصل وحملوا «عبد الله» وبسوط العنج ضرب الناظر «عبد الله» وبحماقة أكثر من عشرة جلدات، «عبد الله» يصرخ والناظر يقول متهكمًا: «تبكي يا روميو».

وضع الناظر سوط العنج على الدرج، نظر إلى التلاميذ، أخرج منديله، مسح به على جبهته، خلع النظارة، أعادها إلى عينيه وقال: «شوفوا هنا، أمور الصعاليك دي ما بتنفع معاي، لو واحد فيكم جاتني شكوى ضدو من النوع دا، أو كتب جواب، أو بت كتبت ليهو جواب، ما يقابلني، يسلم الكتب ويتخارج، يمشي يشوف ليهو حاجة تاني غير المدرسة، مفهوم».

قبيل بداية المذاكرة المسائية كان فناء المدرسة يتنوع

بألعاب التلاميذ المختلفة، «عفاف» و«شادية» في جولتهما العصرية اخترقتا أحاسيس الجميع، كانتا تسيران هناك في ميدان المولد بالقرب من المحكمة، همدت حيوية كل الألعاب «عطا» قرر أن يسلم عليهما تحرك نحوهما، وحين اقترب منهما جاء أحد صعاليك الثانوية العامة يتأرجح بدراجته نحوهما، اقترب «عطا» أكثر، اقترب صعلوك الدراجة، وحاول أن يقترب منهما بالدراجة، فقد توازنه، وفي اللحظة التي كاد يصدمهما تدخل «عطا» بينه وبين «عفاف» و«شادية» لتصدمه الدراجة بدلًا عنهما وقع على الأرض، في حين هرب صعلوك الدراجة، «عفاف» و«شادية» المرعوبتين تحركتا نحو «عطا» الواقع على الأرض ومدت «عفاف» يدها ورفعته من الأرض وشكرته «شادية» بصوت حنين، كانت أنظار التلاميذ وقتها مع الحادث، كل الأنظار كانت تتابع ما حدث، جرى نحوه بعض التلاميذ، عرف أن عليه ألا يتحدث إلى أحد، فرحًا بتلك التضحية، ذهب إلى المنزل مقررًا أن يتلذذ بالحادث في الصباح.

في الصباح قابله «راشد» مستغلًّا أنه من أبناء الموظفين، ومستغلًّا حالة كونه جارًا لـ«عفاف»، مستغلًّا تهديد الناظر بالأمس، ونشوة «عطا» بما حدث؟ قال «راشد»: «دا شنو العملتو امبارح دا يا «عطا».

- في شنو؟

- عفاف زعلانة منك.

- مني أنا؟

- أيوا، زعل شديد وقررت تشتكيك للناظر.

- ليه أنا عملت شنو؟

- قالـت أنـت متفـق مـع الـود بتـاع العجلـة، وبعديـن أنـت شـاغلتهم وقالـت حتجـي بعديـن تشـتكيك للناظـر.

- لكن.. أنا.. أنت كذاب.

- كداب.. كداب وأنا مالي؟

ذهـب «راشـد» وهربـت كل تفاصيـل اليـوم الـدراسي عـن ذهنه، يصـدق ولا يصـدق، يخـاف مـن أن يحـدث ذلـك، يتوقـع في أي لحظـة أن يدخـل عـم «البلـة» كي يناديـه، يخـاف مـن مصيره إذا تـرك المدرسـة، يخـاف أن يتحـول إلى بائـع في دكان والـده الـذي يرغـب تمامًـا في ذلـك، والـده يـصر دائمًـا أن يـترك المدرسـة ويعمـل في الـدكان، كـم يحـب المدرسـة، كـم يكـره الـدكان، مـرَّ اليـوم الـدراسي وتكثـف القلـق في دواخـل «عطـا» قـرر أن يحسـم الأمـر، وأن يتخلـص مـن فكـرة تلـك الشـكوى، لـم يسـتطع عقلـه الصغـير أن يكـذب مـا قالـه «راشـد» رغـم أنـه يعـرف مـا حـدث، اتجـه في ذلـك العـصر نحـو مدرسـة البنـدر، اتجـه نحـو مكتـب المدرسـات، وجـد السـت «مـنى» عانـس، عجفـاء اسـتقبلته قائلـه: «مرسـلك منـو؟»

- لا أنا جيت براي.

- إن شاء الله خير.

- جيت أشتكي.

- تشتكي منو.

- في بتين امبارح شاغلوني.

- شاغلوك؟ «التمعت عيون الست «منى»»

- أي شاغلوني.

- شاغلوك كيف يعني؟

- واحدة كنتكت لي بعيونها والتانية قالت لي وين يا أنت.

- كنتكت ليك يعني شنو؟

- ما يعني كنتكت لي.

- يعني كيف؟

- يعـني – كـدي «وأغمـض «عطـا» عينـه ورفـع حاجبيـه في حركـة راقصة».

- بتعرف أسماهم؟

- لا.

- بتعرفهم لو شفتهم؟

- أيوا.

قادتـه الســت «مـنى» إلى الفصـول حيـث التلميـذات قـد دخلـن إلى الـدروس العصريـة، دخلـت بـه إلى الفصـل الخامـس، ادعـى «عطـا» جهلـه بفصـل «شـادية» و«عفـاف» إنهمـا في الفصـل السـادس، قادتـه «مـنى» إلى الفصل السـادس، بعد أن اسـتأذنت مـن ست «الرضيـة» توقفـت «الرضيـة» عـن التدريـس نظرت إلى «عطـا» تحدثـت الســت «مـنى» عـن موضـوع «عطـا» وأمـرت «عطـا» قائلـة: «كـدي عايـن في البنـات ديـل، وريـني ليهـم لـو لقيتهـم هنـا»، تظاهـر «عطـا» بأنـه يبحـث، اتقـت عينـاه بعيـون «شـادية» تفاداهـا سريعًـا، أشـار إلى «عفـاف» تفاجـأت «عفـاف» ووقفـت مرعوبـة، وحـين وقفـت عفـاف وإذ إن الموضـوع عـن بنتـين تلقائيًّـا كانـت «شـادية» قـد وقفـت، وهنـا صرخـت الســت «مـنى» بـكل عنوسـتها: «كمـان بتعترفـوا».

وخـرج «عطـا» مـن مدرسـة البنـدر كمـن تخلـص مـن هـم كثيـف وقابلـه غفـير المدرسـة يحمـل مطـارق مـن شـجر الحنـاء كي تعاقـب بهـم الســت «مـنى» «شـادية» و«عفـاف».

حـين وصـل «عطا» إلى مدرسـته كان الجميع في انتظاره متسـائلين عـن سـبب ذهابـه إلى مدرسـة البنـدر، لـم يـرد عـن أسـئلتهم الملهفـة، جـاءه «راشـد» أخـذه إلى طـرف بعيـد قائـلًا:

- أنت مشيت مدرسة البندر؟.

- أيوا.

- مالك؟

- اتخلصت من الموضوع.

- ياتو موضوع؟

- موضوع الشكوى، اشتكيتهم قبلما يشتكوني.

- لكن يا عطا أنا كنت بهظر معاك.

صرخ «عطا» وضرب «راشد» بعنف وشج رأسه بحجر، تجمهر التلاميذ حول هذا الاشتباك وكان «عطا» يبكي إلى درجة الصراخ وحين عاد إلى المنزل، لم يستطع أن يتخلى عن البكاء تذكر القرطاسين، أدخل يده داخل شنطة الدمورية، أخرج القرطاسين، نثر رمال تلك الخطوات في الهواء وكان يبكي بحرقة شديدة.

أوراق كادوقلي القديمة

«استشرت العذوبة

وأعرف أني انتخبت الألق أعرف شوقي إليك

يعربد في جنبات الشوارع

يدك حواجز حظر التجول

ويغري الأماني

بحلم الوصول إليك

وأنتِ التي سكنتِني

وأعرف

أن الطريق إليك طويلة

وأن انتظاري انتصاري

على قبح كل الحروب

وحاسة نهب الشوارع

لدرب إليك يؤدي .. «

حين كنت أبحث بين أوراقي القديمة كعادتي دائمًا حين تمتلكني رغبة أن أتحسس إمكانياتي في سجن الزمن داخل الصفحات التي أكتبها، وجدت هذه الأوراق، هي أوراق تحاول أن تسجل لحظات من تلك اللحظات التي تحولت فيها مدينة كادوقلي إلى منطقة عمليات تتنافس فيها أكثر من حكومة كلها تبدع في إيذاء المواطن، حكومة المحافظة، قوات الأنانيا، لا أعرف إن كانت صديقة أم لا، حكومة محافظة السلام - بانتيو - لكن حكومتها لا تستطيع مباشرة أعمالها في هذه المحافظة فبقيت هذه الحكومة في كادوقلي، المهم، لو استرسلت في حديثي عن ذلك التنافس في إيذاء المواطن البسيط لن أجد مساحة لعرض تلك الأوراق القديمة.

الإثنين ٢٤ يوليو ١٩٨٩م

كنت أجهز عودتي إلى الخرطوم، كان الحصول على عربة مسافرة أمر يبدو أقرب إلى المستحيل، كادوقلي انعدم فيها الجازولين، الطواحين التي يعتمد عليها في طحن العيش توقفت عن العمل، «العسلية» المصنوعة من العيش لم تعد متوفرة في الأنادي المنتشرة في الأحياء، الدقيق أصبح سلعة نادرة حتى اختفى من الأفران ومع ذلك ظهرت حمي التسعيرة، تشددت المحافظة في متابعة تسعيرة محددة لكل

البضائع، لكن لم تكن البضائع متوفرة إلا في سواد أسواق تجار الحرب، اختفت معظم البصات التي تسافر إلى مدينة الأبيض وأم درمان في رفض خفي للتسعيرة المحددة لتذكرة البص، بشق الأنفس وبعلاقات والدي «أبو تايه» حصلت على مقعد في بص حتى الأبيض، من المفترض أن نسافر أنا وعوض – شقيقي - صباح الغد إلى الأبيض، كنت أجلس كعادتي في بداية المساء أمام البيت، هي جلسة أحاول فيها أن يلهو قلقي بالشخوص العابرة في الاتجاهين، جاءني عوض قائلًا «ما سمعت بالحادثة دي؟».

كان الأمر أشبه بنهايات حلقات المسلسلات، في مكان على شارع الدلنج – كادوقلي منحني ضيق، تعرف تلك المنطقة باسم «حجر دليب»، هذا المنحنى الضيق يمر بجبال تنمو فيها أشجار الدليب وتحفه هاوية على الجانب الآخر من الشارع، ثلاثة أشخاص مسلحون تصدوا لعربة لوري شاحن عيش ومكتظ أيضًا بالركاب، الثلاثة أشخاص أوقفوا اللوري ونهبوا نقود الركاب والسائق واختاروا من بعض الركاب ملابسهم وقاد معهم اثنين من رجال الجيش وتركوا اللوري يواصل مسيرته وصارت بعدها الحركة عادية، إذ جاءت بالطريق نفسه بعد هذا الحادث عدد من العربات من ضمنها باص أم درمان – كادوقلي، جاءت الأوامر من القيادة العليا العسكرية بمنع أي عربة تتحرك على هذا الطريق إلى حين أن يتم استكشاف المنطقة من قبل قوات الجيش وأنا أصبحت معطلًا عن السفر وأحس أن تعطيلي

هـذا مشـكلة جوهريـة لا تحـل إلا بالسـلام.

وأعرف شوقي إليكِ

سيغري الطيور

بحمل الرسائل

يراود كل النسائم

عل النسائم

تعرف معني العذوبة

تجهل عمدًا

سلاح الذين استباحوا الشوارع

وسدوا منافذ خطوي إليكِ

وأعرف أني انتظرت طويلًا

وأن البلاد الحميمة باعت

في سوق الحروب الصغيرة

معني الأمان

زحفـت الأطـراف نحـو كادوقـلي، هاجـر الأهـالي في ظـل عـدم الأمـن، نتيجـة لذلـك اختفـت المنتوجـات الـتي تغـذي سـوق

كادوقلي، لم تعد هناك زراعة حتى في «الجباريك» الصغيرة، المشاريع الزراعية التي تعتمد على الأمطار أصبحت خالية من زارعيها ولا تحس بذلك الوجود الحيوي لمؤسسة جبال النوبة الزراعية واختفت انتعاشة المدينة في موسم وزن القطن قصير التيلة ولم يعد يسمع هدير المحلج، شُحٌّ في كل شيء، لم تعد كادوقلي هي كادوقلي التي نعرف، اختفت الفواكه البلدية مثل الهالوك والمديكة وأم تقلقل والدليب، هذا هو حصار كادوقلي ويتخلل هذا الحصار هجمات متفرقة من قبل أفراد أو بعض المجموعات الصغيرة من المسلحين، اختطافات قريبة، أحد المدرسين من منطقة «السمة» جنوب كادوقلي تم اختطافه من قبل أشخاص وحاولوا قتله، إلا أنه نجا لأن أحد هؤلاء الأشخاص كان تلميذه، أحد الأصدقاء القدامى ركض مجتازًا وبدافعية من خوف مهول جبال وسهول وأراضٍ خلوية وغابات، كان يعمل في مشاريع «أبو سنون» و«كانقا» كملاحظ في وقاية النباتات، استطاع أن يهرب منفلتًا من رصاص جماعة من المسلحين يرتدون أزياء عسكرية كأزياء البوليس كما قال ليرقد في مستشفى كادوقلي مصابًا بقروح خطيرة، وقد كان من شدة عطشه يتبول على يده كي يبلل شفتيه.

هذي المدينة

ضاع التماسك فيها

وعربد فيها السلاح

تمر عليها الطيور حزينة

وتبقى قليلًا

تفتش عن ذكريات الأمان

تغرد لحنًا حزينًا

وتترك دون ارتياح

لريش الجناح

يعمق معنى الفرار

وتشرخ هذي المدينة

لحن التواصل

تهمد حينًا

وحين تضج

ويغدو عليها انتظاري

محال

وأعرف أن الحصار

حوار الخلايا

التي سكنتها الحبيبة

وأي حصار بكل معاني الحصار

دمار

فيا شوق.. يا

هذا الذي لا ينطفئ

هل يبقى شيء لم يقل؟

يا سرَّ هذا الذي لا ينتهي

إلا لكِ يبدأ احتمال

في احتمال

يا حال

كيف الحال؟

يا عتمة الدرب الذي يمتصني

كيف يبقي الحال نعم الحال؟

«يا مواطني كادوقلي الأعزاء، غدًا الجمعة ٢١-٧-١٩٨٩ سيكون هناك تجارب على الأسلحة الثقيلة لذا نرجو الهدوء وعدم الانزعاج – المخابرات العسكرية».

كان هذا النداء يتردد في مساء العشرين من يوليو ١٩٨٩م عبر الميكرفون المتجول، خرجت بطة جارتنا يتبعها صغارها، تبدو آمنة، طالت جلستي أمام البيت، صوت الميكرفون بدأ يبتعد، أطفال الحي يلعبون الكرة، كادوقلي تبدو هادئة ولكنها لا تخلو من توتر، الوساوس تتضخم عن أفعال النهب المسلح، «كانقا» بلدة صغيرة تعرضت لاعتداءات، أهالي «أبو سنون» الآن في مدرسة ابتدائية خلف سوق «الملكية»، قرية «تخسوانا» تعرضت أيضًا لهجوم مسلح، الجيش يتجول في المدينة، العساكر يحضرون حفلات المناسبات بالزي العسكري، فمهما حدث لن تستطيع كادوقلي أن تتخلي عن حبها للغناء والرقص، أما أهالي قرية «البرداب» شمال كادوقلي فقد دبروا مكيدة خارقة تريحهم من خطورة الهجمات المسلحة، وهي إذا دخل الناهبون المسلحون «البرداب» لن يجدوا سوى قناطر ترابية وأرض جافة وقاحلة سرعان ما توحي للمرء بخلو المنطقة من الناس، حينها يعودون أو يتجاوزونها لترجع «البرداب» مرة أخرى كما هي، هذه المكيدة الخارقة - أن تختفي «البرداب» من على البسيطة حالما يطأ أرضها الناهبون المسلحون وتعود حالتها الأولى حين يخرجون منها - هي مكيدة لها مرجعية؛ أن معظم أهالي «البرداب» من أهلنا «الفلاتة» وكانت «البرداب» ترفد منافسات كرة القدم بعدد متمايز من «الفكيه» و»الأناطين»، هكذا تقول الشائعة، ترى هل هي حقًّا شائعة؟ يقال إن أحدهم من أبناء «البرداب» جاء

عائـدًا مـن مدينـة الأبيـض وتـرك اللـوري عنـد لفـة «الـبرداب»، كان ذلـك يـوم «الوقفـة» وكان الوقـت ليـلًا، فيمـا بعـد السـاعة التاسـعة، توجـه راجـلًا نحـو «الـبرداب» وحـين وصـل إليهـا لـم يجدهـا ووجـد بـدلًا عنهـا أرضًـا قاحلـة وقناطـير ترابيـة، احتـار لأنـه متأكـد مـن أنـه سـلك الطريـق الصحيـح والـذي يعرفـه تمامًـا، ثـم إنـه مـن أبنـاء «الـبرداب»، فـكان أن ضرب أخماسًـا في أسـداس وقـرر أن ينـام في المـكان الـذي وصلـه حـتى يتبـين الأمـر في الصبـاح وكان أن أيقظتـه شـمس الصبـاح ليجـد أنـه كان نائمًـا في أحـد شـوارع «الـبرداب» الداخليـة وعـرف بعدهـا أن السـبب فيمـا حـدث لـه ببسـاطة هـو أن شـائعة عابـرة قالـت إن الناهبـين المسـلحين سـيهجمون عـلى «الـبرداب» في تلـك الليلـة لـذا احتـاط أهـالي «الـبرداب» وحوطـوا «الـبرداب» مـن كل الداخلـين إليهـا في تلـك الليلـة حـتى أبنـاء المنطقـة أنفسـهم، إنهـا الحـرب حكاياتهـا وأسـاطيرها وهذياناتهـا

وذاكرتي

أحرضها

كي تمد اللحظة النشوى

وتمتد في صمت الشوارع

دلت دموع النساء اللواتي

اعترفن بسر المكان الأليف

ولون الفراق استعان بلون الشفق

دلت دموع النساء

على صمت كل الضواحي

حين الرحيل أضاع البقاء

وتفقد كل الأماكن

عمق ارتعاش الحياة

إنـه اليـوم الـذي سـتجرب فيـه الأسلحة الثقيلـة ـ الجمعـة ٢١ يوليـو ١٩٨٩م ـ أمـي نظمـت دعـوة غـداء للنسـاء، ذُبِحَـتْ الذبائـح وركـب الصيـوان، سـيكون في المسـاء نفسـه الـذي تجـرب فيـه الأسلحة الثقيلـة حفـل مرطبـات للرجـال، وسأتلقَّى التهـاني ببدايـة تفاصيـل زواجـي، زحمـة مـن الصبايـا والصبيـة والأطفـال يتراكضـون في البيـت، كان مـن المفـترض أن أسـافر بعـد العيـد مباشرة، ولكـن تقلبـات الأحـوال السياسـية والأمنيـة جعلـت مـن كادوقـلي مدينـة هامـدة حينًـا وحينًـا مشـتعلة ـ الهمـود في اختفـاء السـلع الضروريـة مـن السـوق هروبًـا مـن البيـع بالتسـعيرة الجديـدة الـتي كثفـت الهلـع في نفـوس المواطنـين فكانـوا يهجمـون عـلى المتاجـر والأكشـاك جماعـات كي يشـتروا بالتسـعيرة الجديـدة، التجـار باعـوا مـا عندهـم ورفضـوا العمـل، اعتقـالات ومشـاجرات في الشـوارع بسـبب وجبـة عشـاء – فـول - التسـعيرة الجديـدة حـددت ثمـن وجبـة

الفــول بجنيهــين وكان قبلهــا بثلاثــة جنيهــات، فــوضى في كل مــكان، لــذا تأخــر موعــد تحديــد دعــوة زواجــي إلى حــين أن نجـد مخـرج المشـكلات توفـر المـواد التموينيـة، خاصـة السـكر والزيـت اللذيـن انعدمـا تمامًـا مـع وجودهمـا في المخـازن، ولا يمكـن الحصـول عليهمـا إلا بتصديـق مـن المجلـس والتصاديـق موقوفـة، ولكـن في نهايـة الأمـر وتقديـرًا للظـروف اسـتطعت أن أحصـل مـن الضابـط التنفيـذي الـذي تربطـني بـه معرفـة قديمة عـلى تصديـق بجـوال سـكر وصفيحـة زيـت.

هـذه هـي كادوقـلي بـين تلـك الأوراق القديمة كذاكرة لتشـوهات الحرب.

وأعرف أني أحرض شوقي

وكل الخواطر

أعيد انسجامي

أطمئن خطوي

ألوِّن كل الشوارع

بلون اشتياقي

وأعرف

إن الطيور الأليفة تمر

وتبقى طويلًا

وتنشد دون ادعاء

نشيد الحياة

عمي البولاد الملخص الأعظم

شغلني لأيام كتاب الأستاذ عبد المحمود أبو شامة «من أبا إلى تسلهاي - حروب الإمام المهدي» وحين كنت أقرأ رد الإمام المهدي على رسالة غوردون التي أعلن فيها رغبته في تعيين الإمام المهدي سلطانًا وأميرًا على كردفان، وقد أرسل غوردون مع الخطاب هدية تضم جبَّة وقفطانًا وحزامًا وطربوشًا مغربيًّا بعمامة ومركوبًا وشالًا، رفض الإمام المهدي الهدية وأرسل مع الرد على الخطاب هدية إلى غوردون تتكون من جبة ورداء وسراويل وعمامة وطاقية وحزام ومسبحة.

يقول الإمام المهدي في ردِّه على رسالة غوردون «أنا عبد أحب المسكنة والمساكين وأكره الفخر وتفخر السلاطين وجنوحهم عن الحق المبين لما جبلوا عليه من حب الجاه والمال والبنين».

وحين وصلت إلى هذه الفقرة من الرسالة «فأنب إلى الله

الباقي، واخضع لجلاله واطلب عز الآخرة ولا تظن أن هذه الدنيا دار حتى تسعى لملكها وعزها، وكيف من يكون على خلاف سكة رسول الله يفتح باب زيارة قبره، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ممن يرغب في زيارة الكلاب، كما ورد أن الدنيا جيفة وطلابها كلاب، ولم يرغب ممن عبد غير الله ونسي الله وأعرض عن كلامه وطلب متاع الحياة الدنيا الفانية».

تعلقت بذاكرتي هذه الجملة «إن الدنيا جيفة وطلابها كلاب» وكنت متأكدًا أنني سمعتها من قبل، وبعد أن نبشت ذاكرتي أحالتني هذه الجملة الحكيمة إلى العم «البولاد» أحد ظرفاء كادوقلي، وأذكر أنني قد سمعت هذه الجملة منه وأنا طفل يتحسس ويتابع حكايات وونسات الكبار و«عمي البولاد» كما يفعل عادة حين يتحدث يستعين على من يحاوره بالحكم والأمثال، كان «عمي البولاد» أنصاريًّا بليغًا في حديثه متعة وحكاياته دائمًا تمارس اختلافها مع حكايات الناس التي تعتبر عادية قياسًا بما يحكيه هو، كان الرجل روائيًّا من طراز فريد، أنا كنت دائمًا ما أصطاد مجالسه، أبحث عنه في أنحاء السوق الكبير أو السوق البرة حتى أجده، في دكان العم عبد الرحمن أبو البشر أو في دكان العم محمد عبد الرحمن حسين، كلا الاثنين تربطهما به علائق الانتماء إلى كيان الأنصار، أحيانًا في قهوة ومطعم والدي، يتجول «عمي البولاد»، هكذا دائمًا ما نمنحه صفة العمومة «عمي البولاد» يتجول بحكاياته وجمله البليغة المستوحاة

مـن مقـولات وحكايـات الإمـام المهـدي، وكنـت كلمـا أراه يحـكي تقفـز إلى ذاكـرتي الصـورة المعروفـة للإمـام المهـدي في كتـب التاريـخ، فهـو كان يحـرص عـلى أن تكـون عمتـه في شـكل يقـارب عمـة الإمـام المهـدي، لا يكتفـي «عمـي البـولاد» بمقـولات الإمـام المهـدي فقـط، ولكنـه يسـتطيع أن يفجـر مقـولات تخصـه هـو، أذكـر أنـي حفظـت هـذه الجملـة البليغـة منـه ملخصًـا مفهومـه عـن الدنيـا «الدنيـا جيفـة وطلابهـا كلاب»، بـل كلمـا شـاهدت جيـف الحيوانـات تقفـز إلى ذاكـرتي هـذه الجملـة وأراني أسـترجع وجـه «عمـي البـولاد» الصبـوح بعلائـق تاريخيـة مـع وجـه الإمـام المهـدي، وأذكـر أنـي قـد تأملـت هـذه الجملة البليغـة عـن حـال الدنيـا وأنـا في طريقـي إلى الخرطـوم عائـدًا مـن كادوقـلي، حيـث كنـت أقـضي إجـازتي هنـاك، كان ذلـك في صيـف العـام ١٩٨١م وكان الجفـاف والتصحـر قـد بـدأ يشـهر ملامحـه عـلي طـول طريـق البصـات، كنـت أتأمـل هـذه المقولة وأنـا أتابـع مـن نافـذة البـص الحيوانـات النافقـة والمتناثـرة عـلى طـول الطريـق.

مجالـس «عمـي البـولاد» دائمًـا مـا كانـت تضـج بالنقاشـات الحـادة، يسـتعذب جمهـور هـذه المجالـس إثارة «عمـي البولاد» حـتي يفجـر مقولـة مـن مقولاتـه ذات الحكمـة المغلفـة بالطرفـة والقـول المليـح، أذكـر أنـه أطلـق ذات نقـاش حـاد مقولـة بهـا مـن طرافـة التشـبيه مـا يحـرض عـلى الضحـك حـد القهقهـات، كان ذلـك حـين أثـاره أحـد الحاضريـن قائـلًا في موقـف المعـارض لحـزب الأمـة «انتـو يـا عمـي البـولاد كلامكـم بقـى ملـك لـك

وماسكين العصاية من النص» فانفجر «عمي البولاد» وفجر هذه الجملة البليغة «هوي يا وليد، نحن كلامنا واضح دبر نعزي»، دبر بضم الدال والباء والنعزي هي الغنماية، تأمل كيف يعلن «عمي البولاد» مفهومه للوضوح.

يستحق عمي البولاد لقب الملخص الأعظم، له في كل حادثة عابرة تلخيص، في كل حكاية من حكاياته عبرة ملخصة، يحكى عنه الكثير من تلك النوادر التي عادة ما تنتهي بنوع من تلك الجملة البليغة إلى تسير بها الألسن، يحكي عنه أنه حين كان يحاول عبور زحام البشر داخل مستشفى كادوقلي اصطدم تلقائيًّا بفتاة كانت تضع على رأسها باروكة كما هي موضة تلك الأيام، يمكن الرجوع إلى تلك الشخصيات التي كان يرسمها رسام الكاريكاتير الراحل المقيم عز الدين عثمان ساخرًا من الباروكة، خاصة لدى الموظفات في الدولة، اصطدم عمي البولاد بتلك الفتاة ذات الباروكة في زحام المستشفى الصباحي، فكان رد فعل الفتاة أن أخرجت من فمها صوتًا لا أستطيع كتابته، لكن يمكن وصفه بصوت مصمصة العرديب، لكنه متضخم ومشبع بالسخرية والاستهزاء، فانفجر «عمي البولاد» في وجه تلك الفتاة قائلًا: «انتري لي غادي وحات المهدي أنطيكي كف إلا أي صوفاية ترجع لغنمايتا».

تأمل هذه الصورة، أن تعود أي شعرة من شعرات تلك الباروكة إلى أصلها، إنه خيال يقترب من خيالات أفلام

الكرتـون، تـرى هـل مـا زال «عمـي البـولاد» حيًّـا يوجـد مـن خـلال مقولاتـه اللماحـة والمرمـزة والبليغـة؟ أم إنـه غـادر الدنيـا تلـك الجيفـة وطلابهـا مـن الـكلاب؟

تـرى هـل يمكن إسـقاط هـذه المقولـة الـتي وجدتهـا في رد الإمام المهـدي عـلى رسـالة غـوردون والـتي كنـت قـد حفظتهـا مـن «عمـي البـولاد»، هـل يمكـن إسـقاطها عـلى ممارسـة السياسـة في السـودان؟

طاحونة منولي

ها هي الطاحونة مغلقة أمامي، وها هو الخفير يصلي أمامي صلاة العشاء، ما هو مرعب وغير محتمل أن قفة الدقيق تقبع في الداخل، أدور حول الطاحونة حتى ينتهي الخفير من صلاته، أدور حول الطاحونة وأتمادى في المشي حتى أصل منطقة الغيط، وأرجع إلى الطاحونة وأنا أحمل على أكتافي هذا العبء الثقيل، قفة الدقيق التي في الداخل، كنت كل ثلاثة أيام أحمل هذه القفة فارغة من البيت أدخل بها زريبة العيش، عم «ابتر» يثرثر معي وهو يخلط كذا ملوة من الفترينة مع الصفراء عن «أبو التايه» ويحكي كم نكتة وموقف عنه، بالمناسبة «أبو التايه» هو «فضل الله العوض» والدي، عادة ما أصغي لحكايات عم «ابتر» وصوته الأليف والمؤانس يختلط في أذني بأصوات الحديد وهي تتناغم وتئن على ضربات الحدادين، حيث برندة الحدادين المجاورة لزريبة العيش، كنت دائمًا أذهب إلى

زريبة العيش في العصريات بعد الغداء مباشرة حرصًا مني على الدافوري في ميدان الطواحين، كنت أفضل طاحونة «منولي» عن طاحونة عم «عبد الحفيظ» والسبب في ذلك هو عم «يعقوب» الطحان بشلوخه الواضحة علي خديه الخشنين، كنت أحب أن أراقبه وهو أمام ماكينة الطحين وبياض الدقيق يصل حتى حاجبيه مختلطًا بعرق الوجه، وبصوت جهور يكاد أن يعلو على أصوات ماكينات الطحين مداعبًا الزبائن، كان عم يعقوب الطحان في طاحونة «منولي» يعمل أيضًا معلنًا عروض سينما كادوقلي، وهذا سبب كافٍ جدًّا بالنسبة إليَّ كي أفضل طاحونة «منولي» لأستمتع بالمقارنة الدرامية بين يعقوب الطحان ويعقوب المعلن، كان عم «يعقوب» يتجول بدراجته ذات السَّبَت الأمامي الذي يعلق عليه من أمام الدراجة بورت عليه بوستر الفيلم المعروض، يتجول «عم يعقوب» في الأحياء وهو يحمل ميكرفونًا يعمل بالبطاريات دائمًا ما يصنع الأطفال زفة صغيرة حوله ويتابعونه حتى مشارف حي آخر يمازحهم حد الصخب والصيحات، ولا يتوانى عم «يعقوب» إذا صادف في جولته بيت أحد معارفه أو أصدقائه في أن يخاطب صاحب البيت مباشرة من خلال الميكرفون من مثل «يا حمدان أبو شبك الفيلم الليلة كاوبوي خطير اسمو كمين داكوتا ولو مقشط قابلني في السينما، كمين داكوتا، الليلة الفيلم الكاوبوي المرعب الخطير، وين يا أحمد حريقة الكنكان الليلة وين؟ كمين داكوتا فيلم المغامرات وفنون

المسدسات، الليلة كمين داكوتا...»، في الأعياد يتغير الأمر؛ يتخلى عم يعقوب عن دراجته ويقف أو يجلس «عم يعقوب» على ظهر العربة المريكني الحمراء وميكروفونه في يده، ومصاحبًا بضجة عذبة من عازف الكيتا المنتفخ الأوداج، وعلى جانبي العربة مثبتة بوسترات أفلام العيد، وهنا يعلن «عم يعقوب» تفاصيل كل برنامج العيد وبحضور صاحب يناسب المناسبة، وحدي الذي كنت أملك حق أن أصعد على تلك المريكني الحمراء مشاركًا عم «يعقوب» في كرنفال الأعياد بحكم أن والدي كان يدير مطعم ومقهى السينما، كان لصوت عم «يعقوب» المنسرب عبر نغمات الكيتا سحر على أجواء وطقوس الأعياد، معلنًا برنامج أفلام العيد ومن خلال عم «يعقوب» كان عمال الطاحونة يعرفونني ويعرفون قفتي ويتعاملون معها بودٍّ حميم، كنت أضع القفة في الصف وأهرول إلى ميدان الطواحين، وقد أتأخر في الرجوع لآخذها متماديًا في اللعب، لكنها – القفة - دائمًا ما أجدها قد وضعت تنتظرني في ركن معلوم.

أعود من مشواري المغلق والدائري حول الطاحونة لأجد الخفير قد انتهى من صلاته وجالسًا على الجوال الذي كان يصلي عليه

- أنا عندي دقيق جوه الطاحونة.

- الطاحونة قفل.

- ممكن تفتح لي عشان أشيل الدقيق.

- مفتاح عند الخواجة.

أعرف أن طريقي مسدود، الطاحونة مغلقة ولن أستطيع العودة إلى البيت دون قفة الدقيق، غياب هذه القفة عن البيت يعني أن ترتبك مطاعم كادوقلي وستختفي طلبات البلدي بأم رقيقة أو البلدي بالرشوشة، كانت أمي تغطي طلبات الكسرة في المطاعم الكبيرة في سوق كادوقلي، بما في ذلك مطعم والدي، وكنت أنا أوزع طلبات الكسرة إلى تلك المطاعم حاملًا الصواني على رأسي، وكنت أنا الذي أتسلم نقود الكسرة وآخذ منها أجرتي التي أفرح بها جدًّا، طبعًا بالاتفاق مع أمي، كانت أجرتي دائمًا ما أصرفها على مكتبة عم «عابدين» في الركن الشمالي للجامع الكبير، أتمرد أحيانًا على أجرتي وأتوغل في المبلغ مستندًا إلى حنية أمي تجاه مشاريعي الغريبة.

ذلك العصر كنت قد وضعت قفتي في الصف وهرولت إلى ميدان الطواحين، كانت بين فريقي حي السوق البره وحي السوق الجوة مباراة، لا أدري حتى جوه من شنو ولا بره من شنو لكني أظن أن الحي البره لقربه من السوق البره والجوة لقربه من السوق الجوة، يفصل بين الحيين الشارع الرئيسي الذي يؤدي إلى السوق البره، وهناك شارع صغير يمر عبر البيوت سُمِّيَ بشارع «افجخني» لزحمة المارين به من السوق الجوة إلى السوق البره وبالعكس، كانت تلك

المباراة يلعب فيها من هم أكبر منا سنًّا، وتنوعت بيننا تلك الفرجة الحميمة حسب انتماءاتنا تلك البسيطة والدافئة، أنا أسكن في حي السوق الجوة، المباراة كانت ساخنة، في الشوط الثاني من المباراة كان فريقنا مهزومًا وأصيب أحد اللاعبين في خط الهجوم، وبدلًا من أن يلعب فريق الحي الجوة ناقصَ العدد لعدم وجود لاعبين في الاحتياطي دفعوني للعب بديلًا عن اللاعب المصاب، وخدمني حجمي الصغير وقدرتي على اللعب بالقدمين الاثنتين أن أحول هزيمة فريقنا إلى انتصار بعد أن سجلت هدفين وانتهت المباراة، وأنا محمول على الأعناق تحفني صيحات أبناء حي السوق الجوة متجولة بي في أزقة ودروب حي السوق البره، معلنين انتصارنا داخل أرض الخصم، وحين انتهى ذلك الكرنفال الصغير تذكرت أمر قفة الدقيق فهرولت إلى الطاحونة لأجدها مغلقة الأبواب.

أحاول استمالة الخفير كي يتعاطف مع همي ذلك الكبير، ولكنه ظلَّ يردد أمام إلحاحي جملة واحدة «مفتاح عند الخواجة»، أعرف أين يسكن الخواجة «منولي» فهرولت إلى منزله القريب من موقف اللواري والعربات، كانت البصات وقتها نادرة، وصلت إلى منزل «منولي»، المنزل أمامه مصطبة كبيرة وعالية على كل جانب منها عتبات كسلم للصعود إليها، لا بدَّ من صعود هذه المصطبة لأنها تحاصر تمامًا باب البيت، أنقر بأصابع قلقة على الباب الخشبي ذي الصوت المكتوم، تحولت الطرقات إلى ضربات عنيفة، فتح الباب، قابلني الخواجة «منولي» ببطنه المتهدل الذي غطى

فتحـة البـاب وقـذف في وجهـي بصرخـة احتجـاج:

- إزعاج شنو؟

- أنـا نسـيت قفـة الدقيـق في الطاحونـة وكلمـت الخفـير يفتـح لي البـاب فهـو قـال لي المفتـاح عنـدك.

- مطلوب شنو؟

- تفتح لي الطاحونة عشان أشيل الدقيق.

- أنت ولد مستهبلة، يلا روَّح.

- عليك الله يا عم منولي.

- أنت نسيتي ولا أنا؟

- عم منولي عليك الله.

- عشان أنتِ تتأدبي، يلا روح من هنا.

وأغلـق الخواجـة «منـولي» البـاب في وجهـي وهـذا مـا جعلـني ألـوذ ببـكاء معلـن، لأنـني أعـرف أن عـودتي إلى البيـت دون قفـة الدقيـق أمـر غـير محتمـل العواقـب، نزلـت مـن عـلى تلـك المصطبـة بعـد أن فشـل صـوت بـكائي في اسـتمالة الخواجـة منـولي وبابـه المغلـق كطاحونتـه تلـك، نزلـت وتناولـت مـن الأرض نصـف طوبـة وقذفـت بهـا عاليًـا في سـقف البيـت الـذي هـو مـن الزنـك، قذفـت بحجـر آخـر وطوبـة أخـرى وحجـر وحجـر وطوبـة وصـوت ارتطـام الحجـارة وبقايـا الطـوب

تجعل زنك السقف يصرخ ويولول معلنًا إلحاحي على أخذ قفة الدقيق، أقذف بالحجارة والطوب على زنك السقف حتى فتح «منولي» بابه ليجدني أقذف بالحجارة على زنك السقف غير مهتم بوقفته تلك على الباب، ويبدو أنه فكر في التخلص مني ومن إزعاجي، أو يبدو أنه أحس بإصراري وإلحاحي.

- أنتِ ولد شيطانة، خلاص سيب إزعاج، أنا بفتح طاحونة.

وقفت أنتظر خروج الخواجة «منولي» من منزله ليذهب معي إلى الطاحونة، خرج «منولي» بعد أن ارتدى قميصه؛ وقتها تذكرت أنه كان عاري الصدر حين خرج إليَّ في المرتين السابقتين، لكن بطنه المتهدل لا يعطي فرصة كي تلاحظ بقية جسده، ارتدى قميصًا وذلك الرداء الكاكي الذي يلبسه دائمًا، خرج بدراجته الرالي، ساعدته في إنزالها من على المصطبة بلهفة ملاحظة وتحرك «منولي» بدراجته وأنا أجري وراءه كمنتصر عظيم، حين وصلنا إلى الطاحونة استقبلنا ذلك الخفير ببطاريته، أعطى «منولي» الخفير المفاتيح، دلفنا إلى الداخل الطاحونة المظلمة، ومن خلال نور البطارية وضعت يدي على قفة الدقيق وحملتها وأنا أحمل مفتاح الخروج من أزمة حقيقية، قبل أن أبدأ الهرولة نحو البيت قال لي الخواجة «منولي» وهو يسحب دراجته نحو دكة عالية كي يستطيع أن يمتطيها «راس بتاعك قوي، قوي شديد». امتطي دراجته وتخطاني بعد أن لكزني على

رأسي قائـلًا: «لكـن كـدا كويـس».

وصلـت إلى البيـت، وكانـت السـاعة قـد تجـاوزت التاسـعة ليـلًا وأمـي أصابهـا مـن القلـق مـا أصابهـا، وحـين خلطـت أمـي الدقيـق داخـل تلـك الخمـارة شـعرت بارتيـاح عميـق، لأني خلصـت مطاعـم كادوقـلي مـن ارتبـاك محتمـل.

معايشة

«السيد/ عميد المعهد العالي للموسيقى والمسرح

الدكتور خالد المبارك المحترم،

أفيدونا بصحة الابن يحيى فضل الله العوض».

كان هذا نص البرقية التي أرسلها والدي من كادوقلي إلى الدكتور خالد المبارك للاطمئنان على صحتي، كان ذلك في منتصف العام ١٩٨٠، وكان المعهد في أول إجازته وكان اتحاد الطلاب ينظم ورشة عمل بداره في العمارات شارع «٥٩» ومن ضمن هذه الورشة كانت جمعية المسرح داخل الاتحاد تشرف على ورشة مسرحية بهدف الخروج منها بعروض مسرحية وكان من ضمن نشاطات التدريبات معايشة، وهي طريقة للانتقال بالشخوص المسرحية من مكان العرض المعروف إلى أماكن حية مثل الأسواق، الشوارع، المقاهي وتجمعات أخرى كبيرة وصغيرة، والمعايشة تعني أن يعيش الممثل الشخصية المسرحية وسط الناس، يتحرك بها بينهم ويتفاعل بها معهم، وقد اختارت الورشة المسرحية أن تكون هذه المعايشة في السوق الشعبي الخرطوم.

في عصر يوم أربعاء على ما أذكر تحركنا إلى السوق الشعبي بالخرطوم، مجموعة مختلفة من طلاب المسرح، وقد بدأت

المعايشـة مـن بـاب الخـروج مـن دار الاتحـاد راجلـين حـتى السـوق الشـعبي، متناثريـن عـلى الطريـق حيـث لا يلاحـظ أحـد أن الأمـر لا يعـدو كونـه تمثيـلًا، هـذه الشـخصيات المسرحيـة الـتي سـتعيش بعـد قليـل حياتهـا وسـط حركـة السـوق الشـعبي، هنـاك طـلاب آخـرون مهمتهـم بمتابعـة الأداء وردود فعـل الجمهـور تجـاه هـذه الشـخصيات ورصـد التعليقـات.

كنـت أتحـرك داخـل شـخصية ذلـك المجنـون الـذي اخترتـه كشـخصية أتعايـش بهـا وسـط الجمهـور، كنـت أتحـرك بـين الأكشـاك والحوانيـت الصغـيرة، صارخًـا تـارة، وهادئًـا تـارة أخـرى. أركـض أحيانًـا وأهمـد وأصرخ في العربـات الواقفـة، أضربهـا بكفـي وأتحـدث معهـا وكأنهـا تفهـم كلامـي، أتحـدث بحرقـة عـن المغتربـين الذيـن خطفـوا مـني حبيبـتي، أغـني بصـوت قبيـح أغنيـات مشـحونة بالعاطفـة، أركـض نحـو موقـف البصـات ويركـض خلفـي أطفـال وصبيـة جذبهـم هـذا المجنـون، وقـد اصطـادوا مـن بـين حديـثي الصـارخ والهـادئ مـرات أخـرى، اصطـادوا كلمـة «ليبيـا» فصـاروا يركضـون خلفـي مردديـن «ليبيـا، ليبيـا» وأنـا أركـض وهـم يركضـون خلفـي وبعـين الممثـل الخفيـة كنـت أتابـع ذلـك فرحًـا بهـذه الجوقـة الـتي تتابـع، وفجـأة مـن بـين هـذا الجمـع المتابـع للمجنـون الـذي كنـت أتحـرك بـه ألمحـه ويـكاد أدائي للشـخصية يضطـرب، ألمحـه وقـد بـدأت الشـفقة تحتـل منـه العيـون، وفمـه مفغـور دهشـة، ألمحـه يتابعـني بـين ذلـك الجمـع وارتبـك، وقفـت تحـت إحـدى الرواكيـب وأحاطـني ذلـك الجمـع وأنـا أدخـل في

مونولوج كثيف لذلك المجنون الذي أتقمصه وعيوني تتابع بخفاء مدرب وجه حسن جارنا في «الملكية» بكادوقلي، ألمحه والحيرة تتجلى في وجهه الطيب، تذكرت أن اليوم الأربعاء وأن قطار الأبيض موعده غدًا الخميس، لذلك عرفت أن حسن جاء إلى السوق الشعبي الخرطوم كي يتسوَّق ثم يعود بقطار الأبيض، أرعبتني هذه الفكرة وعليَّ أن أفكر بطريقة أوصل بها حسن إلى حقيقة المسألة، اقتربت منه وغمزت له بعيني لكنه كان خارج حساسية التقاطي، أشرت له أن يتبعني علِّي أستطيع أن أهمس له بالحقيقة لكن تلك الجوقة كانت تتبعني أينما تحركت وكان عليّ أن أحافظ على تفاصيل شخصية المجنون وأن أحافظ على حسن كي يتبعني حتى أجد طريقة أصل بها حقيقة الأمر وتعقدت في دواخلي المهام وعلمتني تلك التجربة أن أحلل وأحلل في الأداء التمثيلي العلاقة بين التغريب والتقمص، بين نظرية «ستانسلافسكي» «التقمص» ونظرية «برتولد بريخت» «التغريب»، وعرفت أن القدرة على التغريب لا بدَّ أن تكتسب من تجارب عميقة في التقمص، وأن الخروج من الإبهام يحتاج إلى قدر كثيف من التقمص، على كل فشلت تمامًا في إقناع «حسن» بـ «يحيى فضل الله»، وها هو قد ذهب وفي ذاكرته ذلك المجنون الذي تحول إليه «يحيى فضل الله».

يبدو أن تقديري كان سليمًا، فقد سافر حسن بقطار الأبيض في ذاك الخميس، وحين وصل إلى كادوقلي لم يستطع أن يخبر أسرتي بجنوني شفقة منه، لكنه أخبر أصدقاء لي

وآخريـن، عـمَّ الهمـس بجنـوني وكان آخـر مـن سـمع هـو أخـي «عـوض» الـذي أخـبر بـدوره والـدي الـذي أرسـل ذلـك التلغراف إلى عميـد المعهـد الدكتـور خالـد المبـارك.

اسـتدعاني الدكتـور خالـد المبـارك بمكتبـه وقـرأت ذلـك التلغـراف وقـد أصر الدكتـور خالـد المبـارك عـلى سـفري إلى كادوقـلي، لكنـني كنـت قـد ارتبطـت مـع جماعـة السـديم المسرحيـة للسـفر خـلال الأسـبوع إلى مدينـة بورتسـودان لعـرض مسرحيـة «مطـر الليـل» عـلى مـسرح « الثغـر»، ولا مفـر مـن ذلـك لأن العـرض يسـتحيل قيامـه مـن دوني، أرسـل الدكتـور خالـد المبـارك تلغرافًـا مطمئنًـا أسرتي، وفعلـت أنـا كذلـك، وقبـل سـفري جـاءني أخـي «عـوض» مـن كادوقـلي ليتأكـد مـن الأمـر، وأرسـل هـو مـا يطمـئن الأسرة عـليَّ وسـافر معنـا إلى بورتسـودان.

حـين عـودتي إلى كادوقـلي بعـد رحلـة بورتسـودان أقلقـني جـدًّا هـذا السـؤال: «كيـف أقنـع مـن يعرفونـني بكادوقـلي بأنـي سـليم العقـل؟»، وبخاصـة بأنـني مـن نوع تلـك الشـخصيات الـتي يظهر عليهـا شيء مـن اللامبـالاة في اللبـس والتصرفـات أحيانًـا، لأني دائمًـا مـا أكـون في خـارج ثوابـت التعامـل، وأنـه لا يمكـن وصفـي بوصـف خارجـي محـدد كأن تقـول مثـلًا: «أنيـق، لبق، محـترم... إلـخ» حقيقـة أربكـني هـذا السـؤال جـدًّا وبـدأت أفتـش في ذاكـرتي عـن تصرفـاتي العاديـة، وهـل تصلـح كي أكـون في نظـر النـاس عاديًّـا، راجعـت حـركات أطـرافي، مشـيتي، ضحكـتي، إيمـاءاتي،

راجعـت كل شي يتعلـق بتصرفـاتي، ولكنـني لـم أسـتطع إلا أن أزيـد حـيرتي، عـلى كل وصلـت كادوقـلي وأصبحـت أداهـم كل مـن ألتقـي بـه وأحـس بنظـرة ريبـة في عيونـه أداهمـه قائـلًا: «أنـا مـا مجنـون أنـا نصيـح» وزرت كل مـن أعرفـه ولا أعرفـه، أتجـول في كل الشـوارع كي أعلـن وجـودي العاقـل بينهـم، ولكـن مـن الطرائـف، أن لي زميـلَ وصديـقَ دراسـة يعـاني ارتبـاكات نفسـية حـادة مـن أيـام الدراسـة، وقـد تطـورت هـذه الارتبـاكات إلى درجـة انفصـام الشـخصية، والغريـب أنـه ينتقـل مـن شـخصية إلى أخـرى بمهـارة ممثـل حـاذق، حـين يكـون عبـد الكريـم الكابـلي يتقمصـه غنـاءً وحركـة وعزفًـا عـلى العـود، مستشـفى كادوقـلي لـم تعاكسـه مطلقًـا وهـو يتجـول فيهـا كطبيـب، شـوهد مـرة عـلى مـسرح كادوقـلي وهـو يقـود فرقـة موسـيقى البوليـس كمايسـترو بـزي الفرقـة كامـلًا، حـين يكـون كاتبًـا يشـهر أمامـك كتاباتـه، سـمع هـذه الصديـق بجنـوني فجـاء إلى بيتنـا وخطـب أمـام أسرتي خطبـة عصمـاء وكان يتقمـص شـخصية محافـظ للمديريـة قـال فيهـا إنـني مـن أبنـاء كادوقـلي الأبـرار وإن المديريـة سـتتولى أمـر علاجـي في أي مـكان، ولأن أمـي كانـت تعرفـه كمجنـون بكـت بحرقـة، فتخيـل أنهـا تبـكي عـليَّ، فقـاد خطبتـه إلى ذروة دراميـة عاليـة.

قابلـت كل مـن يهمـه أمـري في كادوقـلي واسـتطعت أن أعيـد إليهـم سـلامة عقـلي، ولكـني بحثـت عـن هـذا الصديـق حـتى وجدتـه بمركـز بوليـس كادوقـلي يرتـدي بدلـة كاملـة أنيقـة، ويحمـل في يـده عـددًا مـن الفايـلات، ذهبـت نحـوه لكنـه كان

على عجله من أمره حتى أني ركضت خلفه، وحين كان يحاول أن يقطع الشارع، وصلت إليه، مادًّا يدي نحوه بالسلام، وكان أن نظر إلى بطرف عينيه وتحرك تاركًا يدي في الفراغ، لحقت به، كان صديقي في تلك اللحظة يتقمص دور محامٍ كبير، لحقت به ولكنه أشاح بوجهه عني قائلًا: «روح، أنت خطر على أمثالنا».

هكذا استطعت أن أقنع كادوقلي كلها بسلامة عقلي إلا هذا الصديق الحميم.

طرابيش علي عبد اللطيف

إلى حامد عقب – تحديدًا

«أنا أتحدى

حيث الدفاع يتعدى

وأتهم الحكومة»

قفزت هذه الجملة من ذاكرتي في صباح الخميس ١٧ ديسمبر ١٩٩٨م، صباح شتوي ممطر حيث يجمل البحر الأبيض المتوسط مدينة الإسكندرية، ناوشتني هذه الجملة كي أتلمس علاقتي الحميمة بها، هي جملة حادة من ضمن حوار مسرحي يخص شخصية «المدعي العام» في المسرحية المعروفة جدًّا في المدارس الابتدائية والأولية سابقًا ومرحلة الأساس لاحقًا، تلك المسرحية الصغيرة التي تتحدث عن «علي عبد اللطيف» والمسرحية كانت من ضمن موضوعات كتاب المطالعة

القاضي: اسمك؟

علي عبد اللطيف: علي عبد اللطيف.

القاضي: قبيلتك؟

علي عبد اللطيف: سوداني.

كانت مدرسة كادوقلي الشرقية تستعد لإكمال تحولها من أولية - إلى ابتدائية و بالاشتراك مع مدرسة البندر الأولية للبنات التي كانت هي أيضًا تستعد لهذا التحول، لذلك لا بدَّ من بناء الفصلين الخامس والسادس في كلا المدرستين وبالجهد الذاتي ومن حسن الحظ كان بالمدرسة الشرقية أستاذنا «آدم إبراهيم» الذي أشهر علائق خاصة جدًّا بفن المسرح: جاء إلينا الأستاذ «آدم إبراهيم» من «بخت الرضا» وقد تلقى هناك كمعلم كورسات في المسرح وكذلك أستاذنا «حسن عبد البصير» الذي جاء إلى هذه المدرسة ومعه عدد من الآلات الموسيقية، كمان، أكورديون، عود، طبلة، رق، بنقز. كان الأستاذ حسن عبد البصير مهووسًا بالموسيقي وله إيقاعه الخاص في حركة المدرسة وحتى حركة مجتمع كادوقلي وأذكر أننا كنا نتلصص على الأستاذ حسن عبد البصير وهو يتمايل بشكل ساحر أخاذ في الإنشاد الصاخب الوجد في حضرة البرهانية كل خميس، وما زلت كلما أسترجع في ذاكرتي إنشاد البرهانية أحس بلذة الرز باللبن والسمن البلدي في لساني، من الأشياء الجميلة أن الأستاذ حسن عبد البصير درَّس لنا النوتة الموسيقية خارج جدول حصص المدرسة الرسمي، كانت حصة الموسيقى بالعصريات وبهذا الوجود الفني لهذين الأستاذين إضافة

لاهتمام الأستاذ المربي العظيم مختار المرضي - رحمه الله - مدير المدرسة بمختلف المناشط الثقافية تم تنشيط تلاميذ وتلميذات المدرستين لإقامة حفلات يخصص دخلها لبناء الفصلين الخامس السادس في كلا المدرستين، الأستاذ آدم إبراهيم استطاع أن ينجز معنا ثلاثة عروض مسرحية متنوعة، مسرحية «علي عبد اللطيف»، مسرحية عن مجلس أبي نواس، ومسرحية ثالثة ما زالت فكرتها تراود مخيلتي كي أنشبك معها في عرض، المسرحية أسمها «منكر ونكير» وهما يقذفان بأسئلتهما تجاه الموتى، كان هؤلاء الموتى يرقدون على خشبة المسرح أو بالأحرى على مسطبة المسرح ومنكر ونكير يتجولان بينهم مواصلين ذلك التحقيق، ولأن الموتى لا يتكلمون، فكانت حكايات هؤلاء الموتى تروي بواسطة منكر ونكير، ومن ثَمَّ تتنوع شخصيات الموتى في المواقف والأفعال الخيرة والشريرة، لا أنسى، كيف كان الأستاذ آدم إبراهيم يُصمِّم أزياء «منكر ونكير»، كنت أستمتع بتلك التفاصيل، وخاصة تفاصيل صنع أجنحة لكل من الملكين، كنت أنا أؤدي دور «منكر» وصديقي آدم سحنون يؤدي دور «نكير» كانت هذه الحفلات ناجحة من حيث الدخل المادي ومن حيث الفنية الجيدة والتي تنوعت بين الغناء والاستعراض مثل «يا بساط الريح طير بينا» والمسرحيات والأناشيد الجماعية والمونولوجات الفكاهية والإلقاء الشعري، ما زلت أسمع عذوبة تلك الأصوات النقية لتلاميذ المدرسة الشرقية وتلميذات مدرسة البندر وهم يغنون أغنية «الصباح

الجديد» للشاعر المعروف أبو القاسم الشابي، كانوا يغنونها بذلك اللحن الجميل الذي وضعه الملحن المتميز ناجي القدسي وكان يؤديها الفنان «حمد الريح»

«في فجاج الردى

قد دفنت الألم

ونثرت الدموع

لرياح العدم»

كانت هذه الأغنية – طبعًا - من اختيارات الأستاذ حسن عبد البصير، ترى أين هو الآن؟ آخر ما أعرفه عن الأستاذ آدم إبراهيم أنه كان يعمل كمدرس طريقة في بخت الرضا، لكن هل ما زالت بخت الرضا موجودة ذلك الوجود المثمر في نسيج مهام التعليم الجليلة؟

ها هم تلاميذ مدرسة كادوقلي الشرقية في المسافة بين السينما ومدرسة البندر، حيث يقام احتفال بناء الفصل السادس بعد تجربة احتفال سابقة أنجزت الفصل الخامس بالمدرستين، كان التلاميذ ينقلون كراسي السينما التي كانت معطلة وقتها، ينقلون تلك الكراسي الثقيلة بهمة عالية، كان الوقت عصرًا وكنت مهمومًا ومنشغلًا ومعي الأخ الصديق «حامد عقب» الآن هو دكتور محاضر بكلية البيطرة بجامعة الخرطوم - كنا مشغولين بتصميم عدد من الطرابيش

الحمـراء الـتي سنسـتخدمها في مسرحيـة - عـلي عـلي اللطيـف - كنـا قـد حملنـا الـورق المقـوى الملـون بالأحمـر وتوغلنـا في جنينـة المدرسـة، كانـت لنـا جنينـة جميلـة يـشرف عليهـا عمنـا «البلـه»، جنينـة كبـيرة بهـا أشـجار الجوافـة والمانجـو والقشـطة والبابـاي، كانـت الجنينـة تتسـع لنشـاطات عـدة، حصـص التربيـة البدنيـة، بنـاء مدينة الرشـيد – بغـداد - بالطـوب الصغير الـذي نصنعـه بقالـب مـن علـب الكبريـت ونعـوج الملاعـق محولـين إياهـا إلى مسـطرينة، إضافـة إلى براحـات خاصـة للعـب ولخيـالات نسـتدعي فيهـا طـرزان ونغـرق في تفاصيـل معـارك متخيلـة بـين الأشـجار، في الجانـب الخلفـي لتلـك الجنينة جلسـنا تحـت أشـجار - الأنجـل - مسـتخرجين مادتـه البيضـاء اللاصقـة كي ندهـن بهـا أطـراف الـورق المقـوى، مـن حيـث كنـا نجلـس مسـتمتعين بتفاصيـل عمـل وتصميـم الطرابيـش كنـا نـرى التلاميـذ يذهبـون بالكـراسي وبعضهـم يرجـع لينقـل دفعـة أخـرى مـن الكـراسي، كـسرب النمـل يلتقـون في تلـك المسـافة ويوزعـون صخبهـم وضحكاتهـم ومداعباتهـم مغالبـين ذلـك التعـب، هـا هـو حامـد عقـب ينتهـي مـن عمـل طربـوش واحـد، بينمـا أحـاول أن أنتهـي مـن الطربـوش الـذي بـين يـدي بلصـق الغطـاء الدائـري عـلى قمـة الأسـطوانة الورقيـة، كان أسـتاذنا آدم إبراهيـم يـشرف عـلى عمليـة نقـل الكـراسي، يذهـب مـع فـوج ويرجـع مـع فـوج آخـر، يـوزع تحريضـه للعمـل وبـث الحمـاس فيهـم، كان نحيفًـا، خفيـف الحركـة، دائـب النشـاط، بينمـا نحـن منهمـكان بعمـل تلـك الطرابيـش لمحنـا أسـتاذ آدم

إبراهيم وهو يتحرك في اتجاهنا، حين وصل إلينا كنا نتوقع أن يفرح بما كنا نعمل فيه، لكننا تفاجأنا به وهو يصرخ في وجوهنا ويتهمنا بالزوغان من عملية نقل الكراسي.

«لكن يا أستاذ نحن قاعدين نعمل في طرابيش المسرحية».

«سيبوا الحاجة البتعملوا فيها دي، اتحركوا وانقلوا الكراسي زيكم وزي كل الناس».

«لكن يا أستاذ الطرابيش دي برضو مهمة عشان المسرحية».

انفعل الأستاذ آدم إبراهيم وأعلن لنا أن ما تقوله هو مجرد «لماضه» وأجبرنا على التحرك إلى نقل الكراسي، كان حامد عقب مندهشًا وكنت مغتاظًا جدًّا الأمر الذي جعلني أقرر التمرد على كل ذلك الاحتفال، وكنت أشارك في أكثر من فقرة من فقرات الحفل، أؤدي مونولوج – السكر - كصوت أساسي، أشارك في الثلاث مسرحيات وكان حامد عقب يساوي مشاركاتي، لذلك تآمرنا على ذلك الحفل وهربنا من نقل الكراسي وحملنا طرابيشنا التي كدنا ننتهي منها معنا، واختفينا متسكعين في الشوارع والمقاهي في الوقت الذي يجب أن نكون فيه في مدرسة البندر، حيث يقام الاحتفال وأن نكون مستعدين لبداية الاحتفال.

أقلق غيابنا المتمرد ذاك الأستاذ؛ الأستاذ آدم إبراهيم ، بحث عنا في بيوتنا، بحث في كل مكان يمكن أن نكون فيه، وقبل أن يتأخر الاحتفال عن موعد بدايته وجدنا ونحن نجلس في

قهوة الإخلاص، ويبدو أنه قرر أن يكون حكيمًا معنا، وقد أحس بأن فعلنا هذا وراؤه نوع من الاحتجاج المبرر، لم يمارس معنا أي نوع من الصراخ الذي فعله حين كنا نصنع الطرابيش وبهدوء من يريد أن يبحث عن ذلك التماسك الذي يجب أن يسود الاحتفال والذي سيؤدي تمردنا إلى نوع من الربكة والارتباك، قادني الأستاذ آدم إبراهيم بيده إلى منى وحامد عقب باليد الأخرى، تحدث معنا بطريقة ودودة وأعادنا إلى مكان الاحتفال المكتظ بالجمهور، وأدخلنا بتلقائية إلى حيث يجب أن نؤدي مهامنا تلك الفنية وكان الاحتفال ناجحًا.

في اليوم التالي وفي طابور الصباح أُعلِنت أسماؤنا، وبعد خطبة قصيرة عما فعلناه بالأمس وإدانة ذلك السلوك، تحملت أجسادنا عشر جلدات معلقين حد التأرجح بين «أربعة كبار»، بعد ذلك نادانا الأستاذ آدم إبراهيم إلى مكتبه وقال لنا إن ما فعلناه بالأمس ظاهرة خطيرة، لكنه همس لنا بطريقة تعلن انتماءه إلى هذا التمرد الصغير: «لكن أنا برضو معجب جدًّا بالزوغة دي، انتو مفروض تعملوا الطرابيش وهي فعلًا مهمة».

توتو كورو
ينسج إيقاع نومه

تك تاك تك

تك تاك تك

تك تاك تك

تك تاك تك

تك تاك تك

تك تاك تك

على إحدى برندات السوق الكبير كان توتوكورو يحاول بهذه الأصوات يستدعي النوم، عادة ما يفعل ذلك، يجلس كما اتفق، هي جلسة أهم ما فيها أن تكون العصا أو عود ناشف أو قطعة خشبية مثبتة على الأرض ما بين القدمين الممدودتين باتساع معقول مثبتة علي شكل عمودي، تلك العصا أو غيرها يمسكها بيده اليسرى، في حين أن اليمنى تحدث ذلك الصوت المألوف حين تضرب بعصا أخرى على العصا العمودية التي بين القدمين ، دائمًا يضرب توتو كورو تلك العصا بأخرى. يبدأ بالضرب من أسفل إلى أعلى ومن

أعلى إلى أسفل، ويتشكل ذلك الجسم العاري تمامًا وفقًا لإيقاع تلك الضربات:

تك تاك تك

تك تاك تك

تعلو الضربات وتنخفض وبين الارتفاع والانخفاض يتداخل النعاس، يتمايل توتوكورو مع إيقاع الضربات، يتمايل وتفقد العصا التي بين القدمين عموديتها تميل مع تمايل جسمه مع الضربات حتى يستقر مرقده على الجنب الأيسر، وحين يبدأ صوت الضربات في التلاشي، ذلك الممرحل، عادة ما يكون صوت الضربات عاليًّا من ثَمَّ يبدأ في الانخفاض التدريجي إلى أن يتلاشى، حينها يكون توتوكورو قد دخل عوالم نومه العميق ذلك النوم المستدعى بذلك الإيقاع المميز.

تك تاك تك

تك تاك تك

يحدث ذلك النوم في أي مكان في المدينة ، على برندات السوق الكبير ، تحت رواكيب السوق البره، تحت ظل أو نيمة أو هجليجة، أمام المقاهي والمطاعم.

أمام زريبة العيش بالقرب من طاحونة منولي، بين الدروب والأزقة الصغيرة وفي الأحياء والشوارع الرئيسية داخل المدينة

حتى إن السيارات لا تملك إلا أن تحترم هذا النائم العظيم فتخرج عن الشارع بأقل ما يمكنك من إزعاج.

يحدث ذلك النوم في أي مكان بالمدينة متى ما رغب في ذلك ووقتما شعر بالحاجة إلى النوم ، في حي السوق، في الملكية ، الرديف، البان الجديد ، كليمو، تافري، حجر المك، قعر الحجر، حجر النار، حي الفقراء، السمة، أم بطاح، مرتا، كلبا، حي الموظفين، العصا صير، حي الإنجليز، الأشلاق، في أي مكان، متى شعر بتلك الرغبة، يجلس كما اتفق، يباعد بين قدميه ويعزف على العصاتين وإذا لم يتوفر له ذلك سيتبدل العصي أو الأعواد بحجرين وبعدها ينسج إيقاع نومه.

تخرج نوبة القادرية من البان جديد وتدور بصخبها الممتع حول الحي والأحياء القريبة ويكون «توتوكورو» ممتزجًا مع تلك الزفة بكل حيويته لا يملك ألا يعبر بتلك الصرخات التي جانبت لغة الناس العادية.

حين تفرقع سياط راقصي الكمبلا المنتشرين في المدينة في مواسم الحصاد، الرجال بقرون الثيران على الرؤوس، والنساء والبنات بأصواتهن الرقيقة العذبة يكون «توتوكورو» قد رقص مشاركًا برقصة تعبيرية لا تتقيد على الإطلاق بقواعد رقصة الكمبلا.

حين يكون عمي «القديل» في إحدى موجاته الخصوصية

يجـوب المدينـة نافخًـا عـلى القـرن ملونًـا أثيرهـا بنغماتـه المألوفـة، «توتوكـورو» لا يملـك إلا أن يركـض وراء «القديـل» وقرنـه أينمـا ذهـب وكأن نغمـات القـرن لا تفتـأ تناديـه.

خـرج مـرة لـورى إسـماعيل ضجضـج مـن قعـر الحجـر متجهًـا إلى «حجـر النـار» كان إسـماعيل ضجضـج محتشـدًا بالطـرب كمـا يجـب، إذ كانـت دلوكـة بنـات «قعـر الحجـر» المعروفـة بتراكيبهـا العذبـة قـد أضفـت عـلى رزاز ذلـك المسـاء الخريفـي طعـم التألـق والفـرح، حـين مـرت هـذه السـيرة الـتي يقودهـا «أسـماعيل ضجضـج» بطربـه المميـز عـلى مقربـة مـن سـوق الملكيـة، كان وقتهـا «توتوكـورو» يـأكل «الهالـوك» وحـين التقطـت أذنـاه أصـوات البنـات الـتي كانـت تغـني بلكنـة محببـة.

قصدك قصدك

مشتاقين ما لقو

قصدي فوق السجائر

ولع لي نحرقو

قـذف «توتـو كـورو» بالهالـوك أرضًـا وصرخ صرختـه التعبيريـة وركـض نحـو لـوري السـيرة، كان يجـري خلـف اللـوري ويهـزم غنـاء البنـات والدلوكـة فيـه أي شـعور بالتعـب، جـرى خلـف اللـوري مـن طـرب حـتى «حجـر النـار».

وفي المناسـبات القوميـة حيـث تتنـوع الرقصـات الشـعبية عـلى

ميدان «الحرية» يأخذ «توتوكورو» من كل رقصة بنصيب، ولكن على طريقته الخاصة.

أنغام «الجالوه» التي تنبعث من هنا وهناك في شكل حفلات رقص صغيرة كانت الجبال التي تحيط بالمدينة من كل جانب تحتضن هذه الأنغام، ومن ثَمَّ توزعها إلى حيث يمكن للصدى أن يذهب، كذلك كان «توتوكورو» يتجول هنا وهناك بين هذه الحفلات الصغيرة، ولا ينسى أن يعلن طربه الخاص.

«توتو كورو» له ذلك الحضور الاجتماعي المكثف ليس في الأفراح فقط، لكن في كل التفاصيل الاجتماعية، لا يذكر أحد أن «توتوكورو» قد غاب عن كل التظاهرات الصغيرة والكبيرة والمفرحة والمحزنة الشعبية والرسمية أصبح مألوفًا بعريه المطلق، يعرف الناس معاني صرخته، يفهمونها ومن ثَمَّ يستجيبون لرغبته، لم يحدث مطلقًا أن غاب «توتوكورو» عن الحضور في دفن من مات أينما كان الدفن في مقابر البان جديد، في السمه، في كليمو، في حجر المك وحي الفقراء كان يأتي إلى المقابر ويصرخ صرخة ذات أنين متميز تختلف عن كل صرخاته، ولا يذهب حتى تنتهي مراسم الدفن.

يمتلك «توتوكورو» كل المدينة يتصرف فيها كيف يشاء لا تنافسه في هذه الملكية ألا أشجار النيم، يأكل متي يريد ويأكل ما يريد، لا يتقيد بنوع من الطعام، يأكل اللحوم وهي غير مطهية، يقف «توتوكورو» أمام زنك الجزارة كل

صباح ويلتهم اللحم والكبد من علي ترابيزة «أبو شيبة» أو «أحمد طويل»، يأكل كل ما يشاء له ويصرخ معبرًا عن شكره ويذهب بعدها إلى زنك الخضار والفواكه، ويأكل كل ما يريد وينطلق إلى حيث يشرب «المريسة» أو «العسلية»، وهنا الأمر متروك إلى حيث خياراته الكثيرة، رغم كل ذلك لم يعرف جسد «توتوكورو» العاري المرض، تغسله الأمطار وتجففه الشمس ، يتحمل هذا الجسد كل حرارة صيف كاد قلي المعروف، كما يتحمل البرد وزيفة الخريف، لا يلاحظ عليه تقدم العمر ولا يفرط مطلقًا في حيويته العالية التي تعلن وجوده المكثف داخل المدينة التي أصبح من أهم رموزها.

كانت بصات «أبو رجيلة» تتهادى بلونها الأصفر المميز على تلك الشوارع داخل المدينة التي سلفتت، أخيرًا أصبح لمدينة كادوقلي دار رياضة، بالرغم من أن هناك جانبًا من تلك الدار قد انهار والسبب التلاعب في الأسمنت ، هكذا تقول الشائعة ، الكهرباء استطاعت أن تهزم تلك اللمبات الحميمة التي شهدت على كل التآلف في أحياء المدينة، الطلاب والتلاميذ مشغولون بفاعليات احتفالات أعياد استقلال. مصنع نسيج كادوقلي يستعد لبدء العمل، بُنِيَ مسرح وأطلق عليه اسم المسرح القومي. بُنِيَ قصر للضيافة في مدخل المدينة، المدخل تتعانق فيه الأشجار حريصة على عدم تسرب ضوء الشمس، بُنِيَتْ قرية نموذجية، في تحولها من محافظة إلى مديرية كانت كادوقلي بكل تفاصيلها

تستعد لاحتفالات السودان بأعياد الاستقلال، كان ذلك في العام ١٩٧٦م، في ذلك العام وقع الاختيار على كادوقلي كي تكون مكانًا لهذا الاحتفال حسب خطة الحكومة آنذاك في أن تستثمر أعياد الاستقلال كمناسبة تتيح للمدن الصغيرة أن تنمو وتتطور إلى الأمام.

في أحد اجتماعات اللجنة العليا للاحتفالات بعد أن اطمأنت اللجنة على التفاصيل انتبه أحد أعضاء اللجنة لأمر هام، ومن باب حرصه على مظهر المدينة العام أمام الزوار والضيوف الأجانب، انتبه ذلك العضو المحترم ونقل ذلك الانتباه الخطير إلى اللجنة قائلًا: «طبعًا نحن عندنا ضيوف من دول أجنبية حتحضر الاحتفالات مع السيد الرئيس عشان كدا بشوف حقو نحن نكون حريصين على مظهر المدينة ومن باب هذا الحرص أنا بقترح انو زول زي «توتوكورو» دا نحاول نبعدو عن المدينة في أيام الاحتفالات لانو دي عورة واضحة».

ـ والله دي ملاحظة جديرة بالاحترام واهتمام ـ

ـ نحن حقو ما نبعده من المدينة حقو نشوف حل تأني ـ

ـ يا أخونا خلونا في المهم ـ

ـ لا أنت بتفتكر المسألة دي مش مهمة ـ

ـ والله يا أخونا موضوع توتوكورو حقوا نعالجو بي حكمة ـ

ـ والله أنا افتكر حقو نعتقلو ـ

ـ نعتقلو؟ كيف؟ ـ

وهكذا في احتفالات السودان في مدينة كادوقلي قررت اللجنة العليا للاحتفالات اعتقال المواطن «توتوكورو» اعتقالًا تحفظيًّا لحين انتهاء الاحتفالات.

وسط دهشة الحاضرين لذلك الحدث قُبِضَ على «توتوكورو» من قبل رجال الشرطة أمام زنك الخضار قبل ثلاثة أيام من بداية الاحتفال كان وقتها «توتوكورو» كعادته في كل صباح يتهيأ لتناول وجبة من الخضراوات والفواكه، حين قُبِضَ عليه صرخ صرخة مختلفة عن كل صرخاته، ولأول مرة عرف الناس أن لـ «توتوكورو» صرخة تعلن الرفض، انتشر خبر الاعتقال في كل المدينة، حاول البعض الاحتجاج، استغل أحد الأحزاب السرية هذا الاعتقال، واستطاع أن يسرب بيانًا شديد اللهجة بين الناس، يتحدث البيان وبشكل مباشر عن الاعتداء على الحريات.

«توتوكورو» داخل السجن أضرب عن الطعام، رفض أن يأكل أو يشرب واستمر في ممارسة صرخاته الغريبة.

سقط أحد حوائط دار الرياضة التي شُيِّدَتْ ضمن إنجازات الاحتفالات، انحرفت عربة مدير البوليس عن الشارع إثر انفلات الدركسيون لتصطدم بشجرة لبخ ضخمة، عضو لجنة الاحتفالات الذي انتبه لأمر «توتوكورو» تسمم بعشاء الليلة

السابقة الدسم وحُجِرَ في المستشفى، تم تأجيل عدد من الأعراس والمناسبات الخاصة لحين خروج «توتوكورو» من المعتقل، أُحيلت كل الحوادث السابقة إلى سبب وحيد وهو اعتقال «توتوكورو» وانتشرت بين الناس فكرة أنه شخصية غير عادية، شخصية خارقة، وجنحت بعض التفسيرات وأعلنت أن «توتوكورو» من أهل الباطن.

واصل «توتوكورو» الإضراب عن الطعام ولم يتخل عن صراخه وتخلى تمامًا عن طقسه الإيقاعي الباحث عن النعاس.

اضطرت اللجنة العليا للاحتفالات أن تجتمع بخصوص أمر «توتوكورو» إثر الأحداث التي حدثت بعد اعتقاله، وخاصة أن عدم عادية هذه الشخصية قد أصابت أعضاء اللجنة بخوف ميتافيزيقي غير مضمون العواقب، ناقش الاجتماع وبجدية شديدة إضرابه عن الطعام ومحاولة استغلال اعتقاله سياسيًّا من قبل بعض الجهات، ما قد يؤثر في الاحتفالات لذلك قرر الاجتماع أن يطلق سراح «توتوكورو» شريطة أن تفصل له ملابس تكسو عريه وتمتاز بالمتانة.

وفي مساء اليوم السابق للاحتفالات أدخل «توتوكورو» في سجن من الملابس المفصلة من قماش الكاكي المتين وأخرج من السجن، حين خرج «توتوكورو» من المعتقل لم تبدو عليه الفرحة بسبب تلك الملابس، كان ما يزال يصرخ معلنًا رفضه، خرج «توتوكورو» يحمل سجنه في بدنه، لذلك ابتعد

قليلًا عن ذلك المكان اللئيم، المكان الذي رفض فيه الأكل والشراب وبكل قوته مزق تلك الملابس التي تكومت أمام قدميه وخرج منها صارخًا صرخة منتصر عظيم، وركض نحو السوق، أكل، شرب، وبحث عن عصاتين وجلس أمام إحدى الفرندات وامتلأ الليل بذلك الإيقاع العذب الذي يبحث عن النعاس.

تك تاك تك

تك تاك تك

تك

تاك

تك

تك

تاك

تك

وتد العم زكريا

طرقـات عنيفـة ومنفعلـة عـلى البـاب، كان البـاب مـن الزنـك، أكـثر مـن أربـع طرقـات متتاليـة، كان ذلـك فيما بعـد الخامسـة صباحًـا وجدتـني أصحـو متململًا وقـد أيقظتـني الطرقـات، وحـين سـمعت خطـوات والـدي تتجـه نحـو البـاب حاولـت العـودة إلى النـوم، ولكـن هـا هـي خطـوات والـدي تتجـه نحـوي فمسـني هاجـس أن زيـارة خاطفـة لمـلاك المـوت حدثـت في الليلـة الماضيـة.

«قوم شوف زكريا دا عايزك»، لكزني والدي في ذراعي.

«زكريا؟ زكريا منو؟».

«عمك زكريا، زكريا الحداد».

«معقول عايزني هسه؟ مالو؟».

«أهو واقف بي عجلتو قدام الباب منتظرك».

وكان أن واجهـت صباحًـا صاخبًـا حـين وصلـت العـم «زكريـا» لأنـه مـا إن رآني حـتى صرخ في وجهـي: «قلـت لي بتلـف؟ امبـارح

بالليـل دقيـت وتـد في نـص البيـت صحيـت الصبـاح لقيتـو مـا تحـرك مـلي، أهـا برضـو قـولي لي بتلـف، أنـا بعـد الشـغل بجيـك ونمشـوا البيـت عشـان تشـوف الوتـد بنفسـك، قلـت لي بتلـف؟ بتلـف؟».

ورفـع رجلـه اليمـنى عـلى البـدال وتحـرك بدراجتـه مبتعـدًا عـني، دار بالدراجـة في اتجاهـي مـرة أخـرى وحـين اقـترب مـني، أنـزل رجلـه اليمـنى مـن البـدال ونظـر إليَّ نظـرة غريبـة بعدهـا فـرك إبهاميـه عـلى سـبابتيه معـبرًا عـن لـفِّ السـيجارة قائـلًا: «بتلف؟» واسـتدار بدراجتـه يسـارًا ومـضي.

عـادة مـا يـشرب العـم «زكريـا» قهوتـه الصباحيـة في مقهـى ومطعـم «أولاد الدقـوني» في السـوق «الـبره»، بعدهـا يتوجـه إلى برنـدة الحداديـن جنـوب زريبـة العيـش حيـث يبـدأ في الترتيبـات الأولى مـن إشـعال النـار وتجهـيز العـدة وجـوزي الكـير، كان العـم «أحمـد طويـل» حـين يريـد أن يغيـظ العـم «زكريـا» يناديـه بـ»نافـخ الكـير» فينافحـه العـم «زكريا» مسـتعينًا بأصداء قرآنيـة عـن أهميـة الحديـد، ومـن ثَـمَّ أهميـة الحـداد وأن القرآن الكريـم أفـرد للحديـد سـورة وكانـت شـلة «الكوتشـينة» تسـتلذ بهـذه المشاكسـات قبـل بدايـة اللعـب يكرهونهـا في أثنـاء اللعـب لأنهـا قـد تـؤدي إلى الفركشـة وحـردان اللعـب، ومـا زالـت شـلة «الكوتشـينة» تذكـر كيـف أن العـم «أحمـد طويـل» قـد قـال للعـم «زكريـا» في أثنـاء اللعـب وقـد كان العـم زكريـا يتلـكأ في رمـي «البايـظ».

«ما ترمي بايظك يا نافخ الكير».

فكان أن فركشت شلة «الكوتشينة» ولم تجتمع للعب أكثر من أسبوعين، ولكن سرعان ما عادت الشلة بعد أن حُذِّرَ العم «أحمد طويل» من التفوه بجملة «نافخ الكير» في أثناء اللعب، ولكن المودة وصفاء النية بين العم زكريا والعم «أحمد طويل» تبيح للأخير أن ينادي صديقه بـ»نافخ الكير» وتبيح للعم «زكريا» أن ينادي العم «أحمد طويل» بـ» بتاع الكرشة والمصارين» لأن العم «أحمد طويل» كان يعمل في زنك الكرشة، لا أدري متى انضم العم «زكريا» إلى شلة «الكوتشينة» وأنا لم أره في أوقات قديمة للشلة، أعرف ذلك لأن الشلة هم أصدقاء والدي - «أبو التايه» - كما يحلو للشلة أن تناديه، ربما انضم العم «زكريا» إلى الشلة في منتصف السبعينيات، إذ أصبح مركز الشلة تحت ظلال أشجار النيم التي بالقرب منزل العم «حسن خير السيد» في بداية حي «الملكية» غرب مكاتب وقاية النباتات قبلها كان مركز الشلة منذ بداية الستينيات على برندة مقهي ومطعم والدي في السوق الكبير مجاورًا لفرن العم «إدريس»، وهناك مراكز أخرى مدسوسة هنا وهناك بين حي «السوق» وحي «الموظفين» وقد تصل إلى فوق الجبل في براحات وادي «لوفو» الخضراء وإلى رواكيب حي «الرديف» و»الملكية» حسب نوع الطقوس المختلفة باختلاف المناسبات التي تلعب فيها «الكوتشينة»، كنت أقلب في ذهني كل هذه العلائق عن العم «زكريا» وأنا أشرب شاي الصباح لأن

مداهمته لي الصباحية هذي جعلتني أنا ابن الثانوية العامة وكنت وقتها مقبلًا على آخر مراحلها وكنا في إجازة الخريف، جعلتني مداهمة عم «زكريا» الصباحية والثقة التي تحدث بها عن الوتد، أفكر في عقله البسيط وأعجب بالمثابرة العملية التي جعلته يستعمل فكرة الوتد لإثبات ما يصر عليه ويجوس صوته الرنان في دواخلي: «امبارح بالليل دقيت وتد في نص البيت صحيت الصباح لقيتو ما تحرك ملي».

في المساء قبيل المغرب جاءني العم «زكريا» وهو عائد من عمله في برندة الحدادين وأصر على ذهابي معه إلى بيته حتى أتأكد بنفسي من أمر ذلك الوتد، حاولت التملص من هذا المشوار بحجة أنني لا أستطيع أن أرافقه وهو على دراجته، وأكون أنا ماشٍ إلى جانبه لكن العم «زكريا» كان قد أعدَّ كل شيء فقد ترجَّل من دراجته وتكلها على الصريف، وسرعان ما عاد وهو يقود دراجة أخرى من بيت جارنا «الحاج موسى».

«دي عجلة بس بعدين ترجعا لي جدو»

قذف لي بالدراجة واعتلى دراجته وتبعته لكن العم «زكريا» لطعني أكثر من عشرين دقيقة وكنت وقتها أمتلك ساعة «جوفيال»، لطعني في كنتين «الملكية» وهو في غلاط مع «حمدون اب شبك» عن «بت الديناري» التي أطاحت بـ»الشريف اب كرنك» في عشرة الكوتشينة السابقة وأصول لعبة الكونكان، ولا أملك إلا انتظاري حتى أتخلص من مغبة مداهمة صباحية أخرى، عبرنا مقابر «البانجديد»

والعم «زكريا» يتحدث مفتخرًا بفكرة الوتد ومستلذًّا بفكرة و»جعلنا الجبال أوتادًا»، فتعليم العم «زكريا» لم يتعد الخلوة ومن بين حديثه المنفعل وصفني بأنني «ولد فنطوط ما عارف حاجة» وعرج بي العم «زكريا» إلى دكان في «البانجديد»، اشترى جازًا أبيض وطحينة للأولاد، ومن حسن الحظ كنا قرب البيت فدخلنا بالدراجتين، تكل العم زكريا دراجته على الصريف وفعلت، أجلسني على سرير مفروش في الراكوبة ودلف إلى داخل البيت، ولطعني هناك أكثر من عشرة دقائق - الساعة الجوفيال - وعاد يحمل لي كوبًا من عصير ليمون فاتر البرودة، فوجدتني أحمل كوب الليمون وأتبعه نحو الجانب الآخر من الحوش خلف الراكوبة، وأشار العم «زكريا» بسبابته، إذ غرز الوتد في الأرض وصرخ في وجهي صرخاته الرنانة: «أهو دا الوتد ما اتحرك ملي وبرضو قولي لي بتلف، بتلف؟».

ما حدث هو أن العم «زكريا» قد داهم مجلسنا في عزومة زواج بحي «الملكية» ونحن أنداد أصدقاء نتداول فيما بيننا معلومات حول الأرض والشمس والنجوم والمجرات، وحين ذكرت متلذذًا بالفكرة أن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس، صرخ العم زكريا بصوته الرنان: «بدور؟ يعني شنو بدور؟».

واستخدمت سبابتي بحركة تعبر عن الدوران وقلت: «بدور، يعني بتلف حول نفسها وحول الشمس».

«بتلف؟»

«أيوا بتلف»

وتذهب رنة صوت العم «زكريا» إلى كثافة في التهكم من الفكرة، ويهز رأسه بطريقة غريبة ويردد متسائلًا: «بتلف؟ بتلف؟ بتلف؟ بتلف؟» كانت كثافة التهكم في نظرات العم «زكريا» كفيلة بأن نصمت ولا نرد عليه، وهو ينفجر فينا بصرخاته الرنانة ويتهمنا بالجهل والجاهلية ومتابعة خزعبلات الخواجات، وخصني أنا وحدي بعدد من الصفات أهمها أني ضلالي وضليل، وقد كانت لصرخات العم «زكريا» الرنانة المحتجة على فكرة دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس جمهور من معازيم الغداء، وأصبحت تلك الضجة نوعًا من التسلية، لكن يبدو أن صرخات العم «زكريا» الرنانة كانت جادة بما يكفي كي أكون أنا الآن أمام الوتد نفسه، الوتد الذي غرزه العم «زكريا» كي يثبت لي أن الأرض لا تلف، نقف نحن الآن، أنا والعم «زكريا» وتحتنا الوتد وحين كنت أتفكر في فكرة ما الذي يهم العم «زكريا» إذا كانت الأرض بتلف أو ما بتلف يأتيني صوت العم «زكريا» واضح الرنات كي يضعني في مأزق آخر: «يا ود يا فنطوط، الأرض دي لو بتلف كنا نحنا وقعنا من فوقا وكان موية الدنيا كلها اتدفقت، قلت لي بتلف؟ بتلف أنتا» ولم ينس العم «زكريا» أن يفرك إبهاميه على سبابتيه معبرًا عن لف السيجارة، طبعًا أنا لا أستطيع أن أغامر وأشرح للعم زكريا قانون الجاذبية، لأن

الوتـد كان قـد انغـرس في مخيلـة العـم «زكريـا».

في مـا بعـد الخامسـة صباحًـا، خبطـات مسـتعجلة ومنفعلـة على بـاب الزنـك، أيقظتـني الطرقـات عرفـت أنهـا مداهمـة أخـرى صباحيـة للعـم «زكريـا» فقـد تركتـه البارحـة دون أن أنـزع وتـد تسـاؤلاته حـول دوران الأرض، نهضـت، وصلتـه حافيًـا، كان عـلى دراجتـه ورجلـه اليمـنى عـلى الأرض، وكانـت نظراتـه تشـع بلـذة اكتشـاف أخـرى، ولـم يهتـم حـتى بـ «صبـاح الخـير» فداهمـني قائـلًا «سـيبنا الوتـد، امبـارح بعـد مـا أنـت مشـيت أنـا ختيـت كوبايـة مويـه، كوبايـة ألمنيـوم خفيفـة، ملانـة مويـة، هسـه الصبـاح جيـت لقيـت قطـرة مـن المويـة مـا ادفقـت وكوبايـة الألمنيـوم مـا اتحركـت مـن مـكان، برضـو بتقـول لي بتلـف؟ بتلـف؟ بتلـف أنتـا»

وفـرك إبهاميـه عـلى سـبابتيه ووضـع رجلـه اليمـنى عـلى البـدال بثقـة مفرطـة ودار بدراجتـه في دائـرة صغـيرة واتجـه يسـارًا واختفـى.

ارتباكات التفاصيل الحرجة

لأكثر من شهر لم يكن الوالد يستطيع النظر في عيني الابن.

لأكثر من شهر لم يكن الابن يستطيع النظر في عيني الوالد.

لأكثر من شهر كان الوالد حين يدخل البيت يخرج منه الابن.

لأكثر من شهر كان الابن حين يدخل البيت يخرج منه الوالد.

لأكثر من شهر كان الوالد يتحاشى الابن والابن يتحاشى الوالد.

لأكثر من شهر كان يحدث ما يحدث بين «قسم السيد النعيم» المهندس الميكانيكي بالمحلج التابع لمؤسسة جبال النوبة الزراعية، وبين ابنه عطا الطالب في الصف الثاني في مدرسة كادوقلي الثانوية العليا «تلو».

لأكثر من شهر كان كلاهما يهرب من الآخر.

لاحظـت علويـة زوجـة «قسـم السـيد» ووالـدة عطـا هـذه الهروبيـة الواضحـة وهـذا التفـادي المعلـن إلى درجـة أنهـا افتقـدت نوعًـا مـن ذلـك الإحسـاس بالسـعادة، حـين كان «قسـم السـيد» يحـكي لابنـه حكايـات متفرقـات متنوعـات عـن طفولتـه وصبـاه في الصعيـد ، كان ذلـك يحـدث دائمًـا وهمـا يرتشـفان شـاي مـا بعـد الغـداء.

لاحظـت علويـة ولأكـثر مـن شـهر أن صينيـة الغـداء قـد فشـلت تمامًـا في أن تجمـع بـين الوالـد والابـن، وجبـة الغــداء هــي الوجبـة الوحيـدة الـتي تجتمـع فيهـا الأسرة وحـين تسـاءلت ذات غـداء ابنتهـا زلفـى عـن حالـة كـون عطـا غائـب دائمًـا عـن وجبـة الغـداء لاحظـت علويـة ارتبـاك «قسـم السـيد»، وذلـك حـين ارتجفـت يـده وسـقطت منـه اللقمـة ليتسـخ جلبابـه الأبيـض بلزوجـة مـلاح الـورق الأخـضر، فـكان هروبـه مـن المائـدة، وعرفـت علويـة أن «قسـم السـيد» قـد هـرب مـن تسـاؤل زلفـى الـتي لاحظـت أيضًـا ارتبـاك والدهـا، فهمسـت لأمهـا: «يمـه هـو في شـنو؟»، فـردَّت علويـة وهـي تتابـع هـروب قسـم السـيد بحـيرة واضحـة في عينيهـا «يخربـني يـا بـتي كان عارفـة حاجـة».

المـرة الوحيـدة الـتي كان فيهـا عطـا حـاضرًا وجبـة الغـداء في البيـت - هكـذا لاحظـت علويـة ـ حـين كان والـده مدعـوًّا لغـداء خـارج البيـت.

تأكـدت علويـة تمامًـا مـن أنـه يوجـد أمـر خطـير بـين ابنهـا وزوجهـا، وذلـك حـين تصادفـا أمـام بـاب الحـوش، كان قسـم السـيد خارجًـا وعطـا كان داخـلًا وبـين هـذا الخـروج، وذاك الدخـول حـدث ذلـك التدافـع الهـروبي بينهمـا فالتحمـا متصادمـين، فتخـلى بـاب الصفيـح عن مكانه وسـقط عـلى الأرض بـدوي ارتجفـت لـه علويـة الـتي كانـت وقتهـا تغسـل الملابـس تحـت شـجرة النيـم الكبـيرة، فلاحظـت أن الأب اسـتمرَّ مهـرولًا إلى الخـارج والابـن اسـتمرَّ مهـرولًا إلى الداخـل ولـم ينشـغل أي منهمـا بأمـر البـاب المنكفـئ عـلى الأرض، وهـذا مـا جعـل علوية تـترك مكانهـا أمـام طشـت الغسـيل، لأنهـا أصبحـت مكشـوفة أمـام الغـاشي والمـاشي عـلى الشـارع.

بينمـا كان قسـم السـيد يحـاول أن يعيـد البـاب إلى مكانـه مـر بـه جـاره سـليمان الشـيخ فسـأله «الرمـي البـاب شـنو يـا قسـم؟»، فـردَّ عليـه «قسـم السـيد»: «تصـور ضربتـو صاعقـة يـا ود الشـيخ»، فهـز سـليمان رأسـه متعجبًـا مـن تلـك الصاعقـة الـتي هـي خـارج سـياق الطقـس.

لـم يـترك «قسـم السـيد» الحـال كمـا هـو عليـه بعـد الـذي كان قـد حـدث بينـه وبـين ابنـه عطـا، حـاول أن يتخلـص مـن هـذا التوتـر الهـروبي كان يحـس بـأن الأمـر لا يسـتحق كل الـذي يحـدث، كان يفكـر في مواجهـة ابنـه وحـين مرحلـة الفعـل يـتردد ومـن ثَـمَّ يتراجـع عـن المواجهـة.

داهـم مـرة غرفـة ابنـه في الصبـاح وكان صباحًـا فيـه مـن ملامـح

الشتاء بداياته، دخل قسم السيد غرفة عطا مقررًا أن يوقظه من النوم ويسوي معه الأمر قبل أن تصحو علوية التي أدمنت إرهاقه بملاحظاتها المتسائلة، وقد كلفه هذا القرار الكثيف من الأرق، وقف قسم السيد بقرب سرير عطا، ولكنه تراجع فجأة عما كان ينوي فعله وخرج من الغرفة، لكنه حين عاد إلى الغرفة محرضًا قراره بسيجارة الصباح وجد عطا قد هرب، وحين كان خارجًا للعمل صادفه عطا وهو راجع إلى البيت، ولكن ما إن لمحه سرعان ما توارى عطا عن أنظاره بحركة مفاجئة.

في ذلك الصباح حين داهم والده الغرفة كان عطا قد أحس بدخوله، وحين كان قسم السيد يقف بالقرب من سريره بذلك التردد كان عطا قد تصبب منه غزير العرق، كان يعرف تمامًا أنه لا يستطيع مواجهة والده بعد ذلك الذي حدث، فما كان إلا أن هبَّ عطا من سريره وفرَّ هاربًا إلى الخارج.

حكى قسم السيد لصديقه وزميله في العمل جبرائيل التوم ما حدث بينه وبين ابنه، وكيف أنه حاول التخلص من تلك الحالة الهروبية، أوصاه صديقه بأن يكتب مذكرة ويدسها تحت مخدة ابنه؛ ربما حين يقرأ ابنه تلك المذكرة تكون بمنزلة خطوة أولى للمواجهة، ولم ينس جبرائيل التوم أن يعلق على الحدث قائلًا: «بعدين يا قسم بصراحة كدا، أنت دنيء».

حـاول عطـا أن يؤسـس لذلـك الهـروب، فقابـل مديـر المدرسـة كي يُقبَـل للسـكن بالداخليـة، إلا أن مديـر المدرسـة رفـض طلبـه متعلـلًا بـأن أسرتـه تقيـم في المدينـة، لكـن أصبـح عطـا ضيفًـا مؤقتًـا عـلى مـنزل صديقـه كـودي بحـي الرديـف، أصبـح يقـضي الليـل هنـاك خوفًـا مـن أن يكـرر والـده مداهمتـه الصباحيـة ويـأتي إلى البيـت في أوقـات يتأكـد فيهـا تمامًـا أن والـده خـارج البيـت.

كانـت تلـك المذكـرة الـتي كتبهـا «قسـم السـيد» لابنه قـد أتعبته كثـيرًا، كتبهـا عـدة مـرات لأنـه كان مرتبـكًا ولا يـدري بجـدوى مـا يكتـب، فـكان أن كتـب ومـزَّق كثـيرًا حـتى اسـتقر أخـيرًا عـلى صياغـة اعتبرهـا مناسـبة، وفي غيـاب عطـا وضـع «قسـم السـيد» المذكـرة تحـت المخـدة وحـرص أن يظهـر جانـب منهـا حـتى يراهـا عطـا، ولكنـه اكتشـف في اليـوم التـالي أن المذكـرة كانـت في مكانهـا، لأن عطـا قـد تمـادى في هروبـه إلى درجـة عـدم المبيـت في البيـت، وحمـد الله أن المذكـرة لـم تقـع في يـد علويـة أو زلفـي، وفي الصبـاح مـر عـلى جـاره سـليمان الشـيخ ليعطـي ابنـه الشـيخ الـذي يزامـل في المدرسـة الثانويـة تلـك المذكـرة ليوصلهـا إلى ابنـه بعـد أن سـجنها داخـل مظـروف أبيـض.

سـافرت علويـة إلى قريـة «الـبرداب» شـمال كادوقـلي لمقابلـة فـكي مـوسي كي يخلـص بيتهـا مـن ذلـك الارتبـاك في التفاصيـل، وتلـك الجفـوة بـين الـزوج والابـن الـذي خافـت أن تفقـده وهـو متمـادٍ في هروبـه أولًا مـن والـده وأخـيرًا مـن البيـت، لجـأت

علويـة إلى ذلـك الحـل بعـد أن فشـلت تمامـا في حـل ذلـك الإشـكال وفي معرفـة السـبب وراء الـذي يحـدث، أعطاهـا فـكي مـوسي بخـرات ومحايـة وحجـاب أوصاهـا بـأن يعلـق عـلى مـكان في وسـط البيـت وفي اتجـاه القبلـة.

قبـل أكـثر مـن شـهرين ونصـف، وفي ليلـة سـاهرة بحـي السـوق حفـل زواج، وحـين كان يغـني المغـني وثيردبـاك فريـق الهـلال الفنـان «آدم عـلي انقاطـو» في أغنيـة

أمانة عليك يا تايه الخصل

كانـت نـوال تشـعل دواخـل عطـا بنظراتهـا الملغـزة، كان عطـا عـلى جانـب الحائـط مـن حيـث كانـت نـوال تجلـس عـلى كـرسي ملتصـق بذلـك الحائـط، وحـين ترجـع برأسـها إلى الـوراء ـ رأسـها المتفـي بذنـب حصـان ـ وتديـر وجههـا ناحيـة اليمـين وترسـل نظراتهـا وابتسـاماتها نحـو عطـا، وهكـذا حـتى لمـح عطـا إشـارة خفيـة مـن نـوال بعـد أن وقفـت وهمـت بالتحـرك بـين الكـراسي، وأكـدت نـوال إشـارتها لعطـا ودخلـت إلى بـاب يـؤدي إلى أقـرب بيـت مـن حيـث مـكان جلـوس البنـات في الحفـل.

تـردد عطـا في أن يلحـق بنـوال، ولكنـه هزم تـردده ودخـل وراءها ليجدهـا تقـف أمـام راكوبـة أمـام مطبـخ البيـت واشـتبكت بينهمـا التفاصيـل، وعـرف أنهـا مـن بنـات ـ أبـو كرشـولة ـ وأنهـا طالبـة تقيـم بالداخليـة في مدرسـة كادوقـلي الثانويـة للبنـات

الواقعة بين حي الرديف وحي الموظفين، حيث يسكن عطاوانها جاءت إلى هذا الحفل بدعوة من صديقتها التي تسكن حي السوق واشتبكت بينهما حمى التفاصيل وافترقا على موعد هو يوم الخميس اليوم المتاح لخروج طالبات الداخلية، وبعد أن تكررت وتراكمت بينهما اللقاءات وتنوعت بينهما خطابات ومذكرات والكتب المتبادلة، قبل أكثر من شهر وفي مساء يقترب كثيرًا من تفاصيل الليل تعطر عطا بعطر واضح الرجولة وخرج ليلتقي بنوال بالقرب من دروة ضرب نار خلف مصلحة الأشغال، هكذا كانت لقاءاتهما مختلفة الأماكن حسب خروج نوال من الداخلية مع صديقة كل خميس، وهذه المرة لأنها خرجت مع صديقة لها تسكن حي الموظفين، فكان الاتفاق على اللقاء في هذا المكان ـ دروة ضرب نار حيث يتدرب الجيش على النشان ـ وكان على نوال أن تنتظره خلف مصلحة الأشغال.

حين اقترب عطا من حيث يجب أن تنتظره نوال في ذلك الشارع المظلم خلف مصلحة الأشغال، لاحظ عطا أن نوال ليست وحدها، كان يتحدث معها شخص، أحس عطا بأنه توجد مشكلة، وهو يقترب سمع نوال تقول بحدة لذلك الشخص:

ـ لو سمحت أنا ما بعرفك.

ـ طيب مالو ما ممكن نتعارف هسه.

ردَّ ذلك الشخص، وعطا قد قرر أن يقترب أكثر ويحسم الأمر، وحين اقترب أكثر قالت نوال لذلك الشخص:

ـ لو سمحت ما عايزين مشاكل أهو أخوي جا.

وداهم عطا ذلك الشخص ليجد أن ذلك الشخص الملحاح ما هو إلا «قسم السيد النعيم»، والده الذي كان في طريقه إلى استراحة الزراعة القريبة من موقع المشكلة، حيث يجب أن ينضم إلى شلة أنسه لقعدة الخميس المعتادة.

نظر «قسم السيد» إلى نوال ونظر إلى ابنه عطا قائلًا باستنكار الواثق:

ـ دا أخوكِ؟

وخرج عطا مضطرًّا من هامد ارتباكه وبتحدٍّ أجاب على سؤال والده الواثق جدًّا:

ـ أيوا أخوها عندك شك؟

نظر «قسم السيد» إلى نوال ونظر إلى ابنه عطا وقذف بجملة تعلن عن هزيمة معلنة

ـ لا أبدًا ما عندي شك، ما عندي شك مطلقًا.

وترك «قسم السيد» ابنه عطا مع نوال واتجه نحو استراحة الزراعة.

وهكـذا أكـثر مـن شـهر كان الأب يتفـادى الابـن، وكان الابـن يتفـادى الأب.

في الظهـيرة الـتي كانـت فيهـا علويـة تبخـر البيـت بعـد أن علقـت الحجـاب عـلى سـقف الراكوبـة في ناحيـة اختارهـا لأنهـا في اتجـاه القبلـة، في تلـك الظهـيرة سـلم الشـيخ سـليمان الشـيخ عطـا المظـروف الـذي بداخلـه المذكـرة الـتي كتبهـا «قسـم السـيد» لابنـه.

فضَّ عطا المظروف ليجد ورقة صغيرة مكتوبًا عليها الآتي:

«ابني عطا

أنا فخور لأنك حسمتني

وبعدين أنت عزال

وبدون حرج ارجع البيت يا ود يا فتك

والدك قسم السيد».

وفجَّر عطا ضحكة صاخبة وممتدة.

كشة

«يا شاويش علي»

قفز «الشاويش علي» برغم سنواته التي قاربت الخمسين، قفز وكأنه يعلن شبابه، قفز من على كومر البوليس واتجه نحو الضابط، فرفع تحية بإخلاص أدمن تعوده أمام الضابط «سالم».

«نحن حندخل على الحلة جوه، أنت انزل هنا كش لينا «كلتوماية» لمن نجي راجعين نلقاها هي وعدتها بره، ما تتهاون معاها أبدًا، مفهوم».

«مفهوم جنابك»، قالها «الشاويش علي» رافعًا يده بالتحية، متأكد تمامًا من مهمته، واتجه نحو الاتجاه الذي يقوده إلى إنداية «كلتومايه»، وتحرك كومر البوليس متوغلًا أكثر بهديره المعروف.

قبل أن يصل «الشاويش علي» إلى بيت « كلتومايه « كان خبر «الكشة» قد تسرب إلى الحلة، وذلك أن الأطفال لم يتوانوا في صنع زفة صغيرة تركض خلف ذلك الكومر المشهور معلنة

عـن ذلـك الحـدث الهـام، وحـين شـعر أفـراد قـوة البوليـس الـتي تنظـر باسـتمتاع إلى ذلـك الموكـب الطفـولي مـن عـل، وحـين شـعروا بالزهـو وبجـلال المهمـة، كان «الشـاويش عـلي» قـد اقتحـم بيـت «كلتومايـة» بغتـة، فتـح ذلـك البـاب الحديدي القديـم ودخـل مشـهرًا سـلطته، وكانـت «كلتومايـة» و«حـوة بت الصعيـد» و«عفـاف الغنايـة» يدخـنَّ البرنجـي ويشربـن القهـوة بذلـك الاسـتمتاع المعـروف عـادة في العصريـات.

«يا حليمة، كبي لينا من قزازة الزفت دا».

كان عـصرًا نديًّـا أعطتـه الغيـوم مـن رذاذهـا الخفيـف دفقـات مـن النشـوة، كانـت «حليمـة» تنضـح بالبـشر وتـدور حـول الجميـع منسـابة مـع الغنـاء وترانيـم عـود «أبـشر» الـترزي ذي الوتريـن فقـط، بحميميـة وعذوبـة متناهيـة تتعـالى أصـوات الـكل ليتداخـل معهـا «رجـب» بائـع «الطايـوق» معلنًـا نشـوته العارمـة.

«دا منو دا؟»

وهنـا تـأتي الإجابـة منغمـة بانسـجام تلقـائي مـن جميـع الباحثـين عـن معـنى

النشوة.

«دا العسكري».

«عايز شنو؟»، يقف رجب على البنبر ويشير بيديه:

«عايز يزدري»، إجابة جماعية قاطعة.

«علي منو؟» يقفز «رجب» إلى الأمام.

«علي علي» كورال من العذوبة.

«علي منو؟»، رجب يهتز بالتساؤل.

«الما يجينا إلا ساعة الأنيشا»، يردد الجميع ويذوب صوت «رجب» مع تلك النشوة الجماعية.

«يا حليمة، كبي لينا من قزازة الزفت دا».

حين كان «ود السنجك» يستعد ليتداخل مع تلك الأغنية الجماعية مرددًا التساؤلات نفسها التي رددها «رجب» لتكتمل الأغنية في دائرتها الأزلية وموضوعها الدائري والمكرر، داهم كومر البوليس المكان، اعتنى أفراد تلك القوة بالرواد الكرام واعتنى آخرون «بحليمة» إذ حملت كل الأواني التي لها علاقة بالعملية، على ظهر الكومر المشهور تكومت تلك الفرقة الغنائية، فقد عود «أبشر» الترزي أحد الوترين، «ود السنجك» اكتفى فقط بوضع «سفة» بين لسانه، «رجب» مصر على حواره مع البوليس دون جدوى، «عمر فارغة» يضحك برغم كل شيء، «سلمان» يبحث عن فردة حذائه ويمنعه البوليس من النزول، وصعدت «حليمة» مع أوانيها الفارغة والممتلئة دون مشقة على ظهر الكومر - حين هم الكومر بالتحرك، نظر «رجب» إلى أحد أفراد البوليس بكل

تلك الرغبة في الخلاص قائلًا: «شنو يا إخوانا أنتو مصرين على المسألة دي؟»، ضاع تساؤل رجب محاطًا بذلك الصمت القاسي والرسمي.

في بيت «كنتوشة» كان «النور الكج» قد بدأ في إعلان الإثارة اليومي، «عتوت» معروض لصاحب الحظ الذي يفوز به بواسطة «الكرتلة»، عادة ما يذبح صاحب الحظ ذلك «العتوت» مشاركًا الجميع في حظه و«كنتوشة» وابنتها «سميرة» كفيلتان بتجهيز الوليمة، يدور «النور الكج» بالكرتلة على الرواد المتناثرين هنا وهناك عارضًا برنامج الإثارة على الجميع، ولا ينسى مطلقًا أن يتقبل الكاسات كهدايا تنهال عليه ويحفظ كل فرد رمزه في الكرتلة بعد أن يدفع ثمن هذا الرمز الذي اختاره.

في ذلك العصر أضاع كومر البوليس على ذلك الجمع المنفلت من بيت «كنتوشة» متعة فتح الكرتلة لإعلان صاحب العتوت المحظوظ. داهم البوليس منزل «كنتوشة» وصعد الجميع على ظهر الكومر، في حين ظل ذلك العتوت مربوطًا أمام الراكوبة واستطاع بمجهود بسيط أن يجذب طرف ملاءة قديمة كانت تحاول أن تعطي ذلك اللحاف المهترئ والمتسخ، كان العتوت يمضغ طرف الملاءة مستمتعًا بنجاته من ذلك الموت المرتبط بحظوظ أولئك البشر.

حين خرج «رحمة الله» من بيت «مريوم» يحمل كيس الثلج في يد وفي الأخرى الجردل البلاستكي المعبأ بالعسلية وقف

كومر البوليس أمام بيت «مريوم»، حاول «رحمة الله» أن يهرب راكضًا بعد أن وضع الجردل سريعًا على الأرض، ولكن صوت الضابط «سالم» جعله يتراجع عن ذلك، فعاد «رحمة الله» طائعًا وصعد على ظهر الكومر، وكان أولئك الذين تشرفوا من قبل بصعود ذلك السجن المتنقل يضحكون بانفلات. رجب الذي يحاول دائمًا أن يضرب الهم بالفافة نظر إلى كيس الثلج الذي يحمله «رحمة الله» وعلق قائلًا: «بالثلج وكده»، وضحك الجميع ما عدا أولئك الذين يتضخم في دواخلهم معنى الفضيحة.

حاولت ستونا أن ترشو البوليس دون جدوى، فصعدت على ظهر الكومر لاحقة بالأواني، لكنها أصرت أن ترتدي ثوبها المضغوط وأن تكحل عينيها وجلست وسط زميلاتها بتأفف شديد.

«يا سهاري تعالوا شوفو ألبي

الحبيبة ما قست عليَّ».

يدندن «عباس ركس» باستمتاع وهو يترنح في شارع السلخانة كان عائدًا من قيلولته الاستثنائية التي امتدت حتى نهاية العصر حين مر به كومر البوليس محتشدًا بأولئك السكارى وصانعات الخمر وقف الكومر أمامه، فما كان من «عباس ركس» إلا أن رحب بتلك الوقفة ذات القصد المعروف قائلًا شكرًا يا شاب «دفرة لي قدام» ، استغرب «ركس» لتلك

الضحـكات الـتي اسـتقبلت سـؤاله، وحـين صعـد عـلى ظهـر الكومـر بمسـاعدة أحـد أفـراد البوليـس الـذي كان يكتـم ضحكته هنـا انتبـه «عبـاس ركـس»: «بوليـس عديـل كـده».

غابـت شـمس ذلـك اليـوم لتـترك الغيـوم حريتهـا، وبعـد أن تلونـت سـماء ذلـك اليـوم بلـون الشـفق، كان وقتهـا كومـر البوليـس عائـدًا مـن تلـك الجولـة الـتي بسـببها احتشـد الفـوج المتنـوع مـن البـشر عـلي ظهـره ، استسـلم الجميـع إلى الأمـر الواقـع وفكـر لبعـض في عواقـب الأمـر، اختلطـت أحاديـث السـكارى، «عبـاس ركـس» عـاد بـلا مبـالاة إلى الترنـم ، «سـتونا» تثرثـر تحـاول إظهـار عزتهـا، «سـميرة» ابنـة «كنتوشـة» الخـوف يظهـر في عينيهـا، باسـتغراق شـديد يحـاول «أبـشر» الـترزي أن يربـط الوتـر المقطـوع في عـوده، «رحمـة الله» يعـاني وسـط هـؤلاء السـكارى وعيـه ويحـس بحجـم الفضيحـة ويفكـر في الشـلة الـتي تنتظـره، «رجـب» اعتـدى عـلى كيـس الثلـج، «حليمـة» صامتـة وتضـع يدهـا عـلى خدهـا، أفـراد البوليـس يحيطـون بالجميـع إحاطـة السـور بالمعصـم ، «حليمـة» تحـس بالملـل لأنهـا تحملـت عـبء كل تلـك الجولـة، وهـي عـلى ظهـر الكومـر «النـور الكـج» ينظـر إلى الكارثـة الـتي في يـده ويفكـر في مصـير ذلـك العتـوت، الكومـر يهـدر بصوتـه الـذي يـزن في أذن الجميـع مكثفًـا معـنى الجريمـة، يسـير بـين زقاقـات الحلـة في رحلـة عودتـه ويصيـح الأطفـال راكضـين خلفـه: الكشـة الكشـة الكشـة.

صيحات الشامتين تصاحب ركاب الكومر بتلك التجمعات الصغيرة لا يملك أولئك الباحثون عن الأخبار والحوادث إلا تلك الرغبة في تعرُّف شخصيات ركاب ذلك الكومر، حين وصل الكومر إلى نفس ذلك المكان الذي فيه «الشاويش علي» ليؤدي مهمة القبض على «كلتوماية»، وجد الضابط سالم المكان خاليًا تمامًا من الشاويش وكلتوماية وأوانيها حسب الاتفاق، أمر الضابط سالم السائق بالتحرك في اتجاه بيت «كلتوماية» أملًا في أن يكون «الشاويش علي» قد أدى مهمته وهو الآن ينتظر أمام البيت، اعترض طريق الكومر خور عريض، وهذا ما جعل الضابط سالم يأمر السائق بالوقوف لينزل هو كي يتأكد من وجود «الشاويش علي»؛ أحس بأنه يوجد خلل في مكان ما، نظر إلى يمينه لم يجد أي أثر، تحرك إلى بيت كلتوماية سمع أنغام دلوكة حين وصل إلى الباب الحديدي القديم، كان صوت الدلوكة قد اختلط مع غناء عذب، فتح الباب، رأى أول ما رأى كاب «الشاويش علي» ملقى على أحد البنابر، وكانت عفاف الغناية تضرب علي الدلوكة وتغني حوة بت الصعيد، و«كلتوماية» يصفقن بمتعة ويشاركن في الغناء، والشاويش علي يضع الكأس على رأسه الأصلع ويتمايل طربًا، وقف الضابط سالم مدة ينظر إلى الاحتفال الصغير الذي تحول فيه «الشاويش علي» إلى راقص محترف يعرف كيف يتحكم في الكأس الذي يتوسط رأسه الأصلع، استعذب الضابط صوت عفاف الغناية الشجي.

حبيبي تعال نتلم

ما دام الريد اختلط بالدم

يا حبيبي.

نظر الضابط إلى الكاب الملقى على المنبر، «الشاويش علي» يرقص بمتعة متناهية دون أن تسقط الكأس من على رأسه، لم يملك إلا أن يبتسم ويقفل الباب ويرجع إلى حيث يقف الكومر محتشدًا بضجة وثرثرة أولئك السكارى صعد الضابط سالم وجلس على المقعد الأمامي أمر السائق بالتحرك.

توتو الباشا

لا بدَّ أن يلتقي بك، حتما ستصادفه. لأنه من أهم معالم السوق الكبير، ستلتقي به في حركته الدؤوب التي لا تفتأ تجوب بين البرندات والدكاكين، زنك الخضار، زنك اللحمة، في المنحنى الذي يدخل به الناس إلى السوق من الجهة الجنوبية، بين الجامع القديم وميدان المولد، هناك في الطرف الغربي من السوق حيث طلمبات البنزين والجاز، حيث موقف اللواري والبصات التي تسافر شمالًا وتتبعثر في دورب ضواحي المدينة العدَّة والمختلفة الأنحاء، في شارع المستشفى الذي فيه الجامع الجديد، تعرفه الأكشاك الصغيرة ويتآلف معه أصحابها دون تراكمات، دكاكين الأواني ورواكيب الإسكافية والحلاقين، العجلاتية، دكاكين تجار الجملة في الجانب الشرقي من السوق لا تمتص استمتاع أصحابها بالسيطرة على المدينة، لا تحس هذه الدكاكين بزهوهم إلا حين تواقع خطواته وصوته العذب الممتلئ

بتلقائيـة تسـمح لـه أن يصـف الأشـياء بمسـمياتها العاريـة:

«ما تتحركوا يا جلابة».

يتجـاوز ويهـزم كل هذيـان وتجليـات السياسـيين والمثقفـين حـين يناقشـون القضيـة العنصريـة، كان يلـبي نـداء أولئـك التجـار الجلابـة دون انتبـاه يخلـف أي أثـر للدونيـة.

«تعال هنا يا عب».

يواجـه «توتـو الباشـا» كل ذلـك بضحكـة مجلجلـة وطـرب، لـم يحـدث أن لا حـظ أحـد أن الضحكـة قـد اختفـت يومًـا مـن أثـير السـوق الكبـير، فقـط يـوم الجمعـة، حيـث يكـون «توتـو الباشـا» في راحتـه الأسـبوعية، في هـذا اليـوم تختفـي هـذه الضحكـة المميـزة مـن الصبـاح لكنهـا تعـود لتمنـح ذلـك الفـراغ الـذي يميز يـوم الجمعـة في كل الأسواق، ضحكـة «توتـو الباشـا» تمنـح ذلـك الفـراغ بعـض الطمأنينـة فترتـاح أبـواب الدكاكـين المغلقـة، يحـدث ذلـك حيـث يكـون «توتـو الباشـا» قـد عـبر السـوق الكبـير، مجـرد عبـور، مسـتمتعًا بيـوم راحتـه، يقـضي «توتـو الباشـا» عـادة ليلـة الخميـس بـــ» قعـر الحجـر» يمكـث هنـاك حـتى مـا بعـد الغـداء مـن اليـوم التـالي، الجمعة، يخـرج «توتـو الباشـا» عـصرًا مـن «قعـر الحجـر» عابـرًا السـوق، مانحًـا ضحكتـه للأماكـن الحميمـة الـتي اعتادتـه، لا ينـسى «توتـو الباشـا» مطلقًـا أن يمـر بقهـوة «الأخـوان» حيـث يعمـل هنـاك كجرسـون خارجـي مهمتـه أن يغطـي كل منطقـة السـوق

الكبير بالشاي السادة وبالحليب والكاكاو والقهوة والحلبة والحليب، ممزوجة كل هذه الطلبات بمداعباته وضحكاته، لا ينسى «توتو الباشا» أن يمر بالقهوة، يقف أمامها مزهوًّا ومستعرضًا استمتاعه بالراحة، عادة ما يكون منتشيًا بقيلولة رطبة بفعل «المريسة والعسلية»، يقف بجلباب نظيف متخلصًا من تلك «المريلة» ذات الجيب الكبير الذي توضع فيه «الموارك» الملونة حسب نوع الطلبات، يقف «توتو الباشا» أمام مقهى «الأخوان»، لا يدخل إلى الداخل أبدًا، يرفع يده أمام الموجودين بالمقهى ويعلن: «يا هوي قولو لي عبد الباسط، الباشا جاي من قعر الحجر وماشي العصاصير».

هكذا كل جمعة ولمدة سنوات، يقف «توتو الباشا» أمام مقهى الأخوان معلنًا خط سيره بتباهٍ عظيم، يتحرك مارًّا بذلك الزقاق الطويل الذي يسمى «شارع افجخني»، يربط ذلك الزقاق السوق الكبير بالسوق «البرة»، في المساء الذي يمر فيه «توتو الباشا» بشارع « افجخني» لا أحد يفجخ أحد، هذا من سمات يوم الجمعة، يعبر دون اكتراث - السوق البره - حيث يصل إلى السينما، لا يختار «توتو الباشا» الفيلم الذي يشاهده يوم الجمعة، إنما يدخل السينما كما اتفق، هكذا كل جمعة ولعدة سنوات، بعد انتهاء العرض السينمائي يتجه «توتو الباشا» إلى حي «العصاصير» حيث يقضي ليلته هناك، يقضيها كيفما اتفق أيضًا ومع صياح ديوك حي «العصاصير» المصرة على استقبال الصباح يكون

«توتو الباشا» قد خرج من هناك بباقي نعاس خفيف حتى يصل إلى المقهى، يغسل وجهه ويلبس «المريلة» يشرب أول كوب حليب وأول كوب شاي و«عبد الباسط» صاحب المقهى يصر على هذه العادة، أن يشرب «توتو الباشا» أول الطلبات، وكان يتفاءل بذلك ويستلم «توتو الباشا» «الموارك» الملونة من عبد الباسط. يعدها. يقذف بها إلى داخل جيب «المريلة» الكبير، قبل أن يخرج من المقهى مقتحمًا السوق بضحكته، كان دائمًا يرمي بهذه الجملة في وجه «عبد الباسط» الذي يرتاح لذلك «بسم الله، هبشك ألما ضراك».

يدخل «توتو الباشا» السوق، يخرج منه، يدخل المقهى، يخرج، يحمل في يده صينية كبيرة، يصيح بصوته العذب حين يدخل المقهى: «اديني ثلاثة سادة وسطاني، سبعة شاي على موية بيضا، ارمي معاك خمسة كاكاو واثنين حلبة، يا، حرك - أها جاكم، يا، كركاب مطره بدون سحاب».

دائمًا ما يبدأ «توتو الباشا» أسبوعه المتنقل بين دروب وأزقة السوق الكبير تسبقه ضحكته العذبة ومداعباته التلقائية.

كان حي السوق في ذلك اليوم من ماضٍ بعيد يضج بالحركة، أصوات طبول تهدر، صيحات نساء وفتيات لم تأخذ من الزغاريد بطرف، ولم تتخلَّ هذه الصرخات عن ملامحها ذات البساطة، كانت أقرب ما تكون لتلك الصرخات التي يميز بها سكان الجبال والغابات، في الفسحة التي بين

المدرسة الشرقية الأولية حيث تصطف أشجار المسكيت أو «الأصفر أخضر» كما يحلو للأطفال أن يسموها وبين منزل «إسماعيل يعقوب»، كانت اللواري قد جلبت من تلك الضواحي البعيدة، البعيدة عن مظاهر المدينة والحضارة أفواجًا من نوبة الجبال، رجال شباب، نساء صبايا أو فتيات، أطفال بعضهم كانوا عراة إلا ما يستر العورة، فقط ما يغطي تلك المنطقة المحرمة، عبارة عن شريط من جلد أو قماش يلتف حول تلك المنطقة يثبت بخيوط جلدية أو حبال نباتية حول الخصر، اكتظت تلك الفسحة بتلك الجموع التي كانت صيحاتها تهدر وطبولها تعلن قدومها، جماعات من مختلف الضواحي، من «شاة الدمام» «شاة الصفيا»، «كاتشا»، «طورجي»، «البرام».

«أم سردبة»، «أم دورين» «سرف الضي»، «ميري»، «دمبا»، «كحليات»، من كل مكان استطاعت أيادي «إسماعيل يعقوب» التجارية أن تصله، حشد من نوبة الجبال، ذبح «إسماعيل يعقوب» ثورًا وعجلًا وعددًا من الخراف والغنم، طاولات من الرغيف، أفرغت كميات من صفائح الزيت على عدد من الأواني الواسعة التي تناثرت في كل أنحاء الفسحة، فكان أن أغرقت النساء والفتيات شعورهنَّ وصدورهنَّ العارية بالزيت، والرجال والشباب تمسحوا أيضًا بالزيت، تناثرت الرقصات المختلفة في المكان «الكمبلا» ،»الكرنق»، «البخسة»، «الكيسة» وامتزجت أصوات الطبول بنغمات البخسة بصيحات الراقصين بضربات أقدامهم على الأرض

بالغبـار الكثيـف الـذي يغطـي المـكان كلـه، كانـت أفراحهـم حقيقيـة، كانـوا فرحـين جـدًّا، كانـوا يحتفلـون بـبراءة أحلامهـم وبسـاطة طموحاتهـم، ولا سـيَّما أن السـيد «إسـماعيل يعقـوب» قـد وضـع طاحونـة في كل منطقـة مـن تلـك المناطـق فـكان هـذا بمنزلـة معجـزة، معجـزة حقيقيـة لا يملـك أمامهـا.

هـؤلاء القـوم البريـؤون لا يسـتطيعون إلا أن يطيعـوا السـيد «إسـماعيل يعقـوب» في كل مـا ينـوي فعلـه حـتى لـو كان هـذا الفعـل يقودهـم إلى الهـلاك، إنـه نـوع مـن رد الجميـل، جميـل أن تختفـي تلـك «المحراكـة» الـتي أتعبـت النسـاء والفتيـات، جميـل أن تكـون عمليـة صنـع الطعـام أسـهل ممـا يتصـورون، لذلـك كان هـذا الحشـد بصيحاتـه ورقصاتـه المتنوعـة أحـد تجليـات رد الجميـل، جميـل أن تكـون الحيـاة أسـهل.

كان حـي السـوق في ذلـك اليـوم مـن أيـام السـتينيات قـد أصـاب بالدهشـة الكثيريـن مـن أولئـك الذيـن جلبتهـم لـواري «إسـماعيل يعقـوب» إلا أن مسـتوى الدهشـة عنـد «توتـو كجـو كوكـو» ذلـك الصـبي الـذي لـم يتجـاوز الخامسـة عـشر كان أكبر، مـلأ «توتـو كجـو كوكـو» المـكان برقصاتـه المميـزة وصرخاتـه المنغمـة حـين مـل كل ذلـك وبدافـع مـن فضـول مكثـف خـرج مـن تلـك الفسـحة واقتحـم مـنزل «إسـماعيل يعقـوب» توغـل إلى داخـل المـنزل، كان يحملـق إلى كل الموجوديـن، عالـم مـليء بالدهشـة، أحـس بتفاهـة مظهـره أمـام تلـك الجلاليـب البيضـاء الـتي كانـت متناثـرة في ديـوان «إسـماعيل يعقـوب» الواسـع حـين

كان «توتـو كجـو كوكـو» واقفًـا في ذلـك الحـد الفاصـل بـين تسـاؤلاته الخاصـة والبسـيطة وبـين العالـم الـذي أمامـه كان السـيد «إسـماعيل يعقـوب» يدخـن غليونـه بشراهـة متباهيـة في حـين يسـتقبل التمنيـات بالنجـاح في الانتخابـات، إذ إنـه أحـد أهـم مرشـحي الحـزب الوطـني الاتحـادي، ومـا ذلـك الحشـد الـذي يتراقـص في الخـارج إلا عـدد كبـير مـن الأصـوات الـتي تضمـن لـه الفـوز.

خـرج «توتـو كجـو كوكـو» مـن داخـل المـنزل، انتبـه إلى رسـم كبـير عـلى الحائط وبألـوان صارخة ، نظر إلى الرسـم ، كان الرسـم عنقريبًـا كبـيرًا، ولـو كان «توتـو كجـو كوكـو» يعـرف القـراءة لـكان قـد فـك طلاسـم تلـك الحـروف البـارزة الـتي كتبـت فـوق العنقريـب المرسـوم: - انتخبـوا مرشـحكم «إسـماعيل يعقـوب» رمـز العنقريـب.

انتهـت مراسـم رد الجميـل، وحـين عـادت اللـواري بذلـك الحشـد الراقـص، لـم يرجـع معهـا «توتـو كجـو كوكـو» فضـل أن يبقـى في المدينـة الـتي زارهـا أول مـرة، تـشرد فيهـا، خـبر دروبهـا، اسـتهلكها، واسـتهلكته، تخلـص لسـانه مـن أعجميتـه، تخلـص مـن أن ينطـق السـين شـين والحـاء خـاء، عـرف سـكان المدينـة وعرفـوه حصـل «توتـو كجـو كوكـو» عـلى لقـب باشـا، وميـزت ضحكتـه ومداعباتـه عالـم السـوق الكبـير بعد أن اسـتقر كجرسـون خارجـي في مقهـى «الأخـوان»، قبلهـا كان قـد تنقـل في مهـن كثـيرة، ولكنـه نجـح في مهنتـه الأخـيرة.

في تلـك الجمعـة لـم يعـبر «توتـو الباشـا» السـوق الكبـير، أحسـت بذلـك الدكاكـين والأكشـاك المغلقـة، افتقـدت خطواتـه وضحكاتـه في عـصر تلـك الجمعـة، «عبـد الباسـط» أحـس بالشـفقة عليـه، إذ إنـه لـم يسـمع تلـك الجملـة الـتي اعتـاد أن يسـمعها منـه في عـصر كل جمعـة: «الباشـا جـاي مـن قعـر الحجـر ومـاشي العصاصـير».

في تلـك الجمعـة خـرج «توتـو الباشـا» مـن قعـر الحجـر كمـا اعتـاد، وحـين عـبر خـور «كلـبي» الـذي يجـف في هـذه الأيـام اتخـذ شـارع «الملكيـة» الـذي يـؤدي إلى السـوق، لاحـظ عـددًا كبـيرًا مـن النـاس، شـيوخًا ورجـالًا ونسـاء وفتيـات وأطفـالًا بملابـس زاهيـة يتجهـون نحـو ميـدان الحريـة، حـين سـأل عـن الأمـر قيـل لـه إنـه يوجـد «صراع» بميـدان الحريـة، حيـث تحتفـل المدينـة اليـوم بعيـد الاسـتقلال، وقـف قليـلًا، قـرر أن يغـير اتجاهـه هـذه المـرة، تخـلى عن تلك الطـرق التي اعتـاد أن يسـلكها منـذ سـنوات واتجـه إلى حيـث يتجـه الجميـع إلى ميـدان الحريـة، كان منتشـيًا بتلـك القيلولـة، أسرف في الـشراب هـذه المـرة، كان قـد خلـط العـرقي بالعسـلية، وحـين وصـل «توتـو الباشـا» إلى ميـدان الحريـة كانـت الجماهـير الغفـيرة قـد التفَّـت حـول الميـدان مـن كل جوانبـه، كان المصارعـون بأجسـامهم الفارعـة والممتلئـة.

يظهـرون قدراتهـم بحـركات اسـتعراضية أمـام الجماهـير، فريـق مـن المصارعـين في هـذا الجانـب والفريـق الآخـر في ذلـك

الجانب لكل مصارع معلن يخبط على الأرض معلنًا اسمه ومزايا مصارعه، تسلل «توتو الباشا» من بين الناس، اقترب أكثر من المصارعين، حدق إليهم بكل تاريخ صباه، فرح حين عرف أن أحد الفريقين من قبيلته، وهنا قادته نشوته، قاده حماسه، فخلع جلابيته، تلك النظيفة، رمى بها على الأرض، أصبح بالسروال فقط، دعك جسده كله بالتراب، جرى نحو قبيلته، انضم إليهم، صرخ مثل صرخاتهم، استعرض قدراته وسط صياح الجماهير، قاده الحماس أكثر، اقترب من الفريق الأخر، اختار منهم أحد المصارعين، تراجع وتقدم نحوه.

تقدم نحو المصارع وبعد قليل من الاستعراض أمسك ذلك المصارع بعنق «توتو الباشا» وجذبه نحوه فكان أن سقط «توتو الباشا» على الأرض مضيفًا إلى قبيلته هزيمة لم تكن في الحسبان أبدًا، حاول أن يعيد الكرة، لكن أفراد قبيلته من مصارعين ومعلنين ألجموه عند حده وتلقى منهم العديد من الصفعات والضربات، وكان الجمهور وقتها يضج بالضحك. وفي صباح اليوم التالي استطاع «توتو الباشا» أن يتجاوز بكل انسياب وتلقائية فضيحة صراع البارحة محولًا الأمر كله إلى مداعبات وضحكات، وكان يخرج من المقهى إلى السوق ويدخل المقهى مناديًا بصوته العذب: اديني سادة وسطاني واثنين حليب وثلاثة كاكاو وخمسة شاي على موية بيضا يا - اتحرك يا كركاب مطرة بدون سحاب».

سينما

كان «صقر الجو» بين خيارين لا ثالث لهما، إما أن يشارك بالنقود القليلة التي معه لشراء علبة سلسيون، وكان المبلغ الذي معه غير ملائم تمامًا لهذه الشراكة، ولكن صديقه الحميم «ود الشيطان» يقدر موقفه دائمًا لهذا الخيار، أما الخيار الثاني فهو أن يضرب عرض الحائط بعلبة السلسيون ويحاول أن يبل قطعة القماش التي في جيبه من أقرب تنك عربة يغفل صاحبها عنها، لا سيما أن للبنزين فعل أقوى من السلسيون، عندها يستطيع أن يحول النقود التي معه إلى تذكرة «شعب» ويستمتع بالفيلم «الكاوبوي» الذي يعرض هذا المساء بسينما «بانت»، إن التذكرة وحدها التي تستطيع أن تهزم ذلك الضخم الملقب بـ»أميقو» قاطع التذاكر بباب الدخول وفتوة السينما.

كانت لـ»صقر الجو» سلسلة من المعارك وأنواع مختلفة من حيل التسلل إلى داخل السينما، لكنه دائمًا ما يخسر أمام هذا المارد العملاق، بل أصبحت عيونه لا تغفل

أبـدًا عنـه، إنـه دائمًـا تحـت المراقبـة، لذلـك كان «صقـر الجـو» يميـل أكـثر إلى الخيـار الثـاني، وهـو أن يحتفـظ بالمبلـغ لقطـع تذكـرة الدخـول، ويغامـر للحصـول عـلى قطـرات مـن البنزيـن، أو يسـتميل عاطفـة «ود الشـيطان» ويحظـى بشـمة مكثفـة مـن السلسـيون. خيـاران لا ثالـث لهمـا.

كان يومـه المرهـق قـد انتهـى بـه أمـام سـينما «بانـت»، حيـث يجـب أن ينتظـر صديقـه. اسـتطاع أن يفلـت هـذا النهـار مـن مطـاردة ابنـة عمـه الموظفـة الـتي صادفتـه فجـأة في السـوق الإفرنجـي ، هـي طيبـة تحـاول أن تعيـده إلى الحظـيرة، وهـو منفلـت ، غـارق في حريتـه حيـث يـأكل وينـام ويمـارس حياتـه كمـا يشـاء، لاحقتـه بـل دعمـت مطاردتهـا لـه ببعـض الشـباب، لكنـه اسـتطاع أن يختفـي تمامًـا خلـف أقـرب صنـدوق حديـد مـن النـوع الـذي يوضـع في الكـوش، اسـتطاعت مـرة «سوسـن» ابنـة عمـه هـذي أن تورطـه مـع إحـدى الجمعيـات الـتي تهتـم بالمتشرديـن، لكنـه لـم يلبـث أن هـرب مـن ذلـك المـكان الـذي يشـبه المدرسـة الـتي جافاهـا منـذ سـنين.

أخـذ «خمشـة» مـن التسـالي بعـد أن نظـر إليـه البائـع نظـرة شرسـة، حـاول في تجوالـه أن يخلـق لوقفـه خيـارًا ثالثًـا، وقـف أمـام البصـات والحافـلات الـتي تتجـه إلى أم درمـان ، جـرب أن يتسـول، حـاول مـرة ، مرتـين، ثلاثـة، لكنـه قوبـل بتجهـم ولامبـالاة جعلتـه يحـس بطعـم الفشـل، رجـع وجلـس تحـت ظـل حائـط السـينما، أخـرج قطعـة القمـاش مـن جيبـه وشـمها

بعنف، بحث عن ذلك الإحساس المريح الذي تفعله شمة البنزين أو السلسيون في عقله ولم يجده، تحرك من مكانه واتجه حيث بائع التمباك وأخذ «سفة».

«صقر الجو من هسه منتظر السينما؟»

«كيف يا فرده؟ الليلة رنقو، جوليانو جمعة»

يقصد الممثل الإيطالي المشهور «جوليانا جيما» إن جمهور السينما في السودان يخلق أسماءً لنجوم السينما فيها من الحرارة والحميمية ما يكفي تمامًا كي يتحول اسم «جيما» إلى «جمعة».

في كل مناطق السودان السينما هي السينما، لا تختلف المدن عن بعضها بعضًا من حيث مشاهدتها للسينما ومن حيث ردود فعل الجمهور تجاه الفيلم المعروض، الأسماء، أسماء النجوم، هي هي في مدن بورتسودان، الأبيض، بربر، كادوقلي نجد «أبو سنة»، «أبو شلخة» «أبو طويلة».

في كادوقلي في يوم من أيام عيد الفطر المبارك كانت السينما تكتظ بالجمهور، الجمهور يملأ كل الدرجات «الشعب – الأولى – الثانية - اللوج - البلكونات». كان الفيلم «هندي» يعني هندي كما نعرفه، قصة واحدة في كل الأفلام الهندية، غناء، رقص، مغامرات، مطاردات بالعربات، بالدراجات البخارية، بالمراكب ذات الموتور، قطارات، طائرات، خيول، كل شيء يمكن أن يصنع منه المخرج الهندي مطاردة يكون

موجـودًا، نهايـة الفيلـم تقـترب كان «البطـل» و»الخائـن» يتصارعـان وهمـا عـلى طائـرة هيلوكوبـتر، كانـت حبيبـة «البطـل» معلقـة عـلى هاويـة، تمسـك بيدهـا حافـة الهاويـة وتحتهـا يمـور شـلال مـن الميـاه، الجمهـور أنفاسـه معلقـة أيضًـا بـين المعركـة الـتي في الهليكوبـتر وبـين الحبيبـة المعلقـة في الهاويـة، طبعًـا حبيبـة «البطـل» هـي بالتأكيـد حبيبـة كل الجمهـور، المعركـة في الهليكوبـتر تمرحلـت حـتى وصلـت إلى ذلـك الحبـل المـدلى مـن الطائـرة، «البطـل» و»الخائـن» يتعـاركان وهمـا عـلى هـذا الحبـل، وحبيبـة «البطـل» تمسـك الحافـة بيـد واحـدة فقـط وتـصرخ «بجـاو - بجـاو» وهـذه الكلمـة يترجمها «أنيـس عبيد» إلى «النجـدة»، والجمهـور بعيـون مفتوحـة وقلـوب تـزداد ضرباتهـا وعـرق يمـلأ الوجـوه، أخـيرًا وكمـا هـو متوقـع يسـتطيع «البطل» أن يقـذف بـ»الخائـن» مـن عـلى حبـل الهليكوبـتر إلى ذلـك البحر الواسـع الـذي كان تحتهمـا، صرخـة قويـة مـن الجمهـور، حبيبـة «البطـل» مـا زالـت معلقـة وتـصرخ، وهـذا مـا جعـل الجمهـور يرجـع إلى ذلـك الهـدوء والترقـب، اقـترب «البطـل» بالهليكوبـتر مـن حبيبتـه وقـذف إليهـا الحبـل واسـتطاعت هـي أن تمسـك الحبـل، ولكـن فجـأة ظهـرت كلمـة «النهايـة» عـلى الشاشـة، انتهـى شريـط الفيلـم عنـد هـذا الحـد، صرخ هـذا الجمهـور بـكل طبقاتـه صرخـة قويـة جـدًّا، صرخـة احتجـاج، واختلـط رواد الشـعب بـالأولى والثانيـة بالبلكونـات، أصبـح الجمهـور كتلـة واحـدة ضـد كل تلـك التصنيفـات وأخـذت الهتافـات تتعـالى ضـد إدارة السـينما. قـوة البوليـس الـتي كانـت داخـل السـينما

لـم تسـتطع كبـح جمـاح هـذه الانفعـالات فانـزوت بعيـدًا، مـن مـكان التشـغيل في الطابـق الثـاني الـذيٍ خـرج منـه مديـر السـينما بجلابيتـه السـكروتة وطاقيتـه البيضـاء، ووقـف عـلى السـلم والجمهـور يتصايـح تحتـه، حـاول أن يكـون لطيفًـا: «معليـش يـا جماعـة مـا هـو أصلـو البطـل حينقـذ البـت وبعـد داك حيعرسـها، بـس الشريـط كمـل هنـا».

«تحكي لينا الفيلم يا...».

طوبـة كبـيرة اسـتطاعت أن تحـول وجـه المديـر إلى بقعـة مـن الـدم، كـراسي السـينما تحطمـت، الأنـوار، ماكينـات التشـغيل، أبـواب السـينما مـن كل الجوانـب نزعـت مـن مكانهـا، حرائـق، حمـل مديـر السـينما إلى المستشـفى ومعـه عامـلا التذاكـر، مقهـى ومطعـم السـينما تحطمـت فيـه الصحـون والكبـابي والكـراسي والكنبـات الخشـبية، وأصيـب الجرسـونات والعمـال فيـه بكدمـات وجـروح، وامتـدت ثـورة الجمهـور حـتى وصلـت إلى مـنزل صاحـب السـينما الـذي مـن سـوء الحـظ كان قريبًـا مـن السـينما، حطـم الجمهـور كل شيء في المـنزل بعـد أن رُحِّـلَ كل أفـراد الأسرة ببـاب آخـر إلى الجـيران، وتوقفـت سـينما كادوقـلي عـن العمـل مـدة تزيـد عـلى سـتة أشـهر بسـبب النهايـة المفتوحـة لهـذا الفيلـم، وهكـذا دائمًـا تبـدو النهايـات المفتوحـة في العمـل الإبداعـي نهايـات مؤثـرة وذات ردود فعـل غـير مضمونـة، الجمهـور السـوداني لا يتحمـل مطلقًـا التسـاؤلات الـتي تفجرهـا مثـل هـذه النهايـات.

زحمة أمام شباك التذاكر وزحمة مماثلة أمام باب الدخول و»صقر الجو» يحمل معه نصيبه من السلسيون ويحمل أيضًا حسرته البالغة لأن «ود الشيطان» أجبره على تلك الشراكة. يقترب من باب الدخول، يحاول أن يجد طريقة للتسلل ولكن «أميقو» يسد الباب بجسمه الضخم ويكرر دائمًا مقولته الشهيرة: «هوي يا وهم، نملة ما حتقدر تمر من هنا، سامعين يا بتاعين الملح، يا خوانا بالصف».

حاول أن يتسول أمام شباب التذاكر، فشل، ذهب إلى المطعم القريب، حاول أن يؤثر في صاحب المطعم وفشل أيضًا، دار حول السينما من الجوانب الأربعة يحاول أن يحدد مكانًا على أحد الحوائط كي يقفز عن طريقه إلى الداخل، رجع إلى الزحمة أمام باب الدخول، ها هو «ود الشيطان» يلوح له من وسط الزحمة وتذكرته في يده، يا للسعادة، إنه لا يتحمل هذا الحرمان، لا يمكن أبدًا أن يتصور أنه لا يستطيع اليوم أن يشاهد «جوليانو جمعة»، لا يمكن أبدًا أن يتحمل فكرة أنه لا يستطيع أن يرقص تلك الرقصة الجماعية التي يرقصها كل المتشردين على أنغام تلك الأغنية التي يبثها ميكرفون السينما قبل بداية الفيلم وفي الاستراحة، لماذا يحكم عليه بأن يكون خارج القطيع؟ القطيع الذي اختاره بنفسه بعد أن فلت من ذلك القطيع، قطيع الأهل والأسرة.

مسح «صقر الجو» دمعتين بقميصه المتسخ والملوث بكل

غبار الدنيا وابتعد عن زحمة باب الدخول، بدأ ميكرفون السينما يبث تلك الأغنية، اقترب من الحائط الذي يقع خلف الشاشة تمامًا، جمع بحذر شديد عددًا من قطع الطوب ورصها حتى تساعده في التسلق، جهز تلك العملية وابتعد عن المكان قليلًا، اطمأن تمامًا من عدم وجود إنسان، تسلق كوم الطوب، قفزة واحدة وأمسك بالحائط بكلتا يديه، رفع جسمه إلى أعلى، أخيرًا ها هو يجلس على الحائط، قفزة واحدة إلى الداخل، ابتسم ابتسامة النصر، ارتاح قليلًا، جرب رقصته المميزة على أغنية السينما المعروفة، تأكد من إمكاناته، ادخل يده في جيبه أخرج علبة السلسيون، أخذ منها شمة مكثفة، أحس بعقله يتفتح، أدخل العلبة في مكانها الأليف، تحرك إلى الصالة، كانت جموع المتشردين ترقص على المسطبة التي أمام الشاشة بمنزلة مسرح، صرخ صرخة جميلة وركض للانضمام إليهم، لكن يدًا قوية منعته من ذلك، كان مراقب الصالة يعرفه كما يعرف جميع المشردين المغرمين بالسينما، قبض عليه وأسكت تلك الصرخة الجميلة، قمع ذلك الانتصار العظيم، جرجره من يده وسلمه إلى «أميغو» في باب الدخول.

كان «صقر الجو» في أثناء ذلك ينظر إلى أولئك الراقصين ولم يستطع أن يمنع دموعه من أن تسيل، ودواخله كانت تمتلئ بتلك الحسرة التي لا يعرف معناها إلا العاشقون الكبار، صفعة قوية من «أميغو» على وجهه وركلة من تلك القدم الضخمة وجد بعدها نفسه ملقى خارج السينما، يبكي بتشنج

غريب يهتز له كل جسمه، نهض متثاقلًا، تحسس العلبة في جيبه، ما زال يبكي بحرقة، ها هو الفيلم يبدأ، وها هي المناظر، أهم ما في السينما، دار حول السينما مرات عدَّة، كلما وقعت أصوات السينما على أذنه زاد البكاء، شرب قليلًا من الماء من زير المطعم، حمل معه قطعًا من الفحم، تحرك إلى الحائط الجانبي من السينما الذي يقابله عدد من الدكاكين، أنوار الدكاكين تسقط على هذا الحائط بحد معقول، جلس بعد أن أخرج علبة السلسيون من جيبه، أخذ شمة عميقة تنفس بعدها بعمق، مسح دموعه وشمة أخرى أعمق، نهض من مكانه وقطع الفحم في يده، تناول خرقة قماش من الأرض، مسح بها على الحائط، أمسك قطعة من الفحم جرب خطوطها على الحائط ورسم «البطل» بكامل هيئته، «الخائن» بشاربه الغليظ، ولم ينس أن يضع لكل منهما مسدسه على الجنب، رسم حبيبة «البطل»، رسم حصان «البطل» وحصان «الخائن»، رسم بعض التلال والجبال والأشجار، رسم، ورسم ورسم، وجلس مرة أخرى، امتص وشمَّ أكثر وأكثر ونظر إلى رسوماته، وكان الفيلم قد بدأ، استفاد من أصوات الفيلم بالداخل وأخذ شمة عميقة جدًّا من السلسيون ونظر بعمق إلى رسوماته، أذنه تلتقط أصوات الفيلم بالداخل وعقله يتفتح ورسوماته أخذت تتحرك، تفعل كل شيء، تطارد بعضها بعضًا، أصوات الطلقات في الداخل يجعلها تخرج من المسدسات التي رسمها، استطاع أن يوظف كل أصوات الفيلم التي في الداخل

مـع حركـة رسـوماته في الخـارج، أحـس بمتعـة متناهيـة، وعـرف «صقـر الجـو» أنـه بالإمـكان أن يصنـع الإنسـان الفيلـم الخـاص بـه، وأن عليـه أن يتباهـى وأن يتعـالى عـلى أصحابـه المتشردين لأنـه شـاهد فيلمًـا لا يمكـن مطلقًـا أن يشـاهده أي أحـد منهـم إلا إذا...

جمعة كافي تيه

ذبح «الفاضل» ذلك «العتوت» الذي أهدته إياه «الرتينة»، شيخة سوق «اللبنويا»، وهي سوق صغيرة تكونت تلقائيًّا بمرور العربات التي تذهب نحو الشمال، تقع خلف هذه السوق وببعثرة في جميع الاتجاهات قرية «اللبنويا»، قطاطي القش تتخلل تلك الغابات وبتطاول متعمد استطاع الأهالي أن يبنوا تلك القطاطي على الجبال، والتي لم تستطع التخلص من سيطرة الأشجار والخضرة، حشائش في كل مكان.

تحت شجرة التبلدي الكبيرة تجلس «الرتينة» بكل تلك الحيوية، تتناثر حول الشجرة العناقريب المنسوجة من الجلد، بنابر صغيرة، متناثرة، تستعد «الرتينة» لإنهاء عملية ذلك «العتوت» الملقى على الأرض سابحًا في دمه.

كان هذا «العتوت» قبل مدة قصيرة يتقافز بمتعة لامتناهية على صخور الجبل البعيد، مرحًا، يمتص عذوبة ذلك الخريف، لكنها تعرف حب «الفاضل» العنيد لكل أنواع اللحوم، وعدته في المرة السابقة بهذا الاحتفال الصغير حين كان يقول «تعرفي يا «الرتينة» لحم الغنم بتاعكم هنا

أطعـم مـن غنـم الشـمالية».

ذكـرت لـه مزايـا الغنـم الجبليـة، غنـم «التقـر» فـكان أن راح ضحيـة هـذا الحـوار الحميـم ذلـك «العتـوت»، لـم تحـترم حـتى طفولتـه.

مسح «الفاضـل» عـلى طرف جلبابـه المتسخ والمبقـع بزيـوت العربـات، مسـح يديـه مـن الـدم، اسـتعد «كجـو»، مسـاعد اللـوري، لعمليـة السلخ، أخـرج «الفاضـل» الحقـة، كشح عـلى فمـه كميـة مـن التمبـاك عـلى طريقـة سـائقي اللـواري حـين يفعلـون ذلـك حرصًـا عـلى عـدم انفـلات «الدركسـيون» عـلى تلـك الشـوارع ذات المفاجـآت المسـتمرة.

وصـل «الفاضـل» بعربتـه «السـفنجة» ذات الغنـة المعروفـة لـدى سـوق اللبنويـا، رغبـة في الغنـاء، عـرف سـائقو اللـواري كيـف يحولـون أصـوات العربـات إلى أنغـام، كأن كل العربـة تتحـول إلى آلـة موسـيقية يتحكـم فيهـا السـائق بضغطـه عـلى دواس البنزيـن، مـن بـين كل هـذه الأنغـام كانـت عربـة «الفاضـل» تعـرف بطعمهـا الخـاص، بذلـك البـوري الـذي يغني «ود الجزيـرة وصـل.. شـاحن بصـل»، عندهـا يتقافـز الأطفـال يركضـون خلـف العربـة، تحـس حـتى الحيوانـات بوصولـه، «اللبنويـا» محطـة لا يمكـن تجاوزهـا عنـد كل السـائقين، يجتمعـون فيهـا، يسترخون، يمارسـون ذلـك الحديـث الخـاص عـن العربـات، عـن بطولاتهـم الصغـيرة والكبـيرة، عـن صراعهـم مـع مـلاك العربـات، قصـص وحـكاوي تسـتقبلها «اللبنويـا»

كل يـوم وتخبئهـا في الرمـال والجبـال والغابـات، فتحـت كل صخـرة حكايـة، في أليـاف كل شـجرة قصـة، حيـاة كاملـة تمـارس بتلقائيـة صراعهـا، بأحلامهـا وأمانيهـا، بحزنهـا ويأسـها، بصمتهـا وضجيجهـا النسـبي.

وصـل الفاضـل إلى «اللبنويـا» عـصرًا، مخترقًـا بعربتـه «السـفنجة» كل احتمـالات السـحب المرابطة في السـماء، مطمئنًا حـين يـرى «سـوط المطـر» بألوانـه الزاهيـة معلقًـا في السـماء، يعـزف عـلى العربـة مقطوعـة صغـيرة عـن الفـرح، كان اللـوري محمـلًا بشـوالات الباميـة الناشـفة «الويكـة». ارتاحـت العربـة «السـفنجة» قريبًـا في مكانهـا المعهـود مـن شـجرة التبلـدي بعـد زفـة مـن الترحـاب والسـلام، هـا قـد تحـول ذلـك المتقافـز الشـقي إلى قطـع وأكـوام مـن اللحـم، «الفاضـل» يرقـد عـلى «عنقريـب القـد»، يمتـص بتلـذذ عميـق شـاي «الرتينـة» الـذي يشـفي الصـداع، «كجـو» يفـرد المشـمع اسـتعدادًا لتغطيـة شـحنة «الويكـة» مـن أي احتمـال أن تفسـد بسـبب أمطـار متوقعـة، «الرتينـة» تقلـب اللحـم عـلى الصـاج، تسـتعد لعمـل شـية الجمـر، «الفاضـل» ينتهـي مـن شراب الشـاي، رائحـة التوابـل المختلطـة مـع اللحـم تثـير شـهيته المفتوحـة دومًـا، تعـرف «الرتينـة» ذلـك، لهـذا أعطتـه طحـال العتـوت «أبـو دمـام» مشـويًّا عـلى الجمـر، بنهـم مطمـئن قضـم «الفاضـل»، «أبـو دمـام» بأسـنانه المدربـة عـلى اللحـوم ومسـح شـاربه إعلانًـا عـن النشـوة.

انتهى «جمعة كافي تيه» من العمل في «الجبراكة»، نظر إلى السماء طامعًا في أن تهطل، صعد نحو قطيته، كانت «الجبراكة» في المنحدر الملاصق للمنزل المكون من قطيتين وراكوبة، كان المنزل على الجبل، حيث تجاوره شجرتان من أشجار النبق، صعد بخطوات متعبة، إذ إنه قد تجاوز الخمسين، هرب الأبناء إلى المدن، منهم من دخل العسكرية ومنهم من انطلق دون هدف محدد حيث الرزق، البنات تزوجن، وها هو «جمعة كافي تيه» يبدو منهكًا ومهدودًا بفعل إصراره العنيد على الكدح والكد، ليس هنالك مفر، زوجته «كاكا» ترقد على ذلك العنقريب المهتوك الكرش، تعاني ما تعاني آلامًا، كانت ساعده الأيمن، داهمتها أمراض أهملها التشخيص، حيث لا شفخانة أو مركز صحي، تداوت بمختلف الأعشاب حسب خبرة الإنسانية مع المرض في تلك الأماكن النائية المجهولة.

دخل «جمعة كافي تيه» إلى القطية، كانت «كاكا» تئن وتتقلب من الألم على ذلك العنقريب الذي يحاول وبإصرار التملص من مهمته، لذلك كان يشارك «كاكا» هذا الأنين المستمر، جلس على عنقريبه المتهالك، أخرج برمة العسل المخلوط بالسمسم المسحون، أخذ منها لقمة بملعقة خشبية ليست لها علاقة بشكل الملعقة المعروفة، مضغها، حاول أن يجعل «كاكا» تشاركه هذا الطعام، لكنها رفضت وهذا شيء عادي، منذ فترة بعيدة ابتعدت عن الأكل إلا نادرًا، كانت تعتمد على لبن «الغنماية»، ولكن «الغنماية» لدغها ثعبان

فماتت، كل هموم الدنيا تمارس فعلها على وجدان «جمعة كافي تيه»، كثرت عليه الواجبات، يعد الطعام بنفسه، يرعبه هذا الأنين المستمر، يرهقه العمل في «الجبراكة»، يعذبه الحنين إلى الأولاد والبنات، يحس بالظلم تجاه هذا الغياب، يحتاج إليهم، الآن بالذات، ولكنهم بعيدون، بعيدون جدًّا حيث لا يتصور أبدًا، خرج بعنقريبه من القطية هاربًا من ذلك الأنين، وضعه أمام القطية، استلقى محدقًا إلى السماء، سحب سوداء وبيضاء وأخرى هي ما بين اللونين، يقترب الوقت من الغروب، الشمس تتوارى خلف السحب، يطارده الأنين، يعتدي حتى على ذاكرته التي يلجأ إليها معيدًا أجمل تلك الأيام، إحساس باليأس، لكنه يتمرد عليه دائمًا، شعور بالمسؤولية، يحاول إرهاق السنين أن يضعفه، لو كان الحمار حيًّا لحمل فيه «كاكا» إلى مستشفى «الدلنج»، لو كان بالإمكان ولكن، لا بدَّ من ذهابه إلى «الدلنج»، يبيع كمية من عسل النحل التي استخرجها قريبًا ويشتري بعض الضروريات ويحاول أن يستدين من دكان «حمد الشايقي» مبلغًا من المال يمكنه من ترحيل «كاكا» إلى مستشفى «الدلنج» عبر عربة أو كارو أو حمار، المهم أن تصل إلى المستشفى، من ذلك الطرف الأقصى من قرية «انقاركو» إلى «الدلنج».

حين دخل الليل، كانت البروق تلمع في البعيد، الرعود تسقط على تلك الجبال البعيدة من حيث كان يستلقي «جمعة كافي تيه» كم يتمنى أن تقترب السحب ببروقها ورعودها الصاخبة

حتى تطغى على أنين «كاكا» المقلق للروح.

بنشوته كلها، خرج «الفاضل» بعربته «السفنجة» من «اللبنويا» ولم ينسَ أن يعزف عليها لحن الوداع الحزين، خرج مع الغروب، تلاشى صوت ذلك اللوري المغني عن آذان «الرتينة»، يسابق السحب، حصار الغمام حصار محكم على طول ذلك الشارع المسفلت حديثًا، شارع «الدبيبات، كادوقلي»، وعليه أن يصل إلى «الدبيبات» قبل عصر الغد حتى تشحن شوالات «الويكة» على قطار البضاعة الذي سيمر من «نيالا» عبر «الدبيبات» إلى «الخرطوم».

رفض «الفاضل» أن يحمل معه أي ركاب، حرصًا على أن يصل قبل موعد القطار، وحرصًا خاصًّا على التحكم في خط سيره، أن يرتاح متى ما أراد وأن يتحرك متى ما أراد، «كجو» مستمتع بعذوبة هذا الطقس ويستعد لكل الطوارئ، متمددًا على الشحنة المغطاة بالمشمع الثقيل، يداعبه ذلك النوم اليقظ، تشق العربة «السفنجة» عتمة الليل الحالك، وبصوت «الفاضل» المترنم بمقاطع من الدوبيت، يضغط على دواس البنزين متحكمًا في غناء العربة، يجعلها تصرخ، تبكي، تضحك، تئن، الرعود لا تملك مع هذا الغناء إلا أن تسهم مستعيرة صوت الطبول الهدار، «الفاضل» مستمتعًا بتحكمه في الدركسيون، نسائم رطبة، خريفية الرائحة تزيد من نشوة «كجو» المستلقي على شحنة «الويكة»، «الفاضل» يكشح سفة تمباك على فمه متوقفًا عن الترنم، مغيرًا

السلم الموسيقي لأنغام العربة بتحويله السرعة إلى نمرة ثلاثة إلى أربعة بمتعة عازف ماهر، أنوار العربة تسقط على الأشجار بجانبي الطريق، تبدو الأشجار متبرجة في هذا الليل وتستعد لعشيقها المطر، يطلق «الفاضل» لعربته عنان السرعة، وبينما تنطلق ذاكرته إلى حيث الأهل بـ«الجزيرة»، يحلم بانتهاء هذا الموسم ليعود محملًا بالثروة، لكنه لن يستطيع أن يتخلى عن العمل في هذه المناطق التي تسلب القلب والروح، ها هو الآن في شوق شديد، ذلك الشوق الذي يدفع بهذه العربة للانتهاء من مهمتها ليعود سريعًا إلى «كادوقلي»، ليس مهمًّا هنا «كادوقلي» لكن عودته تعني أن يرتاح كما هي العادة في «اللبنويا»، حيث يمكنه أن يشرب اللبن في أي وقت يشاء، وحيث تهيم روحه العاشقة إلى حيث لا حزن تبعثه الذكريات.

فرح داخلي عميق احتل مساحته في أحاسيس «جمعة كافي تيه» بالرغم من أنين «كاكا» المستمر، أهدت السحب وهي في رحيلها إلى قرية «أنقاركو» أمطارًا غزيرة، انتشت الأرض، الأشجار مارست ذلك الزهو الناتج من فرحتها بلقاء الخصوبة، لذلك كان «جمعة كافي تيه» فرحًا ومحاطًا بالنشوة، وهو يعلم أن بذور «الجبراكة» يمكنها الآن أن تطمئن إلى خروجها من التربة معلنة عن الحياة، برغم ذلك الأنين الأزلي والدائم استطاع أن يحس بالرغبة القوية في الحياة، لذلك تحرك بنشاط مكثف نحو تلك «البخس» التي فيها عسل النحل، جمعها في كيس، ولم ينس أن يلاطف

«كاكا» حتى تشرب كم جرعة من عسل النحل وتواصل ذلك الأنين، صنع نارًا بين تلك الحجارة الثلاثة داخل القطية لمقاومة رطوبة الأمطار، وليصنع عصيدة الدخن كي يفطر بها في الصباح الباكر قبل أن يسافر إلى «الدلنج»، بمتعة خاصة يتعامل «جمعة كافي تيه» مع تفاصيل العصيدة، مستمتعًا بصوت ضربات المطر على صخور الجبل القريبة، تفاؤل ممتد ذلك الذي أصابه حين تحسس «بخس» عسل النحل وهي تستريح على الكيس، طموح عميق في أن رحلته غدًا لا بدَّ لها من أن تكون ناجحة، ورأى في خواطره «كاكا» وهي معافاة تحش الحشائش من «الجبراكة»، وتضحك بصوتها المبحوح حين يتذكرون الأولاد والبنات، رأى أنه اشترى «غنماية» وحمارًا أبيض، ومخزن الذرة ممتلئ، حتى إن في صفائح داخل القطية بعض العيش، رأى «جمعة كافي تيه»، الحياة مستمرة بسبب مواقعة المطر على تلك الأرض الصخرية التي لا تبخل مطلقًا بنمو البذرة، رأى كل ذلك وهو يحاول أن يصنع عصيدته الصباحية بالمفراكة.

فشلت كل محاولات «الفاضل» في الهروب من السحب، داهمته أمطار غزيرة، لم يتوقف أبدًا، «كجو» تغطي وتحمل لسعات الأمطار بصبر مجرب وخبرة صبورة، أضافت الطبيعة صوتًا مميزًا على الأنغام التي تصدرها عربة «الفاضل»، صوت سقوط حبات المطر الكبيرة على الأرض وأغصان الأشجار وعلى الأسفلت، توقف «الفاضل» في محطة «الكرقل»، منطقة عالية لذلك هي شديدة البرودة،

ما زالت الأمطار متواصلة، التعب وحده هو الذي جعل «الفاضل» يستريح على هذه المحطة الخالية من البشر، ما عدا «حميدان» ذلك العجوز الهرم صاحب المطعم المتواضع المبني من القش على شكل راكوبة كبيرة تتناثر عليها العناقريب المتهالكة، الطقس يحرض على الجوع ولكن ما من شيء، تناول «الفاضل» أحد العناقريب ووضعه في مكان من الراكوبة بحيث يضمن بعض الدفء ويتفادى قطرات المطر التي تنزل من على السقف، سرعان ما نام.

في ذلك الدغش المبلل بالأمطار، صباح مترعٌ ونقيٌّ، أكل «جمعة كافي تيه» عصيدة الدخن بالعسل، لاطف «كاكا» حتى أكلت معه ما تيسر لها، تناول الكيس الذي فيه بخس عسل النحل ونظر إلى «كاكا» نظرة يحاول أن يجد فيها ما يطمئن، إن عليها أن تنتظر قليلًا وتعود كما كانت نشطة ومرحة وتحب الحياة، نظر إليها بحنان أصيل وقديم قدم ممارسة الحياة معها، حمل عصاه وخرج، إن عليه أن يقطع المسافة من «أنقاركو» وحتى «الدلنج» برجليه متيقنًا من ذلك، وبخاصة أن المشي في هذا الصباح الخريفي لا يبعث على التعب، ثم إن الرحلة ليست طويلة، حتمًا سيعود في المساء ليرجع في صباح الغد ومعه «كاكا» إلى المستشفى، خرج من منزله متجهًا نحو شارع الأسفلت الذي يقود إلى «الدلنج» مارًّا بسوق «أنقاركو» الصغيرة البائسة، خطواته تبدو نشطه، تخلت عن ذلك الإرهاق، حاولت أن تتوافق مع آماله وطموحاته الصغيرة الكبيرة في إصرارها على الحياة.

شرب «الفاضل» لبنًا ساخنًا جهزه له «حميدان» في الصباح الباكر، قبل الطيور، وخرج من «الكرقل» بباقي ذلك النعاس، كان متمهلًا في سيره يحاول أن يستمتع بهذا الصباح الخريفي الغائم ومطمئنًا إلى وصوله في الموعد المحدد للقطار متوقعًا أن يكون القطار متأخرًا كعادته.

خطوات «جمعة كافي تيه» ما زالت نشطه متجهة نحو شارع الأسفلت، يحمل معه كيس عسل النحل، عصاه تضرب على الأرض متوافقة مع إيقاع خطواته، يمشي ويحلم بالحياة، وصل إلى شارع الأسفلت، اتجه نحو «الدلنج» محاذيًا الشارع على الجهة اليمنى، خواطره تسبق خطواته في تحقيق أهداف رحلته هذه، «كاكا» تخرج من المستشفى متعافية، حمار أبيض طويل، مراح من الأغنام، «كاكا» تحلب اللبن، الجبراكة تخضر ويمتلئ مخزن العيش، يسير في محاذاة الشارع ولا يهتم مطلقًا باللواري التي تمر على الشارع دون أدنى التفات إليها، ثم إنه لا يهتم بإيقافها، مهتمًّا فقط بأحلامه الصغيرة التي تبعث على الحياة، هكذا، يمشي «جمعة كافي تيه»، قاصدًا «الدلنج» ناسيًا كل إرهاق السنين، تاركًا وراءه أنين «كاكا» المرهق.

يحيي «الفاضل» الحلَّال والقرى التي يمر بها بذلك البوري المغني، على جانبي الطريق يرى أولئك الزارعين ولا ينسى أن يداعبهم بتحية حارة، أسراب من جداد الوادي تسرح هناك بين الأشجار، عصافير ملونة تتقافز على أغصان الأشجار

المزهـوة بنفسـها، يترنـم «الفاضـل» ويمـارس عزفـه عـلى العربة الـتي ازدادت سرعتهـا، «كجـو» مسـتلقيًا عـلى الشـحنة في تلـك اليقظـة النائمـة، كانـت العربـة تجـري وتعـزف أنغامًـا تخلـو تمامًـا مـن الحـزن، «الفاضـل» نقـل فرحتـه المشـبوبة العارمـة إلى صـوت العربـة مـن خـلال حركـة رجلـه عـلى دواس البنزيـن ومـن خـلال تغيـيره لسرعـة العربـة مـن نمـرة إلى نمـرة متحكمًـا وبمتعـة في «التعشـيقة» والدركسـيون، يتفـادى مـراح مـن الأغنـام يحـاول أن يعـبر الأسـفلت.

مسـتمتعًا بخطواتـه وخواطـره كان «جمعـة كافي تيـه» يمـشي ويمـشي ويمـشي، حالمًـا بنهايـة أزماتـه المسـتعصية، يـرى أولاده قريبـين بـدلًا مـن ذلـك البعـد المحتوم بسـبب المـدن والأرزاق، هـذا الخيـال يحـول دواخلـه إلى فـرح يقـود تلـك الخطـوات المسـنة، بنشـاط، بحيويـة، ينظـر إلى الأمـام مسـتمدة قـوة دفعـه مـن كل تلـك الذكريـات القديمـة، يمـشي لا يلتفـت إلى الـوراء، لا يهتـم بالعربـات واللـواري الـتي تتخطـاه، غارقًـا في ذاتـه، تمـتزج خيالاتـه المتفائلـة بأنـين «كاكا» فيخـاف أن يهـرب منـه الفـرح الداخـلي، يقـاوم بتلـك الأحـلام الـتي تقـول إن «كاكا» خرجـت مـن مستشـفى «الدلنـج» تحـب الحيـاة وتمـارس حيويتهـا الفاعلـة في المـكان كلـه، المـنزل، «الجبراكـة»، وحـتى تفاصيـل صنـع العصيـدة.. فيمـشي ويمـشي ويمـشي.

«كاكا» داخـل القطيـة مـا زالـت تـئن، وودعـت زوجهـا بعينـين فاترتـين، لا تقـوى حـتى عـلى الـكلام، لا تسـتطيع أن تجلـس

علـى العنقريـب، وحيـدة وسـط هـذا الطقـس الـذي يشـجع علـى الحيـاة، لكنهـا فقـدت هـذا الإحسـاس، حاولـت أن تغـير مـن رقدتهـا فسـقطت مـن علـى العنقريـب، تحـاول الآن أن ترجـع إلى العنقريـب، تحـاول بمشـقة تظهـر مـن خـلال ذلـك الأنـين المكتـوم. إنهـا تحـاول.

العربـة «السـفنجة» تجـري وكأنهـا ترقـص فرحـة بـكل هـذا النقـاء الخريفـي الـذي يتمـيز بـه هـذا الصبـاح، تخطـى الفاضـل قريـة «أنقاركـو» متجهًـا إلى «الدلنـج» بعـد أن خـص تلـك القريـة بتحيـة مـن ذلـك البـوري المغـني، لـوح لـه بعـض الأهـالي بالتحيـة.

مـن ضمـن العربـات واللـواري الـتي مـرت علـى «جمعـة كافي تيـه»، وهـو في طريقـه إلى هنـاك، إلى «الدلنـج» حيـث يمكـن أن يحقـق أحلامـه، مـرت العربـة «السـفنجة»، عربـة «الفاضـل» بـه، تجاوزتـه العربـة بعـد أن قـذف «الفاضـل» علـى أذنيـه بتلـك التحيـة الحميمـة، لـم يهتـم «جمعـة كافي تيـه» لذلـك كعادتـه، ومـا أكـثر مـا مـرت بـه اللـواري والعربـات وهـو في حالـة عـدم الاهتمـام هـذي، تتجـاوزه العربـات واللـواري وهـو يمـشي، يمـشي بخطواتـه وخواطـره الحالمـة.

بعـد أن تجـاوز «الفاضـل» هـذا الرجـل المسـن بمسـافة بعيـدة، فجـأة قـرر أن ينحـاز لـكل هـذا القـدر مـن الفـرح الـذي في داخلـه، قـرر أن يصحـب هـذا الرجـل المسـن معـه، أوقـف العربـة، بمتعـة متناهيـة عـدل وضـع «التعشـيقة» إلى الخلـف

نحـو ذلـك الرجـل المسـن الـذي يدعـى «جمعـة كافي تيـه»، العربـة ترجـع إلى الخلـف بأنغـام فرحـة جـدًّا، «جمعـة كافي تيـه» خطواتـه النشـطة إلى الإمـام، العربـة ترجع إلى الخلـف، خطوات الأحـلام كلهـا إلى الأمـام، كان «جمعـة كافي تيـه»، تائهًـا في أفـكاره وخيالاتـه حـين أوقـف «الفاضـل» العربـة أمامـه، قائـلًا: «اركـب يـا عمنـا واصـل ويـن؟».

«ماشي دلنج».

بفرح ممزوج بالخوف من أن يطالبه السائق بالأجرة.

«اركب حنوصلك».

«قـروش مـا في»، قـال «جمعـة كافي تيـه» بـكل ذلـك الصـدق الـذي عـادة مـا يهـزم الفقـر.

«يا حاج قروش شنو؟ اركب ياخي».

«كجـو» سـاعد «جمعـة كافي تيـه» عـلى الصعـود، أجلسـه معـه عـلى شـحنة «الويكـة» وتحـرك «الفاضـل» بعربتـه إلى الأمـام، ازداد الفـرح الداخـلي لـدى «جمعـة كافي تيـه»، خاصـة أن أرض أحلامـه قـد أصبحـت قريبـة بواسـطة هـذا السـائق المحسـن.

في غمـرة نشـوته كان «الفاضـل» يـسرع بالعربـة، حـتى إنـه لـم يتوقـع أن يمـر عـلى الشـارع مـراح مـن الأغنـام، حـاول أن يتفـاداه بسرعـة، مالـت العربـة، وسـقط «جمعـة كافي تيـه» مقذوفًـا بسـبب هـذا التفـادي السريـع، سـقط مـن فـوق شـحنة

«الويكـة» عـلى الجانـب الآخـر مـن شـارع الأسـفلت، سـقط عـلى رقبتـه، دق عنقـه عـلى الأسـفلت، صـاح «كجـو» بهلـع كي يتوقـف «الفاضـل» الـذي توقـف بعـد مـدة «الراجـل وقـع».

«يا زول؟».

رجعـت العربـة إلى الخلـف مـرة أخـرى، نـزل «الفاضـل» و«كجـو»، حيـث كان يرقـد «جمعـة كافي تيـه» جثـة هامـدة، مـات، بـكى «الفاضـل» بصـوت مسـموع، بـكى لأنـه أحـس بالنـدم، لمـاذا أصر عـلى أن يركـب معـه هـذا الرجـل المسـن؟ إصرار غريـب، رجـع إليـه بعربتـه دون أن يطلـب هـذا الرجـل ذلـك، مـات «جمعـة كافي تيـه» بـين «أنقاركـو» و«الدلنـج»، بـين أحلامـه وأمانيـه ورغبتـه في أن تسـتمر الحيـاة.

حـين سـقط «جمعـه كافي تيـه» مـن عـلى ذلـك اللـوري القـدري جـدًّا، كانـت «كاكا» مـا زالـت تحـاول أن ترجـع إلى العنقريـب الـذي سـقطت منـه وحـين لفـظ «جمعـة كافي تيـه» أنفاسـه الطموحـة والغاليـة عـلى أسـفلت ذلـك الشـارع كانـت «كاكا» قـد زحفـت خـارج القطيـة وبمجهـود مضـن جـدًّا، مـدت رأسـها خـارج بـاب القطيـة، وكان بقيـة جسـدها في الداخـل، استنشـقت بعمـق هـواء هـذا الصبـاح الخريفـي الغائـم، وكانـت تنظـر إلى هنـاك حيـث ذهـب «جمعـة كافي تيـه»، كانـت تحـاول أن تعـرف احتمـالات وصولـه المتعـددة.

خور كلبي يفتقد «أوهو»

خريف مترع، تسقط القراقير من أيدي الصغار وتدور على الأرض المبلولة، في الجباريك، تلك المزارع الصغيرة، كانت نسمات الخريف تجادل قناديل عيش الريف ولا تفتأ تعلن رقصتها مع النسمات، حين كان الأطفال يتفادون البرك الصغيرة بعرباتهم على مختلف التصميمات، تلك العربات المصنوعة من السلوك، عربات السلوك، وبينما كانوا يمارسون تلك الفرحة مقلدين أصوات العربات، دخلت السوق الكبير أفواج من النساء المترنمات ورجال بقرون على رؤوسهم، خليط من الجنسين يتحرك مع رقصة «الكمبلا» التي اعتدت فجأة على حركة البيع والشراء في السوق وجذبت إليها حتى التجار، تفرقع سياط الراقصين حين تضرب على الأرض وتكشكش الأقدام التي طوقت بحجول من العلب الصغيرة التي مُلئت بالحصي وبأخرى من أغطية زجاج «الليمونادة»، هكذا، تتدفق النغمات الموسيقية بتركيب ممتع، يبدو بسيطًا ولكنه معقد بما يكفي من عذوبة، إن صخب تلك

الأقدام على الأرض مع حمحمة الراقصين وغناء المترنمات من النساء مع فرقعة السياط بين فينة وأخرى، كل هذه الأصوات قد تأتيك هكذا، دفقة واحدة، خرجت رقصة «الكمبلا» فجرًا من «كحليات» ووزعت فرحتها على طول الطريق حتي دخلت سوق كادوقلي الكبير.

من وادي تحيط به الجبال يدعى «لوفو» تنحدر المياه، شلال عبر الجبال، يمكن أن نلاحظ فعل الماء على الصخور، تشكيلات غريبة على الصخور تؤكد قيمة الزمن وقوة الماء وتحمل الصخر، تنحدر المياه من هذا الشلال، تلامس الصخور المبعثرة على الأرض، حين يسمع أهالي حي «قعر الحجر» هدير المياه يعرفون أن خور «كلبي» - بكسر الكاف - قد أعلن حضوره، قد يأتي مبكرًا وقد يتأخر، لذا دائمًا ما تتمايز به فصول الخريف، إن السحابات التي تبكي ببروقها ورعودها على تلك الجبال قد تتمانع أحيانا وقد تهرب، خور «كلبي» ينتزع الأرض التي يمر عليها فيقسم الجزء الغربي من المدينة، يقسم بين حي «الملكية» وحي «الرديف» ويتعذر تمامًا أن تصل من حي «البانجديد» إلى حي «الموظفين» ومن حي «السوق» إلى حي «الملكية»، يطوق خور «كلبي» الجزء الغربي من المدينة منسربًا عبر سهول ووديان، يلتقي خيران أخرى في مسيرته وتنمحي ملامح تلك الخيران في خور «أبو حبل» الكبير.

عادة ما تعجز العربة التي تنقل طلاب مدرسة كادوقلي

الثانويـة العليـا «تلـو» - بكـسر التـاء - عـن أداء مهمتهـا في توصيل الطلبـة الذيـن هـم خـارج الداخليـة بسـبب ذلـك الخـور الـذي يمـر بحـي «الفقـراء» وحـي «حجـر المـك»، الطـلاب تراهـم يتجهـون في جميـع الاتجاهـات، منهـم مـن يحمـل حـذاءه في يـده ومنهـم مـن احتـاط لهـذا الأمـر فاقتـنى شـدة أو جزمـة مـن البلاسـتيك أو كبـك أو باتـا، خـور «حجـر المـك» يتمتـع بالجـزء الـشرقي مـن المدينـة ويتركهـا بعـد أن يمـر بحـي «كلبـا» - بضـم الـكاف، وحـي «مرتـا» أيضًـا يضـم الميـم في الجـزء الشـمالي، قبـل أن يداعـب حافـة الأرض الـتي عليهـا قـصر الضيافـة وسـط تلـك الحدائـق والبسـاتين الـتي تتعانـق فيهـا الأشـجار، الأشـجار تتعانـق عنـد مدخـل ومخـرج المدينـة الشـمالي كأول إشـارة جماليـة، تسـتطيع أن تسـمع هديـره وأنـت في موقـف اللـواري والبصـات الـتي تتجـه شـمالًا، أمـام منطقـة «الغيـط» القديمـة، يتجـه خـور «حجـر المـك» شـمالًا كمـا اتجـه رفيقـه خـور «كلـبي»، تـرى هـل يلتقيـان؟.

يمـيز المسـترخون في منازلهـم مـن الأصـوات الـتي تـسري عـبر هـذا الليـل الممـيز بالمطـر والقمـر، يمـيزون صـوت «بكـري» الملقـب بـ»أوهـو» - بضـم الألـف - وهـو يترنـم بأغنيـة «هـوج الريـاح» للجابـري:

«الليل الليل

الليل الليل

الليل يهود بي».

عـادة حـين يقـترب «أوهـو» مـن تلـك الربـوة العالية عنـد مدخل حـي «الملكيـة» يتخـلى عـن تلـك الأغنيـة ليضـم شـفتيه ويصفـر ذلـك النغـم الـذي يسـتعذبه جـدًّا، صفـارة الكاوبـوي، وكأنـه حـين يعتـلي تلـك الربـوة يتقمـص أحـد أدوار «جـون وايـن» أو «فرانكـو نـيرو» «كلنـت إيسـتوود»، «أوهـو» يـأتي دائمًـا مـن السـينما، لا يفارقهـا أبـدًا، لكـن الخريـف يعتـدي عـلي مزاجـه ويحـرض شـجنه وحنينـه إلى عوالـم أخـرى، هنـاك، بعيـدة، حيـث إنهـا ليسـت هنـا، يضحـك عـلى طريقـة أبطـال الأفـلام، يحـزن ويبـكي متمثـلًا تلـك الصراعـات التراجيديـة النقيـة، يمـشي كمـا يمشـون داخـل ذلـك الحائـط الأبيـض المسـتطيل، يحلـم بمـدن وشـوارع وبنسـاء جميـلات، بخيـول مجنحـة في الفـراغ، كـم يتمـنى أن يمتلـك حصانًـا، يصيـح في أولئـك الذيـن يضايقونه بهذرهـم صـافي النيـة، يصيـح فيهـم ولا ينـسى أن يقطـب جبينه عـلى طريقـة «شـارلس برونسـون»:

«شط أب».

يمتلـك حصيلـة مـن مفـردات اللغـة الإنجليزيـة، العاميـة الأمريكيـة تحديـدًا، مـا يمكنـه مـن التعبـير بهـا، يرتـدي قبعـة مـن السـعف يميلهـا قليـلًا إلى الأمـام بحيـث تغطـي جـزءًا مـن الوجـه فيبـدو غامضًـا.

حـين حصـل «أوهـو» عـلى ذلـك البالطـو جـرب أن يصعـد

الجبل ويأتي نازلًا وفي ذهنه تضج تلك الموسيقية التصويرية التي تكثف دخول «ديجانقو» إلى المدينة، ينزل «أوهو» من الجبل ببطء، يتضايق حين لاحظ أن قدميه تفقدان تلك الجزمة التي عليها النجمة من الخلف، فقد كان يرتدي شبشبًا مصنوعًا من لستك إطارات العربات «تموت تخلي»، اهتزت شخصية الكاوبوي، تجاوز «أوهو» معضلة الجزمة، تسامى عليها، احتفظ بمشية الكاوبوي، انبعثت في داخله تلك الموسيقى، انفجر منسجمًا معها في صفير ممتع، حين نزل «أوهو» من الجبل، قرر أن يقطع خور «كلبي» متجهًا إلى نادي «الموردة»، قرر أن يقطع الخور من حي «الملكية» إلى حي «الرديف»، حيث كان نادي «الموردة» القديم على ضفة الخور الأخرى، كان الخور في قمة اندفاعه وكانت تلك الموسيقى التي في دواخله مع صفيره العذب تهون من أمر اندفاع المياه، اقتحم «أوهو» المياه ببطء الواثق، لم يتخلَّ عن صفيره وهو يحس بسرج الحصان تحته، يقاوم المياه بإصرار أبطال السينما، حين وصل إلى منتصف الخور، وقف مواجهًا عنف التيار، المياه وصلت إلى وسطه، وقف ينظر إلى هنا وهناك، يصفر منتشيًا، حين مرَّ به أحد السكارى، صاح في «أوهو»:

«يا زول، الخور دا بشيلك».

نظر إليه «أوهو» وقطب جبينه وتخلى عن صفيره مرغمًا ليصرخ في وجه هذا السكير:

«قير أوت منها».

بعد أن خرج «أوهو» من خور «كلبي» واتجه إلى نادي «الموردة»، لم يكن نادي «الموردة» في ذهنه سوس بار من بارات مدينة «تكساس»، الحضور داخل النادي يتوزع على ألعاب «الكوتشينة» و«الضمنة» وبعضهم يتأنسون، انتبه هذا الحضور في لحظة واحدة حين دفع «أوهو» باب النادي، دفعه بعنف ونظر خلفه إلى الباب، كان متأكدًا من أن الباب تتأرجح منه الضلفتان رغم أن باب النادي كان من ضلفة واحدة.

ضحك الحضور، كان «أوهو» مبتلًّا، يرتدي ذلك البالطو، القبعة السعفية تغطي جزءًا من وجهه، يقف مباعدًا بين ساقيه، حتى إنك تستطيع أن تجزم حين تراه واقفًا هكذا أنه يرتدي حزامًا يتدلى منه مسدسان، استطاع أحد الأشقياء أن يعيده إلى الواقع حين صرخ مرحبًا به: «أوهو أوهو».

حينها خرجت شخصية الكاوبوي من دواخله وبحضور سريع رد على ذلك الصائح باسمه:

«بطنك فيها بابو».

ضحك الحضور ضحكة مجلجلة تردد صداها على ذلك الجبل القريب، من بين تلك الضحكة التقط «أوهو» عذاب دلوكه كانت تحاول أن تتمرد على ذلك الليل، مست دواخله الشفيفة أصوات بنات حي الرديف:

«قصدك قصدك

مشتاقين ما لقو

قصدي

فوق السجاير

ولع لي نحرقو»

كم يجذبه الغناء، لذلك خرج «أوهو» من النادي متجهًا إلى حيث الغناء وقرر أن يرقص هذه الليلة كصعلوك نبيل.

يمر عام

ويأتي عام

ويمارس خور «كلبي» حضوره الموسمي بنسبية مختلفة، لكن، حين جاء خور «كلبي» هذا العام التي تلي وقفة - أوهو- بين مياه المندفعة، جاء خور «كلبي» وكان «أوهو» قد ذهب إلى حيث لا رجعة.

وجدوه مستلقيًا وبهدوء تلوح على وجهه بقية من تكشيرة لآخر كاوبوي تقمصه.

كان أحد الأزرار الحديدية في شبشبه الذي ينتعله - تموت تخلي - هذا الزر الحديدي أصابه الصدأ فجرح قدمه ومات بالتيتانوس، بكري «أوهو» مات مستلقيًا على برش وبقربه

كانـت توجـد نجمتـان مـن الحديـد وبـوت قديـم مهـترئ مـن ذلـك النـوع الـذي ينتعلـه العسـاكر.

«كبي جزلان»

خطواته واسعة، سريعة، تشق ظلمة الليل، لا تهتم مطلقًا بكل مخاطر الطريق، فارع القامة، ضخم الجثة، عارٍ تمامًا، لا يلبس حتى ما يستر العورة، عار كالانتماء، كما ولدته أمه، اعتاد «كبي جزلان» - هكذا كانوا ينادونه، لم يشارك أبدًا في اختيارات البشر لكل المسميات التي يطلقونها عليه - اعتاد «كبي جزلان» هذه الرحلة اليومية التي تبدأ في نهايات الليل وتنتهي في بواكير الصباح، إنها رحلة موسمية، تبدو خطوات «كبي جزلان» تواقع هذا الطريق المخيف حين تبدأ إجازات المدارس، تلك المدارس التي علمته حب الرغيف، مدارس «كاتشا» أو «كجه» كما يقول سكان جبال النوبة الأصليين، لا تعني تلك المدارس بـ «كاتشا»، مدارس أسستها الإرساليات المسيحية، لا تعني بالنسبة إليه غير أنها مكان يوجد فيه الرغيف، إن ضجة التلاميذ والطلاب تشعره بالأمان، إن فكرة الأمن الغذائي لها ذلك المتسع من الاهتمام في عقل «كبي جزلان»، خارج تلك النوايا المبرمجة التي جعلت الإرساليات تحقق طموحاتها المتعمدة في أن تكون تلك المنطقة التي تقع جنوب مدينة «كادوقلي»،

منطقـة «كاتشـا» منطقـة تلتحـم فيهـا كل تناقضـات حركـة الفكـر الإنسـاني، مـدارس ذات بنـاء مدهـش بالنسـبة إلى سـكان المنطقـة، أخـذت تلـك الجبـال الـتي تحيـط بالمـدارس تقـذف بأصـداء الأناشـيد إلى البعيـد، إلى تلـك الغابـات والسـهول، إلى آذان حيوانـات المنطقـة المتوحشـة والمستأنسـة، ضجـة التلاميـذ في حركتهـم وسـكونهم، ألعابهـم ومسـامراتهم في الليـالي المظلمـة والمقمـرة خـارج عنابـر الداخليـات، إن الظـلام في تلـك المنطقـة لـه لـون أكثـف مـن حـدود السـواد، لكـن تبقـى تلـك المـدارس بقـع مـن الضـوء يهتـدي بهـا السـائرون عـلى تلك الـدروب الموحشـة والنائيـة، خـارج أحـلام أولئـك المدرسـين، خـارج أرقهـم الـذي تصنعـه ذكريـات المـدن الـتي أتـوا منهـا، خـارج كل تلـك الأفعـال التاريخيـة، كان «كـي جـزلان» يتعامـل مـع هـذه المـدارس بمنتهـى التجريـد، لا تعـني هـذه المـدارس بالنسـبة إليـه سـوى الرغيـف، أصبـح مـذاق الرغيـف عـلى لسـانه نوعـًا غريبـًا مـن الإدمـان، لا يـبرح مطلقـًا مكانـه الحميـم أمـام مطابـخ الداخليـات، يسـمح لنفسـه بالتجـول حـتى مبـاني السـفرة «قاعـة الطعـام» ليـس أبعـد مـن ذلـك بـين المطبـخ وقاعـة الطعـام، كان يحـس حـين يـري أولئـك التلاميـذ يتناولون طعامهـم، حـين يـرى ذلـك الرغيـف المـدور تمزقـه الأيـدي وتلتهمـه الأفـواه، يحـس أن فكرتـه عـن هـذا الـشيء الغريـب هـو محـور حركـة الكـون.

الطباخـون وعمـال المطبـخ اعتـادوه، أصبـح مـن ضمـن مسـؤولياتهم، حـاول مـرة كبـير الطباخـين أن يبعـده عـن

المنطقـة، عـن كمية الرغيـف الـتي يلتهمهـا، كان «كـبي جـزلان» هنـاك كمـا اعتـاد، وقـف تلك الوقفـة التي تشـبه وقفـة التماثيل، وقـف أمـام المطبـخ، كان ذلـك في الصبـاح، مُنِـعَ مـن ممارسـة عشـقه، تحولـت تلـك الوقفـة إلى صخـب عـالٍ جـدًّا، همهمـات احتجـاج، إذ إنـه لا يسـتطيع مطلقًـا أن يختزن في عقلـه البسـيط أي إشـارات أو علامـات يمكـن أن يقـال عنهـا إنهـا لغـة مشـتركة بـين البـشر، همهمـات غريبـة تحولـت إلى صراخ هسـتيري، تحـرر ذلـك التمثـال مـن جمـوده، تحـول «كـبي جـزلان» إلى كتلـة مـن الانفعـال أطاحـت بـكل الأشـياء الـتي صادفتـه أو حاولـت أن تقـف دونـه والرغيـف، قـذف بكبـير الطباخـين عـلى أقـرب صخـرة عـلى ذلـك الجبـل، قـوة هائلـة اقتلعـت أبـواب المطبـخ، هشـمت الشـبابيك، حطـم «كـبي جـزلان» أواني الطبـخ، هرسـها مـع ملاحظـة أنهـا مـن الألمونيـوم، لكنـه اسـتطاع أن يشـكل بثورتـه العارمـة أوضاعًـا وملامـح أخـرى لأي إنـاء مـر بـه في طريقـه، كان يركـض في دوائـر متوتـرة ويـصرخ ضـد كل العالـم الموجـود بالمنطقـة، امتـدت ثـورة «كـبي جـزلان» حـتى وصلـت إلى الطابـور الصباحـي، كان ناظـر المدرسـة يتحـدث عـن النظام كمـا كل يـوم، المدرسـون في مكاتبهـم يسـتعدون لبدايـة اليـوم الـدراسي، التلاميـذ يحاولـون الهـروب بشرودهـم وهمسـاتهم مـن خطبـة الناظـر المعتـادة، جـاء «كـبي جـزلان» كمـا الإعصار، اقتحـم الطابـور يـضرب كل مـن يصادفـه، هـرج، مـرج، تناثـر التلاميـذ في الفنـاء، اختفـى الناظـر داخـل مكتبـه، «كـبي جـزلان» يطـارد التلاميـذ في الفنـاء، يـضرب بـكل قـوة، معركـة لها

ضحايا، جرحي، تلميذ كُسِرَتْ يده، بعضهم أغمي عليهم، ما زالت ثورة «كبي جزلان» مستمرة، هرول أحد المدرسين إلى حيث مكان الانطلاقة، عرف الأمر، أخذ معه أكثر من عشرة أرغفة وجاء إلى الفناء، يتابع إلى درجة اللهث خطوات «كبي جزلان» الثائرة، أخيرًا اقترب منه، لوَّح له بالأرغفة، همدت ثورة «كبي جزلان» رويدًا رويدًا، اقترب من المدرس بحذر شديد، خطف الأرغفة من يده، همهم، صرخ بعنف، ارتعش جسمه، أخذ واحدًا من الأرغفة، كومها في يده الضخمة، رفع يده اليسرى إلى أعلى وكأنه يحيي الشمس، مسح الرغيف على عرق إبطه الذي كان غزيرًا جدًّا، التهمه بعنف، كأن «كبي جزلان» يأكل من عرق إبطيه.

بعدها جاءت تعليمات من الناظر توصي بالاعتناء التام بمشروع «كبي جزلان» الغذائي، بعدها أصبح واحدًا من أهم مسؤوليات الطباخين.

يخاف «كبي جزلان» من الأماكن الخالية، يعرف تمامًا حين يختفي التلاميذ من المدارس أنه سيواجه أيامًا صعبة وعصيبة، أيامًا يختفي فيها الرغيف، في تلك الأيام، أيام الإجازات، يكون «كبي جزلان» خارج حيويته، متداخلًا مع حزنه الأبكم، وقتها لا تجدي كل الصرخات، كل الهمهمات، يفقد تمامًا معنى وجوده، يواجه بذاكرته غير المعقدة تلك الأبواب والشبابيك المغلقة، أغنام ترعى في فناء المدرسة، الحشائش البرية تتطاول أحيانًا كثيرة على سور المدارس،

خريف تصرخ فيه السماء برعودها وتشتعل ببروقها، وحين ترعد السماء يصرخ «كبي جزلان» في وجهها وكأنه يحتج ضد الخريف، الخريف يعني أن تقفل المدارس، يختفي التلاميذ، يرحلون إلى حيث لا يعلم، يختفي تبعًا لذلك الرغيف، محور فكرة «كبي جزلان» عن الكون، إجازة الخريف تمتد إلى ستة أشهر، لذا فإن رحلات «كبي جزلان»، تلك الرحلات التي تبدأ في نهايات الليل وتنتهي في الصباح لتبدأ من جديد في ظهيرة حارة ككل نهارات الخريف، رحلات البحث عن رغيف، عن ذلك المذاق، مذاق يقاتل من أجله «كبي جزلان» الطبيعة بكل عناصرها.

خطواته واسعة تهزم ظلمة الليل، تقوده لهفة مكثفة، يتجه من «كاتشا» شمالًا إلى «كادوقلي»، يستطيع أن يهرب من كل الوحوش التي في الطريق، عارٍ كالانتماء، كما ولدته أمه، يشق مهرولًا غابات كثيفة، تهرب من أمامه حتى الشياطين، لا يتوقف أبدًا، لا يسمح لخطواته أن يصيبها التعب، تجلده سياط من الأمطار، يهتدي بالبروق ويصرخ حين ترعد، لكنه لا يتوقف أبدًا، يخوض في وحول لزجة حافيًا، لا يلتفت حتى للأشواك التي تسكن قدميه، يسبح متحديًا تلك الخيران التي تندفع من الجبال، لا يهم، حتى قوة الاندفاع يهزمها «كبي جزلان» في بحثه الوجودي عن ذلك المذاق، عن تلك الرائحة التي تتفتح أمامها كل مسامات حواسه إلى أكثر من خمس، هذه المسافة التي تطويها خطوات «كبي جزلان» كانت لواري «أب أربعة والأبيض ضميرك والسفنجة» تقطعها

في موسـم الخريـف، موسـم إجـازات المـدارس في أكـثر مـن عـشر سـاعات، وأحيانًـا أيـام بنهاراتهـا ولياليهـا، بـل في معظـم الأحـوال تتعطـل هـذه الحركـة في الخريـف، لكـن «كـبي جـزلان» لا يتعطـل أبـدًا، في نهايـات كل ليـل مـن ليـالي هـذه الشـهور السـتة ينطلـق «كـبي جـزلان» إلى «كادوقـلي»، يصـل في الصبـاح الباكـر، يقـف أمـام فـرن «أحمـد حريقـة»، يقـف كتمثـال، ينظـر إلى طـاولات الرغيـف وهـي تخـرج مـن الفـرن، ملوثًـا بالطـين والعـرق، درجـة حـرارة جسـمه يمكنهـا أن تعـادل حـرارة الفـرن الـذي يخـرج منـه الرغيـف، تتسـاقط قطـرات العـرق مـن جسـمه العـاري تمامًـا عـلى الأرض، إن «كـبي جـزلان» يمطـر أيضًـا في كل خريـف يختفـي فيـه التلاميـذ مـن المـدارس.

في بدايـة علاقتـه بأفـران «كادوقـلي» تـصرف بذلـك الجنـون الـذي يصنعـه الحرمـان، كان يهجـم عـلى طـاولات الرغيـف بعنـف غريـب، مداهمـة ينـدر أن تجدهـا حـتى عنـد أولئـك الذيـن يؤمنـون بالنضـال المسـلح، بأصابعـه العشرة يسـتطيع أن يكـوم عـددًا مـن الأرغفـة، خطـف مـرة طاولـة كاملـة وركـض بهـا هازمًـا كل اللاحقـين بـه، انطلـق كمـا الإعصـار والطاولـة تبـدو إزاء جسـمه الضخـم أشـبه بصنـدوق خشـبي صغـير، تكـررت هـذه الأفعـال الجنونيـة، حـتى إن الأفـران غـيرت مواعيدهـا بعـد أن اكتشـفت أن إخفاءهـا لطـاولات الرغيـف لـن تمنـع «كـبي جـزلان» مـن الحصـول عليهـا، لا شيء يجـدي مطلقًـا مـع الطريقـة الـتي يقتحـم بهـا «كـبي جـزلان»، اسـتقرت ممارسـة «كـبي جـزلان» مـع أفـران «كادوقـلي» بعـد أن اسـتطاع «أحمـد

حريقـة» أن يحـصر كل تلـك الثـورة أمـام فرنـه فقـط، رجـل كريـم اسـتطاع أن يسـمح بسـماحة لذلـك العمـلاق، عاشـق الرغيـف، أن يأخـذ مـا يريـد دون أي عنـف، وبذلـك اسـتطاع أن يفـدي أصحـاب الأفـران الأخـرى.

يـأتي «كـبي جـزلان» حامـلًا بـين حناياـه ذلـك الإصرار العميـق عـلى الهـدف، يقـف ممطـرًا عرقـه عـلى الأرض، ينتظـر بلهفـة تتجـاوز مونولوجـات كل العشـاق، أول طاولـة تخـرج مـن الفـرن يقتحمهـا، يكـور بيـده الضخمـة عـددًا مـن الأرغفـة، يعصرهـا بأصابعـه حـتى تصبـح كتلـة واحـدة متماسـكة، يرفـع يـده اليـسرى إلى أعـلى في أعظـم تحيـة وثنيـة، يمسـح كتلـة الرغيـف عـلى عـرق إبطيـه ويلتهـم ويلتهـم ويلتهـم.

«أحمـد حريقـة» أصبـح يحاسـب العاملـين في الفـرن عـلى التأخـير قياسًـا عـلى وقفـة «كـبي جـزلان» أمـام الفـرن في كل صبـاح مـن صباحـات خريـف الشـهور السـتة.

علـق أحـد ظرفـاء المدينـة عـلى رحـلات «كـبي جـزلان» مقترحًـا أن يكتـب عـلى جسـده العـاري هـذه العبـارة «كاتشـا كادوقـلي وبالعكـس»، مجـرد مـا انتهـى «كـبي جـزلان» مـن مهمتـه التاريخيـة ذات المغـزى الوجـودي أمـام فـرن «أحمـد حريقـة» ضـم إلى صـدره عـددًا مـن الأرغفـة واتجهـت خطواتـه إلى ذلـك الطريـق نفسـه الـذي مـر بـه ليـلًا، هـذه المـرة الرحلـة نهاريـة، نهـار خريفـي سـاخن، يرجـع «كـبي جـزلان» إلى «كاتشـا»، يعـرق وتغسـله الأمطـار في الطريـق، الشـمس تجفـف جسـده العـاري،

تهـرب مـن أمامـه الوحـوش عـلى الطريـق، يحـاول بعضهـا الاعتـداء عليـه، لكـن الرغبـة في الحيـاة، في المزيـد مـن الرغيـف تهـزم تلـك المحـاولات، عـادة مـا يصـل «كـبي جـزلان» إلى «كاتشـا» بـين العـصر والمغـرب، تواجهـه المـدارس فارغـة. مـن حيويـة التلاميـذ، ترعبـه فكـرة الأماكـن الخاليـة، يتجـول داخـل فنـاء المـدارس، يسـترخي أمـام المطبـخ، يؤرقـه ذلـك البحـث عـن المـذاق الـذي يدمنـه، يحـاور بصرخاتـه المحتجـة أمطـار الليـل إذا كانـت السـماء ممطـرة، أكـثر مـا يثـير كراهيـة الخريـف عنـده أصـوات الضفـادع، محصـورًا في فكرتـه الآسرة عـن الرغيـف أضـاع كل تفاصيـل علاقاتـه بسـكان المنطقـة، أصبـح لا يتعـدَّى حـدود المـدارس، هكـذا هـي رحـلات «كـبي جـزلان» تبـدأ في نهايـات الليـل، تنتهـي في بدايـات الصبـاح لتبـدأ رحلـة العـودة في نهـار خريفـي قائـظ ليصـل بـين العـصر والغـروب، يسـترخي في مكانـه الحميـم، تسـتفزه الفراغـات وتثـيره أصـوات الضفـادع ليبـدأ رحلـة جديـدة، هكـذا مـدة سـتة أشـهر هـي إجـازة المـدارس في الخريـف يكـون «كـبي جـزلان» قـد صـارع فيهـا كل قـوى الطبيعـة، تحـدى كل صعـاب الطريـق، تهـرب منـه الوحـوش ويهـرب منهـا، يمطـر عرقًـا كمـا تمطـر سـحابات الخريـف، الخريـف ذلـك المسـؤول المبـاشر عـن حالـة كـون الأماكـن خاليـة.

هكـذا، حـتى جـاء يـوم، تحـرك فيـه «كـبي جـزلان» في نهايـة الليـل، ارتبـك فـرن «أحمـد حريقـة» في ذلـك الصبـاح ولـم يكـن «كـبي جـزلان» موجـودًا، لـم يـأت هـذا الصبـاح إلى

«كادوقـلي»، هنـاك في «كاتشـا» كانـت الشـمس خلـف السـحب الداكنـة تمـارس غروبهـا الحزيـن وهـي تعـرف أن «كـبي جـزلان» لـم يـأتِ مـن «كادوقـلي»، الـبروق تـضيء ظلمـة الليـل دون أن يلتمـع بالأضـواء جسـد ذلـك المـارد المقاتـل، أرعـدت السـماء ولاحظـت غيـاب تلـك الصرخـة المحتجـة ولـم تجـد الضفـادع مـن تثـيره بأصواتهـا، غـاب «كـبي جـزلان» في تلـك الرحلـة الأخيرة مخلفًـا ذلـك الفـراغ في كل مـكان كان يجـب أن يكـون فيـه، هكذا، بـين «كاتشـا» و«كادوقـلي»، في رحلتـه الوجوديـة، رحلـة البحـث عـن الرغيـف، «كـبي جـزلان» تلتهمـه الوحـوش.

إبراهيم مرمطون، رمزًا ومرموزًا للفجيعة والدمار

في أبريـل ١٩٨٨ كانـت هنالـك أكـثر مـن ١٠٠حالـة اعتقـال في كادوقـلي، وكان الجنـود التابعـون لميلشـيات «الأنانيـا ٢» - القـوات الصديقـة - المساندة للحكومـة قـد تمركـزوا في كادوقـلي وقـد كانـت الاستخبارات العسـكرية تسـتخدمهم كجنـاح إضـافي لقـوات الأمـن.

في سـبتمبر ١٩٨٨ زعـم الحاكـم «عبـد الرسـول النـور» أنـه قـد كشـف عـن وجـود منظمـة سريـة تسـمى «نحـن كادوقـلي»، ضحايـا كـثر لزعـم الحاكـم هـذا، وكان مـن هـؤلاء الضحايـا الأخ الصديـق «رمضـان جكسـا»، مـدرب فريـق «الشـبيبة»، قبلهـا أُخترِعَـت منظمـة تخريبيـة لأبنـاء النوبـة تسـمى «الصخـرة السـوداء» بقيـادة يوسـف كـوه.

في يونيـو ١٩٨٩ حُرِقَـتْ ثلاثـة لـواري تابعـة لمؤسسـة جبـال النوبـة الزراعيـة، وأغلقـت جميـع المشـاريع الزراعيـة بمطلـع العـام ١٩٩٠، وهـذا مـا أدى إلى انهيـار سـوق العمالـة المحليـة.

إنهـا كادوقـلي في نهايـات الثمانينيـات مـن القـرن المنـصرم، كادوقـلي مـن مدينـة آمنـة تنـام عـلى الموسـيقى وتصحـو عـلى الضحـكات - كمـا وصفهـا أسـتاذي «الـزاكي جمعـة» أسـتاذ التاريـخ بمدرسـة كادوقـلي الثانويـة العليـا «تلـو» في السـبعينيات – كادوقـلي تتحـول إلى منطقـة عمليـات يعربـد فيهـا حـد الخراب المسـلحون مـن الجيـش السـوداني والاسـتخبارات العسـكرية، القـوات الصديقـة «الأنانيـا ٢»، المليشـيات، المراحيـل، الجيـش الشـعبي، قـوات الدفـاع الشـعبي، اعـذروني عـلى هـذا المدخـل القـاسي والمحتشـد بالمشـاهد المأسـاوية وكلهـا مشـاهد التقطتهـا قـراءاتي المتعـددة لكتـاب «نوبـة السـودان ومواجهـة الإبـادة»، الكتـاب أعدتـه منظمـة «أفريـكان واتـش» لمراقبـة حقـوق الإنسـان في إفريقيـا عـبر حـوارات وتقاريـر إخباريـة واسـتنطاق شـهود عيـان لأحـداث ومجـازر وتصفيـات وتدمـير وحـرق القـرى والمـزارع حـول كل أطـراف كادوقـلي، والكتـاب نتـاج زيـارات ميدانيـة لمعظـم جنـوب كردفـان مـدن وقـرى وأريـاف مـن المـدة ١٩٩٤-١٩٩٥.

لـم أكـن أتوقـع أن مكانـًا حميمـًا أليفـًا في ذاكـرة الطفولـة والصبا يتحـول إلى سـاحة إعـدام، «ميـدان الحريـة» بكادوقـلي حيـث كانـت تتفجـر المدينـة فرحـًا حميمـًا يأخـذ مـن ألـوان الطيـف الثقـافي بنصيـب وافـر ومتنـوع مـن رقـص وغنـاء وكرنفـالات واحتفـالات ومنافسـات الـصراع ومباريـات كـرة القـدم، «ميـدان الحريـة» بكادوقـلي المـلاذ الآمـن للعشـاق والمتأملـين والمنفلتـين والمستأنسـين في الليـالي المقمـرة يتحـول إلى سـاحة

إعـدام: «بعـد فشل عمليـة عسـكرية واحـدة في منطقـة «كرنقـو عبـد الله» عـام ١٩٩٠ اختطـف الجيـش اثنـين مـن مواطـني القرية في طريـق عودتـه إلى كادوقـلي وبأمـر المحافـظ «عبـد الوهـاب عبـد الرحمـن» دعـا إلى تجمـع شـعبي كبـير في ميـدان الحريـة بكادوقـلي حـتى يشـاهد المواطنـون الأسرى وخاطـب المحافـظ جمهـور المواطنـين قائـلًا: «إن المتمرديـن يسـتحقون العقـاب الـرادع» أُعـدِم الأسرى في تلـك اللحظـة وأمـام الجمهـور، وعُرِضَـتْ الجثـث عـلى ظهـر سـيارة مكشـوفة عـلى المواطنـين.

هـذي إحـدى المشـاهد الصادمـة الـتي ناوشـت ذاكـرتي عـن مـكان يخصـني بمقـدار ومعيـار، «ميـدان الحريـة» بكادوقـلي وكثـيرة هـي المشـاهد الصادمـة في كتـاب «نوبـة السـودان ومواجهـة الإبـادة» ومـا زلـت أذكـر الصدمـة الـتي جعلتـني أتـرك الكتـاب منكفئًـا عـلى المكتبـة ولا أعـود إليـه إلا بعـد أكـثر مـن شـهر، كنـت أتجنـب هـذا الكتـاب المنكفـئ وكأنـني أهـرب مـن تورطـي بحقيقـة باهظـة التكاليـف وصعبـة الامتصـاص، وقـد كان الكتـاب المنكفـئ منكفئًـا عـلى الآتي: «لقـد بـدأت منـذ العـام ١٩٩٠ حملـة شرسـة ضـد أبنـاء النوبـة المثقفـين، وهـذا مـا أدى إلى اختفـاء العديـد منهـم ، ومـن ضمـن الذيـن اختفـوا في العـام ١٩٩٠ – ١٩٩١ المذكوريـن أدنـاه

«محمـد سـوار أسـو»، وهـو مسـاعد طـب أسـنان وعضـو نقابـة المهـن الصحيـة.

«عصمـت حسـن خـير السـيد»، مـن أبنـاء «مـيري» معلـم

بمدرسة كادوقلي الثانوية العليا.

«يوسف جلدقون»، من أبناء الدلنج، معلم بمدرسة كادوقلي الثانوية العليا.

«السر عبد النبي مالك»، موظف بمصلحة فحص التربة.

«كمال كنو كافي»، فني راديوهات.

«إبراهيم مرمطون»، موظف بهيئة توفير المياه.

«أبو زيد شلال»، معلم بالمرحلة الابتدائية».

ثلاثة من هؤلاء المختفين أعرفهم؛ «عصمت حسن خير السيد»، «السر عبد النبي مالك» و«إبراهيم مرمطون»، نعم، أعرفهم ولي بهم علائق من صداقة وود ومحبة، فما كان عليَّ إلا أن أرمز كل هؤلاء المختفين والذين أصبحوا في مقام «موتى بلا قبور»، كان عليَّ أن أرمزهم بالكابتن ونجم هلال كادوقلي «إبراهيم مرمطون».

ولأن هذا الاختفاء كان في هذا الزمن المشؤوم ١٩٩٠ - ١٩٩١ سأنثر أحوال المنطقة - جنوب كردفان - بين ثنيات الحديث عن الكابتن ونجم كادوقلي المحبوب «إبراهيم مرمطون».

ويرن في ذاكرتي اسم «إبراهيم مرمطون» وتتداعى الصور والحكايات ويطل من الذاكرة هلال كادوقلي في منتصف السبعينيات، «محمد علي حمامة» في حراسة المرمى،

«حمامـة» أيضًـا أحـد هـؤلاء الـ«مـوتى دون قبـور»، في الدفـاع «آدم عـلي أنقاطـو»، «محمـد الرشـيد، أب شـملة»، «فـاروق رحمـة» «ميرغـني جمعـة» أو «فيصـل الزاكي»، في الوسـط «حسـن طـيران» و«حسـين كنـدة، كاو» وفي الهجـوم «مزمـل الرشـيد»، «عجبنـا»، «محمـد سـعد» و«إبراهيـم مرمطـون» وكلمـا كانـت هنالـك مبـاراة بـين فريقـي الهـلال والمريـخ في كادوقـلي كنـت أبحـث عـن أيـن يجلس العـم «مرمطـون» لأكـون قريبًـا منـه، حـتى لا تفوتـني أو تضيـع مـني تلـك الانفعـالات الـتي تحـرك كل جسـده، وتقـذف بـه أحيانًـا كثـيرة إلى تلـك الحـيرة، حـيرة الانتمـاء، عمنـا «مرمطـون»، يشـجع فريـق المريـخ وذلـك لأن فريـق المريـخ هـو فريـق أهلـه - الفـرق الرياضيـة في كادوقـلي تقاسـمت الأحيـاء السـكنية، الهـلال في حـي «كليمـو» المريـخ في «حجـر المـك» وحـي» الفقـراء»، الأهـلي في حـي «السـوق» والمـوردة في حـي «الرديـف» وحـي «قعـر الحجـر» وحـي «الملكيـة»، التـلال في «السـمة» وهكـذا، إلا مـا شـذَّ مـن البـشر وتعصـب للمريـخ وهـو يسـكن «كليمـو» أو تعصـب للمـوردة وهـو يسـكن حـي «السـوق» – لذلـك كان العـم «مرمطـون» في كل مبـاراة بـين الهـلال والمريـخ يهـتز انتمـاؤه ويتأرجـح، ففريـق المريـخ هـو فريقـه بحكـم أنـه فريـق عشـيرته الـتي هـي في حـي «حجـر المـك»، وفريـق الهـلال هـو الفريـق الـذي يلعـب لـه ابنـه «إبراهيـم مرمطـون»، وهـو فريـق حـي «كليمـو» الـذي يسـكن فيـه مـع أسرتـه، كان حـرصي عـلى الجلـوس بالقـرب مـن العـم «مرمطـون» كي أراقـب انفعالاتـه النقيـة متأرجحـة الانتمـاء،

فكان يركل الكرة في خياله كلما ركلها ابنه «إبراهيم مرمطون» وتارة يتحرك بانفعال حين تكون لفريق المريخ سيطرة على الكرة، ما زلت أذكر تلك السعادة التي احتلت وجه العم «مرمطون» في إحدى تلك المباريات، إذ إن فريق المريخ كان منتصرًا على الهلال بهدف، ولكن ابنه «إبراهيم مرمطون» استطاع أن يحرز هدف التعادل، فتعادلت انفعالات العم «مرمطون» وخرج من دار الرياضة منتشيًا، كان العم «مرمطون» لا يحتمل أن يخسر فريق عشيرته أو الفريق الذي يلعب له ابنه، وطبعًا هو ينحاز إلى كلا الفريقين في حالة أن تكون المباراة مع الفرق الأخرى، مثلًا يكون مع الهلال حين يلعب ضد الموردة، وهو مع المريخ حين يلعب ضد الأهلي، وهكذا يكون العم «مرمطون» خارج ذلك الانتماء المتعصب للهلال أو المريخ، فهو مريخابي وأحيانًا هلالابي، وهلالابي وأحيانا مريخابي، منحاز إلى شعور الأبوة تارة وشعور الانتماء إلى العشيرة تارة أخرى، وتلك معادلة تستعصي وتصعب على غالب جمهور كرة القدم في السودان، ولكن العم «مرمطون» يحقق تلك المعادلة بتلقائية، وهو وحده الذي يستطيع أن يبعثر انفعالاته بين المريخ والهلال في المباراة نفسها بين الفريقين، لكن إذا حدث وغاب ابنه «إبراهيم مرمطون» عن تشكيلة لاعبي الهلال ضد فريق المريخ، فحتمًا سيشهر العم «مرمطون» انفعالاته المتشنجة منحازًا إلى العشيرة المريخية.

في العام ١٩٩٠-١٩٩١، عام اختفاء الكابتن «إبراهيم مرمطون»،

قـوات عسـكرية مـن كادوقـلي هاجمـت قـرى «طابـولي»، «بلنجـة»، «دلوكـة» وأحرقـت كل المنـازل ودُمِّـرَتْ قـرى «مـيري» الاثنـتي عـشرة، حرائـق وإطـلاق النـار عـلى المواطنـين، حُـرِقَ العديـد مـن المواطنـين داخـل بيوتهـم، ١٨ شـخصًا قُتِلُـوا، نُهِـبَ كل البقـر وحُرِقَـتْ قـرى «ليمـا»، «كانقـا»، «أبـو سـنون»، «كوفـا»، «المشيشـة» و«لوبـا»، قامـت بهـذه العمليـات قـوات مشتركة مـن الجيـش والمراحيـل، طُـرِدَ المواطنـون إلى كادوقـلي، النسـاء الحوامـل أُجهِضـن في الطريـق، تركـت المحاصيـل في الحقـول، هجـرت المتاجـر في السـوق، لـم ينـجُ أحـد مـن ذلـك التدمـير سـوى قريتـين كبيرتـين همـا «مـيري بـره» و«كحليـات» لأن المواطنـين كانـوا قـد نزحـوا إلى كادوقـلي قبـل الهجـوم، وفي مـارس ١٩٩٠ هاجـم الجيـش وأُحرِقـتْ قـرى «كيقـا» و«كوفـا»، قُتِـلَ شـخصان في «كوفـا» وأربعـة أشـخاص في «كيقـا» واُختطِـف سـبع نسـاء، وقـد سـبَّبتْ هـذه الحرائـق ضررًا حـادًّا لـدى المواطنـين، ففـي «كوفـا» وحدهـا مـات ٣٠ شـخصًا بسـبب المجاعـة، وفي سـبتمبر ١٩٩٠ أحرقـت قريـة «كلكـده» وأطلـق الجنـود النـار عـلى طفلـة وأردوهـا قتيلـة، وأطلقـوا النـار عـلى «تيـتي مرجـان» وقـد بـتر الرصـاص يدهـا، وقُتِـلَ «إدريـس كومـان»، «محمـد أبـو النـور»، «تولـو ليشـو» وإخـوة «بـرور» و«حسـين عبـاس» وفي يوليـو مـن ذلـك العـام الـذي اختفـى فيـه «إبراهيـم مرمطـون» اُعتقِـل «حمـدان حسـن كـوري» وهـو قانـوني مـن أبنـاء «لقـوري» ويقيـم في كادوقـلي وأُفـرِج عنـه ثـم أُعيـد اعتقالـه مـرة أخـرى ومعـه والـده الـذي يعمـل في قـوات

السـجون، وأُعدِمـا.

«إبراهيـم مرمطـون»، لا يملـك إلا ذلـك التميـز كلاعـب كـرة قـدم، لاعـب وسـط حريـف، مهاجـم مباغـت بقدمـه اليسـرى المميـزة وواحـد مـن أهـم مـن لبـس شـارة الكابـتن في فريـق هـلال كادوقـلي، لذلـك يمتلـك ويمتلكـه حـب كل النـاس في كادوقـلي.

كانـت دراجتـه الـرالي المزينـة بالأشرطـة اللاصقـة والملونـة تجـوب شـوارع كادوقـلي، وعـادة مـا تسـتقبله تلـك الشـوارع مهللـة باسـمه، ذلـك الاسـم المحبـوب الـذي صنعـه تمـيزه في كـرة القـدم، أبـواب المنـازل كانـت تسـتقبل طرقاتـه المهذبـة حـين يكـون في جولتـه الشـهرية لقـراءة عـداد الميـاه، إذ إنـه كان يعمـل في هـذه الوظيفـة الـتي انسـجمت مـع نجوميتـه، فـكان يدخـل تلـك البيـوت وبـدلًا مـن قـراءة العـداد فقـط كان الترحاب يتباهـى بقدومـه وأهـل البيـت يحاولـون وبقـدر الإمـكان إطالـة مـدة مكوثـه معهـم، كان «إبراهيـم مرمطـون» يمتلـك ذلـك القبـول الـذي يحـرض عـلى الحـب والتفـاف النـاس حولـه.

في العــام ١٩٩٠، العـام الـذي اختفـى فيـه الكابـتن «إبراهيـم مرمطـون»، قـوة كبـيرة مكونـة مـن الجيـش والدفـاع الشـعبي جـاءت مـن «هبيـلا»، وهاجمـت «قـردود البشـام» وقتلـت اثـنين مـن المدنيـين همـا «عبـد الله سـومي» و«لاسـارا كـودي» وحرقـت كل القريـة وأخـذت كل البقـر والغنـم في القريـة، وحرقـت الحكومـة والمليشـيات كثـيرًا مـن القـرى وقـد دمـروا

«موحيـلا» و«تميـدا» و«كرنـدل» و«لـوبي» «الباتـا» و«الفـارس» و«تـاج» و«أمر دردر»، وقـد نـزح المواطنـون إلى الجبـال، وقـد حـرق الجيـش كل محصـول العـام مـن الـذرة، ومُنِـعَ المواطنون مـن الزراعـة بإحـكام المراقبـة وحـرق المـزارع.

«إبراهيـم مرمطـون» كان ميـالًا إلى القـراءة والاطـلاع وكان مـن المدمنـين الـتردد عـلى مكتبـة العـم «عابديـن»، والـتي هـي كشـك في الزاويـة الشـمالية للجامـع الكبـير، أذكـر أنـه جـاءني مـرة والفرحـة في عينيـه تتألـف مـع ابتسـامة ضجـت بهـا أسـنانه البيضـاء كالحليـب، كان يحمـل معـه مسرحيـة «خطوبـة سـهير» للكاتـب المسرحـي والدرامـي «حمدنـا الله عبـد القـادر»، كانـت المسرحيـة قـد طُبِعَـتْ في كتـاب مـن منشـورات مصلحـة الثقافـة عـام ١٩٧٦، قلـب الصفحـات وأشـار بإصبعـه إلى موضـع يعرفـه، وحـين قـرأت مـا أشـار إليـه وجـدت هـذه الأغنيـة الـتي كان يتغـنى بهـا «خليـل» والـد «سـهير» وهـو قـادم إلى خطوبـة ابنتـه وهـو يترنـح سـكرانَ عـلى شـارع البيـت.

«جمال زي دا

أصلو ما شفنا

أنت من كليمو

ولا من مرتا؟»

«كليمـو» هـو الحـي الـذي يسـكن فيـه «إبراهيـم مرمطـون»،

«مرتـا» بضـم الميـم مـن أحيـاء الجانـب الشـمالي مـن كادوقـلي وكأن الأسـتاذ «حمدنـا الله عبـد القـادر» قـد انحـاز إلى أصـداء ذاكرتـه حـين كان يعمـل بمجلـس كادوقـلي فـكان بهـذا الانحيـاز قـد داعـب أوتـار تلـك الفرحـة داخـل وجـدان «إبراهيـم مرمطـون».

في العـام ١٩٩٠، العـام الـذي اختفـى فيـه «إبراهيـم مرمطـون» مـن الوجـود كان عـام المجاعـة وتعطيـل المشـاريع الزراعيـة والحرائـق والـنزوح، النهـب المسـلح، القتـل والمـوت المجـاني وخطـف الأطفـال وخطـف واغتصـاب النسـاء، يحـكي «حسـن رمضـان زكريـا»، رئيـس قـرى «كلكـده»: « في الصبـاح، كان مـن المفـترض أن ندفـن طفـلًا يدعـى «أزهـري» كان قـد تُـوفِّيَ، وعندمـا سـمعنا صـوت الرصـاص غطينـا الجثـة بمـلاءة وهربنـا، وأتى الجنـود وسرقـوا حـتى المـلاءة تاركـين الجثـة بـلا غطـاء، وقُتِـلَ سـبعة مواطنـين آخريـن، ومـا زلنـا نحتفـظ بأسـمائهم، وبعـد ذلـك اختطفـوا النسـاء، وكانـت زوجـتي أول مـن أخـذت عنـوة، وأخـذوا أيضًـا «حـواء النـور» وطفلهـا البالـغ مـن العمـر سـتة أيـام، وكذلـك والدتهـا «حاميـة» الـتي كانـت تسـاعدها بعـد الوضـع، وأخـذوا كذلـك «ناشـا شـمو» وابنتهـا «أم جريـدة يوسـف» البالغـة مـن العمـر ١٤ عامًـا، وكذلـك بنـت صغـيرة تبلغ مـن العمـر سـنتين واسـمها «كاكا كوميـلي» وقـد بلـغ مجمـوع المختطفـين ٢٠ امـرأة وطفـلًا ولا نـدري مكانهـم الآن».

هـا هـو فريـق الهـلال يدخـل إلى الميـدان بحمـاس فاتـر وأقدام

لاعبيه لا تعرف غير الارتجاف، وذلك لأن «إبراهيم مرمطون» لم يستطع أن يسهم في تشكيل المنتخب ومقعده شاغر بين لاعبي الاحتياطي بالفريق، حيث كان يجلس على مقعد «المدرب» بعد أن ترك كل الخانات التي تجول فيها منحازًا إلى خبرته الطويلة في الملاعب.

ها هو جمهور دار الرياضة بكادوقلي يتحسس وبذاكرة قوية خطوات «إبراهيم مرمطون» على الملعب، وتلك الأهداف التي سجلها بضرباته القوية بقدمه اليسرى وصناعته الأهداف بتمريراته التي يصرخ الجمهور مبتهجًا بها.

ها هي شوارع كادوقلي لا تملك إلا أن تبحث عن خطواته التي لا تهمل حتى تلك الدروب الصغيرة والأزقة الشاحبة.

ها هي صيحات معجبيه ترتد إلى دواخلهم رافضة القبول بغيابه ذلك القاسي قسوة أيام الظلام والانتهاكات التي حولت كادوقلي إلى منطقة عمليات بدلًا من حالة كونها مدينة آمنة.

في العام ١٩٩٠ عام اختفى فيه «إبراهيم مرمطون» وتحول إلى مجرد جثة مفقودة وتتمانع عليها الحياة بمجرد قبر، أنه عام الكوارث حقًّا، ها هو مزارع من منطقة ميري، «موسى كوه جابر تية» يقول: «إن أسوأ شيء في تلك الحقبة كان تصفية المتعلمين، حيث اعتُقِل العديدون منهم وقُتِلُوا وكان «النور كوه» من المزارعين المتعلمين قد اعتُقِل وقُتِلَ

وكذلـك «خالـد مـوسى» وهـو موظـف بريـد اعتقـل وقتـل وكذلـك «بريـر الخليفـة»، معلـم بالمرحلـة الابتدائيـة وهنـاك العديـد منهـم في كادوقـلي لا أعـرف أسـماءهم».

هـا هـو «إبراهيـم مرمطـون» يذهـب بعيـدًا إلى حيـث لا يـدري أحـد، وتمـارس كادوقـلي هذيانهـا تجـاه غيـاب «إبراهيـم مرمطـون»، ذلـك الهذيـان الـسري للغايـة خوفـًا مـن ذلـك الغـول الـذي يُسـمَّى بالاسـتخبارات العسـكرية الـتي قبضـت عـلى «إبراهيـم مرمطـون» كتجـلي حقيقـي لوسـواس الحـرب.

اُعتقِـل «إبراهيـم مرمطـون» تحـت اسـم غريـب اجتـاح المدينـة مـن قبـل الاسـتخبارات العسـكرية كتهمـة، اعتقـل «إبراهيـم مرمطـون» بتهمـة أنـه مـن «الطابـور الخامـس» مـع أنـه لا يعـرف مـن الطوابـير إلا الطابـور أمـام صراف خزانـة مصلحـة الأشـغال أو هيئـة توفـير الميـاه أيـام صرف المرتبـات.

وهكـذا ذهبـت الاسـتخبارات العسـكرية بـ»إبراهيـم مرمطـون» إلى حيـث لا يـدري أحـد، وإلى ذلـك الغيـاب الأبـدي الـذي منعـه عمَّـن يحـب وعمَّـا يحـب وعمَّـن يحبونـه باغتيالـه وتصفيتـه.

مـن كان يصـدق أن الوسـواس القهـري الـذي تصنعـه الحـرب يـؤدي إلى قتـل الكابـتن المحبـوب ونجـم كادوقـلي «إبراهيـم مرمطـون»؟

بعـد إعـلان الجهـاد في جبـال النوبـة في العـام ١٩٩٢، كان يمكـن للنازحـين الذيـن يقيمـون في معسـكرات حـول كادوقـلي رؤيـة

عبارة مكتوبة على جبل يقع على الطريق بين كادوقلي والدلنج ويبعد نحو ٨ كيلومترات عن كادوقلي، العبارة هي «كادوقلي الجهاد» وحتمًا، يمكن أن نحصي الخسارات الباهظة من الأرواح والدماء كي تكتب هذه الجملة على جبل في كادوقلي.

علاقات وعلائق السينما

علي دفع الله العوض، رحمه الله، ابن عمي، مستغلًّا خصوماته العدَّة مع والدي، أبو التايه، قذف ابن عمي بالحقيقة أمام الممرض الذي كان يحاول إزالة الشعر، شعري عن موضع الجرح كي يبدأ في عملية الخياطة، وقفت يد الممرض عن العمل وقال الممرض:

«لازم أورنيك تمانية»

لأن ما قاله علي دفع الله يستدعي وجود هذا الأورنيك الذي سيدين أبي، فهو الذي تسبب في هذا الجرح الذي ما زلت أحمل آثاره على رأسي ويمنعه شعري من الظهور، حدث ما حدث في إجازة المدارس في العام ١٩٦٧ من القرن المنصرم، كنت وقتها تلميذًا مشاغبًا في الصف الثالث في مدرسة كادوقلي الشرقية الأولية ذات الرأسين وكان وقتها أبي، أبو التايه يدير لحسابه مطعمًا ومقهى وحلواني سينما كادوقلي لصاحبها عمر الخليفة التي تأسست في العام ١٩٥٦، وكالعادة كان يتم اعتقالي للعمل في الإجازة لأنشغل بشؤون المطعم والمقهى والحلواني، في حين يتفرغ أبو التايه لجولاته المتنوعة بعجلته

الـرالي، كانــت مهمــتي في غيــاب أبي هــي أن أجلـس مكانــه عــلى المكتـب وأشرف عـلى النقـود الداخلـة والخارجـة والحـرص عـلى المحاسـبة الدقيقـة بـين عـدد المـوارك وتحولهـا إلى نقـود بعـد تسـلم وتجديـد المـوارك الملونـة للجرسـون الداخـلي والخارجـي الـذي دائمًـا مـا يكـون نشـاطه بـين رواكيب السـوق الـبرة وموقف اللـواري والشـاحنات في الميـدان الكبـير أمـام حـي العصاصـير، وكنــت أحتمــل كل ذلــك، كل هــذه المشــاغل والمشــغوليات مــن أجـل السـينما، كنـت شـغوفًا بالسـينما إلى درجـة الإدمـان الشـديد، ومـن حظوظـي في الدنيـا أنـي كنـت أملـك حريـة أن أتخلـص مـن ثمـن تذكـرة الدخـول، وذلـك بولوجـي المعلـن إلى صالـة العـرض عـبر بـاب داخـلي يربـط بـين صالـة السـينما والمطعـم والمقهـى، ويدخـل ويخـرج بـه الجرسـونات لتلبيـة طلبـات الجمهـور المختلفـة فيمـا قبـل الفيلـم، وفي الاسـتراحة الـتي عـادة مـا تكـون محتشـدة في ذاك الزمـان بغنـاء صـلاح بـن الباديـة

«المريود شوية

نار الشوق كتيرة عليَّ»

وهــذه اللحظــة، لحظــة دخــولي إلى الصالــة المدرجــة مــن اللوجـات الثلاثـة وحـتى درجـة الشـعب، لحظـة هـي الأجمـل في وجـودي المتعـب داخـل مؤسسـة أبـو التايـه التجاريـة الـتي كنــت أحــس بهــا كســجن حتمــي.

أصبحت لي مع مشاهدة الأفلام عادات وطقوس، كنت دائمًا ما أجلس في مكان محدد إذا كنت أشاهد الفيلم أول مرة، كنت أصعد سلالم كي أصل إلى حجرة تشغيل السينما في الطابق الثاني، عادة ما أجد «عمي الطيب» يتأكد من دوران الشريط على الأجهزة ولا ينسى عم الطيب أن يقول:

«في الاستراحة، ما تنسى جيب لي معاك باسطة وحلبة بالحليب».

وأتناول كرسي خيزران قديم من ركن في حجرة التشغيل، وأضع الكرسي على سقف صالة الاستقبال المقابل لحجرة التشغيل، وأنا أجلس أكون لاحظت الشعاع الضوئي يلون الغبار العالق ويسقط على حائط الشاشة ويتفجر صور وأصوات، في هذه الزاوية من الصالة كنت أشاهد الأفلام الجديدة، ولما كنت «متجدع» مع حظوظي مع السينما، الأمر الذي أتاح لي مشاهدة الفيلم أكثر من مرة، لذلك كنت أنوع أمكنة مشاهداتي المتكررة بين صالة اللوج والشعب، اللوج كراسي والشعب مصاطب وهو الأقرب إلى الشاشة، لكني كنت أفضل بعد مشاهدتي الأولى للفيلم أن أشاهده مرات ومرات في صالة الشعب، لأنها مشاهدات تخص مراقبتي لرد فعل الجمهور ولصالة الشعب شخوصها الدرامية المتنوعة، كنت عادة ما أجافي اللوج، وذلك بعد الذي حدث مع أحد الجيران، جار ثقيل الطباع، كنت وقتها أنوي أن أشاهد فيلم «شنبو في المصيدة» للفنان الممثل

المصري فؤاد المهندس من اللوج وكنت قد هيأت مجلسي وزاوية الشوف، داهمني الجار ثقيل الطباع ومعه أسرته ، الزوجة والبنات والأولاد، مع أنني كنت بعيدًا عنهم ، لكنه ما إن لمحني حتى تصايح صوته الأجش الجهور:

«يا ود فضل الله، قُم جيب لينا حاجة باردة، يا أولاد عايزين حاجه تانية».

وحين كانت أسرة الجار ثقيل الطباع تثرثر حول الطلبات الأخرى، خرجت أنا من المشهد إلى الهواء الطلق، وقررت بعدها أن أجافي اللوج، خاصة أيام الجمعة.

إدماني مشاهدة ومتابعة الأفلام جعلني مرجعًا فيها، تلك التي تعرض أول مرة أو التي عرضت من قبل، كان يكفيني أن أرى البوسترات والصور لأعرف ذلك، وكنت دائمًا أحب أن أساعد عم الطيب في تعليق الصور والبوسترات التي تأتي مع الطارات الكبيرة التي تحتوي على أشرطة الأفلام ، أصبحت تلك المهمة تخصني وحدي، كنت أستمتع بذلك وأنا أعلق وأدبس الصور على البوردات المعلقة في شكل مستطيل على الجهات الثلاث من حائط صالة الإعلانات وشباكي التذاكر، كان عمي الطيب دائمًا في أفروله الأزرق، وهو يشرف بالمتابعة على الوضع الصحيح للصور داخل مستطيلات البورد ، نادرًا ما كنت أراه في غير هذا الزي حتى خُيِّلَ إليَّ أن من يعرف أن يشغل السينما لا بدَّ أن يكون دائمًا مرتديًا الأفرول الأزرق، واكتشفت مؤخرًا أن هذا الزي له علاقة بنشاط نهاري لعم

الطيب يتعلق ببعض فنون الميكانيكا، كنت أستمتع بذلك وتكون فرصتي النادرة حين أتعرف فيلمًا سبق أن عُرِضَ من قبل، فرصتي النادرة أن أحكي للمتفرجين تلك الصور أحداث الفيلم تجدني أحاول تمثيل موقف البطل والخائن، أضرب بمسدسات وهمية، أبارز خصمًا وهميًّا بالسيف وأمسك بلجام حصان وهمي إذا كان الفيلم من أفلام الكاوبوي، كنت أجد متعتي حد الإفراط في فعل وتفعيل الحكي، وكان أبو التايه يعرف ذلك جيدًا، لذلك في ذلك الصباح الذي تناول فيه عم الطيب إفطاره كعادته كل صباح، وقال لي وهو يحمل معه قهوته معه إلى غرفة التشغيل:

«يحيى، في أفلام جديدة جات، لمن تفضى تعالَ نعلق الصور»

وبعد انتصاف النهار، الزمن الميت في المطعم، زمن ما بين وجبتي الفطور والغداء، زمن جولات أبو التايه المعتادة، سلمني المكتب والأدراج وطلب مني مراجعة وتحديد حساب موظفي محلج كادوقلي الذين يتناولون الفطور هنا ويحاسبون أبو التايه كل آخر شهر، ولأن أبو التايه كان قد سمع ما قاله عم الطيب لي في شأن الأفلام الجديدة والصور، فقال لي وفي عيونه تهديد واضح، إضافة إلى لهجته الحاسمة:

«أنت عارف طبعًا، في أفلام جديدة، بس اوعك من تمشي تشوفا وتعلق الصور قبل ما آجي راجع، اوعك، مفهوم؟».

وركب أبو التايه دراجته وذهب، أما أنا، فسرعان ما انتهيت من مراجعة حسابات موظفي محلج كادوقلي حتى تركت المكتب والأدراج بما فيها من نقود ولم أنتظر عودة والدي، وتركت مهمتي الأساسية وصعدت السلالم إلى عم الطيب في حجرة التشغيل فوجدته قد جهز كرتونة الصور والبوسترات مرتبة، وحملها ونزل معي إلى صالة الإعلانات وعاد إلى حجرة التشغيل بعد أن اطمأن إليَّ في تنفيذ مهمتي التي أحب، و تجمع حولي بعض المتفرجين على صور الأفلام، وتعرَّفت فيلمًا سبق أن عُرِضَ، فيلم هندي، أتاح لي حيوية في الحكي ووجدت نفسي أصول وأجول أمام أولئك المتفرجين داخل الصالة، أقفز وأتفادى ضربة سيف، أصرخ صرخات - دارسنج – وهو يصارع نمرًا وغرقت تمامًا في محاولاتي لتمثيل لقطات من الفيلم ما أمكن ذلك، ونسيت مهمتي الدقيقة والحساسة في المطعم والمقهى ولم أنتبه إلا وأبو التايه يقف خلفي صامتًا ومصدومًا من الغضب، وحين رأيته هربت منه جاريًا إلى داخل السينما، وركض والدي ورائي مدفوعًا بغضبه ذلك الذي يدمر كل شيء، أنا أجري في صالة السينما وأبو التايه يركض خلفي تسبقه صيحاته وشتائمه الغاضبة، واستمرت هذه المطاردة مدة، وحين قررت أن أصعد السلالم لأحتمي بعم الطيب في حجرة التشغيل، وقبل أن أضع رجلي على عتبة السلالم الأولى، كان أبو التايه قد قذفني بربع بلاطة ذات حواف حادة استقرت في رأسي، وصعدت إلى عم الطيب والدم يسيل من رأسي على ملابسي، ومنع

عـم الطيـب والـدي مـن رغبتـه الهائجـة في مزيـد مـن الـضرب، وهكـذا بسـبب السـينما حملـت ذلـك الجـرح الغائـر عـلى رأسي، وبينمـا وقتهـا كان والـدي يواجـه تهمـة أورنيـك ثمانيـة، ولـولا تدخـل علاقـات ومعـارف أبـو التايـه، وخاصـة الحكيـم باشـا بالمستشـفى، لعوقـب أبي عـلى ذلـك.

والـدي فضـل الله العـوض الملقـب مـن قبـل أصحابـه ومعارفـه بـ«أبـو التايـه» هو الذي قـادني إلى ذلك السـحر، إلى تلك العوالم الـتي سـيطرت عـلى وجـداني وخيـالاتي، نعـم، أبـو التايـه نفسـه كان يحـب السـينما، يحبهـا جـدًّا إلى درجـة أنهـا كانـت لـه برنامجًا يوميًـا، ولأني أعـرف ذلـك دائمًـا أكـون مـصرًّا إلى درجـة البـكاء عـلى مرافقتـه، كان يقبـل أحيانًـا، وأحيانًـا يرفـض، ولكـن كانـت محـاولاتي المتشـبثة دائمـة الحـدوث، وحـين كـبرت وتحـررت منه ومـن مرافقتـه وأصبحـت أذهـب إلى السـينما وحـدي، وكان ذلـك حـين تـرك مطعـم ومقهـى السـينما ليسـتقر في مطعـم ومقهـى في السـوق الكبـير مجـاورًا لمخـبز العـم إدريـس الفـران، ومقابـلًا لـدكان العـم الطيـب الـوادي، أصبحـت أذهـب إلى السـينما وحـدي، ولكـن هـذه المرة أحتـاج إلى ثمـن التذكـرة، كانـت تذكرة الدخـول إلى السـينما وقتهـا تسـاوي شـلنًا، أي خمسـة قـروش، ذهـابي إلى السـينما وحـدي أزعـج أبـو التايـه جـدًّا، وحـاول أن يضـع أمامـي الكثـير مـن القيـود والعراقيـل؛ أهمهـا أن أسـتأذن منـه حـين أريـد أن أذهـب إلى السـينما، وقـد كنـت أفعـل ذلـك، ولأنـني لا أسـتطيع الابتعـاد عـن تلـك العوالـم؛ كنـت أسـتأذنه يوميًّـا للذهـاب للسـينما، إلى أن جـاء يـوم

«أنا ماشي السينما يابا».

«يومي الموضوع دا؟ الليلة ما في سينما».

«الفيلم دا جديد».

«جديد ولا قديم، ما تمشي».

وقذفت بأوامر أبو التايه عرض الطريق الذي يقودني إلى السينما، وحين عدت إلى البيت بعد انتهاء الفيلم، فتحت الباب بحذر لأجد أبو التايه ينتظرني متحفزًا:

«كنت وين؟».

«في السينما»

«ما قلت ليك ما تمشي». «...».

فأخرج سوط العنج من تحت المرتبة ليمارس نشاطه على جسدي، وهكذا أذهب إلى السينما وأعود إلى البيت لأواجه سؤال أبو التايه، ويواجه هو ردي الثابت

«كنت وين؟».

«في السينما».

وتنهال عليَّ السياط، وأبكي من الألم ما شاء لي البكاء وأنام، وحين تكرر هذا الوضع أكثر من أسبوع، حدث

تطـور آخـر، إذ عـدت كعـادتي في تلـك الليلـة، فتحـت البـاب بطريقـة مؤكـدة، ولكـن عـلى غـير العـادة لـم أجـد أبـو التايـه في جلسـته المتحفـزة واضحـة الغضـب حـد الحماقـة، بـل وجدتـه يرقـد مسـترخيًا عـلى سريـره الموضـوع بحيـث يكـون مواجهًـا للبـاب بتعمـد واضـح، غريبـة، كنـت قـد لاحظـت عـدم اهتمامـه بدخـولي المؤكـد كالمعتـاد، وبصـوت لا مبـالٍ يسـألني ذلـك السـؤال:

«كنت وين؟».

«في السينما».

«امشي، غور، بقيت زي الحمار، الضرب ما بنفع فيك».

وبـدلًا مـن أن افـرح بهـذا الخـلاص وجدتـني مذهـولًا بعـض الـشيء، حـتى إني سـألته: «بـس، لكـين يـا أبـوي، الليلـة أنـا أنـوم كيـف؟».

هنـا فقـد أبـو التايـه اسـترخاءه وقذفـني ببطاريتـه الـتي بـدلًا عـن إصابـتي تهشـمت عـلى جـذع شجرة التمـر هنـدي وهربـت مـن أمامـه وهـو يـصرخ: «غـور يـا ود مـن وشي، غـور، إن شـا الله السـينما دي تسـكن فيهـا، غـور».

وهكـذا، انتزعـت حريـة مشـاهدتي السـينما عـبر هـذه المعـارك الصغـيرة.

أيـام الأعيـاد، أكـون مزهـوًّا جـدًّا بوضعـي الاعتبـاري، إذ إنـي

وحـدي مـن بـين أولئـك الأطفـال أسـتطيع أن أجلـس بالقـرب مـن عـازف الكيتـا المنتفـخ الأوداج عـلى ظهـر العربـة الميركـري الحمـراء الـتي تتجـول في أحيـاء كادوقـلي، معلنـة أفـلام العيـد بموسـيقى عذبـة، وكانـت توضـع بوسـترات الأفـلام عـلى بـوردات تعلـق عـلى جانـبي العربـة، وبينمـا العـم يعقـوب بشـلوخه المميـزة وصوتـه الرنـان يخـرج مـن الميكرفـون في يـده معلنًـا فيلـم اليـوم وأفـلام الأيـام التاليـة، كان عـم يعقـوب يسـتمتع بذلـك والأطفـال يركضـون خلـف العربـة، وأنـا وحـدي أسـتمتع بوضعـي ذلـك الاعتبـاري جـدًّا ولا أنـسى تلـك الحـسرة عـلى عيـون صديقـي الحـاج عبـد الحفيـظ الـذي يشـاركني هـذا الإدمـان الممتـع وهـو يركـض خلـف العربـة، محـاولًا أن يصعـد إليَّ حيـث أجلـس لكـن دون جـدوي، كل مـا اسـتطعت أن أفعلـه لـذاك الصديـق هـو مسـاعدته في الحصـول عـلى ثمـن تذكـرة الفيلـم، وذلـك حـين تآمرنـا عـلى جامـع كادوقـلي ولـم نسـلم جلـود الأضاحـي في ذلـك العيـد للعـم صابـون مـؤذن الجامـع، وبـدلًا مـن ذلـك ذهبنـا بهـا إلى العـم خـضر في السـوق الـبره، وقـد تنازلـت عـن نصيـبي في جلـد خروفنـا لصديقـي، لأنـني أملـك حريـة أن أدخـل السـينما دون تذكـرة.

عـلى شـجرة التبلـدي الكبـيرة والقريبـة جـدًّا كانـت مـن الجانـب الـشرقي لبيـت عمنـا الحـاج عـوض أحمـد في حـي السـوق الجـوة، تعلمـت أن أقـذف بالخنجـر عـلى جـذع هـذه التبلديـة الضخـم عـلى طريقـة الكاوبويـات، إنهـا مهـارات اكتسـبتها مـن السـينما، عـادة كنـت أمـشي في الشـارع وأنـا أبـارز بسـيفي الوهمـي عـدوًّا

وهميًّا، أضحك على طريقة الخائن الهندي الذي كنا نسميه «شاباش» وكانت هي كلمة يكررها كثيرًا وتعني بالهندي معنى عظيم، على أشجار الجوافة في جنينة المدرسة الشرقية الأولية ذات الرأسين، كنا نقفز من فرع إلى فرع آخر مقلدين طرزان وصرخاته، معارك صغيرة بمسدسات وهمية، وأحيانًا مسدسات اللعب، معارك كانت تتمايز بها العصريات، تلك التي كانت نمطية بالدافوري بكرة الشراب، عوالم وعوالم، ترى مدنًا وسهولًا وجبالًا وأنهارًا وفيافي حيوانات موجودة، وأخرى خرافية وشخصيات نحبها وشخصيات نكرهها، نميل إليها وننفر منها، كل ذلك واسم «هارون» الذي كان يشغل أو يدير ماكينة السينما يتحمل شتائم كل جمهور السينما حين يحصل قطع للشريط السينمائي، و«هارون» هذا الذي أدمن جمهور السينما شتيمته كان قد مات منذ سنين، وجاء بعده عم الطيب الذي لم يحظ بهذه الشتائم، لأن الاسم - هارون – هو الحاضر في ذاكرة الجمهور حين ينفعل بالشتائم، في العام ١٩٧٦ من القرن المنصرم كان احتفال عيد الاستقلال في مدينة كادوقلي، وكان قد التف عدد متنوع من الجمهور في مركز شباب كادوقلي لمشاهدة البث التلفزيوني أول مرة في المدينة، وفي غمرة ذلك الشعور الحميم انقطع الإرسال فجأة، فما كان من بعض الجمهور من مدمني السينما إلا أن التفوا إلى الوراء شاتمين «هارون».

حدث لا يمكن تجاوزه أو عبوره بأي حال من الأحوال، حدث يخصني بمعيار ومقدار، هو الذي حرضني على الكتابة عن

علاقـتي وعلائقـي بالسـينما، بعـد أن وجـدت أنـني كنـت قـد سجلت هـذا الحـدث في مفكـرتي للعـام ٢٠١١، فيمـا بعـد منتصف فبرايـر مـن هـذا العـام كنـت مسـتغرقًا في بروفـات وتفاصيـل مسرحيـتي – الفكـت منـو - والـتي عرضـت عـلى خشـبة المسرح القومـي بـأم درمـان في بدايـة مـارس مـن العـام نفسـه، وكنـت قـد تسـلمت بوسـتر المسرحيـة، ومـن ضمـن خطـة الإعـلان كان عـليَّ أن أعلِّـق البوسـتر في منطقـة الفتيحـاب وضواحيهـا، خاصـة حـي المربعـات المجـاور للبنـك العقـاري، وكنـت أسـكن هنـاك، وأنـا عائـد إلى البيـت فيمـا قبـل المغـرب بقليـل، نزلـت مـن الحافلـة في لفـة البنـك العقـاري، وكان هنالـك مطعـم ومقهـى في ناصيـة المحطـة، أغـراني الموقـع كي أعلـق كـم بوسـتر هنـا، اسـتأذنت صاحـب المطعـم وفي أثنـاء شروعـي في فتـح حقيبـتي لإخـراج البوسـتر لاحظـت أن رجـلًا أشـيب، طويـل القامـة ، نحيفًـا، وكأن السـنين قـد أرهقـت جسـده، وكنـت قـد لمحتـه ينظـر إليَّ بعمـق، أخرجـت البوسـتر مـن الشـنطة وحـين هممـت بتلصيقـه عـلى إحـدى أبـواب المطعـم ، كان الرجـل يتابعـني بحيـث إنـه كان ورائي، وحـين هممـت بإلصـاق البوسـتر، جـاءني صـوت الرجـل عميقًـا:

«مـا معقـول يـا يحـيي، أنـت قبـل أكـتر مـن أربعـين سـنة، كنـت يـا ابـني بتعمـل نفـس العمليـة».

وحـين التفـت إليـه مندهشًـا، داهمـني بحميميـة وأخـذني في حضنـه وقـال لي بصـوت عميـق: «أنـا الطيـب، عـم الطيـب يـا

يحـيى بتـاع السـينما».

فما كان إلا أن أكتب ما كتبت.

الفهرس

إهداء	٥
كادوقلي بين الضحكة والبارود	٧
أستاذي الزاكي جمعة يوسف	٣٨
شكرًا لكل هذا التحريض الجميل	٣٨
كيدمان وصل	٣٩
أحمد حاوتين	٤٧
أغنية لـ «عمر الخليفة»	٣٥
البعاتي	٥٩
عمي فؤاد	٦٩
عوض ك	٧٥
هروب	٨١
عبدو جوطة	٩٣
عصابة الدندورمة	١٠٣
عم أحمد زايد، يحمل عقله المتداعي في قدميه	١٠٩
قاطع الطريق الجميل	١١٧
صفا - انتباه	١٢٣
محمد علي حمامة	١٣٣

شكوى مضادة	١٣٩
أوراق كادوقلي القديمة	١٥٣
عمي البولاد الملخص الأعظم	١٦٥
طاحونة منولي	١٧١
معايشة	١٧٩
طرابيش علي عبد اللطيف	١٨٥
توتو كورو ينسج إيقاع نومه	١٩٣
وتد العمر زكريا	٢٠٣
ارتباكات التفاصيل الحرجة	٢١١
كشة	٢٢١
توتو الباشا	٢٢٩
سينما	٢٣٩
جمعة كافي تيه	٢٤٩
خور كلبي يفتقد «أوهو»	٢٦٢
«كبي جزلان»	٢٧٢
إبراهيم مرمطون، رمزًا ومرموزًا للفجيعة والدمار	٢٨١
علاقات وعلائق السينما	٢٩٥

Willows House
منشـــــورات
ويلوز هاوس